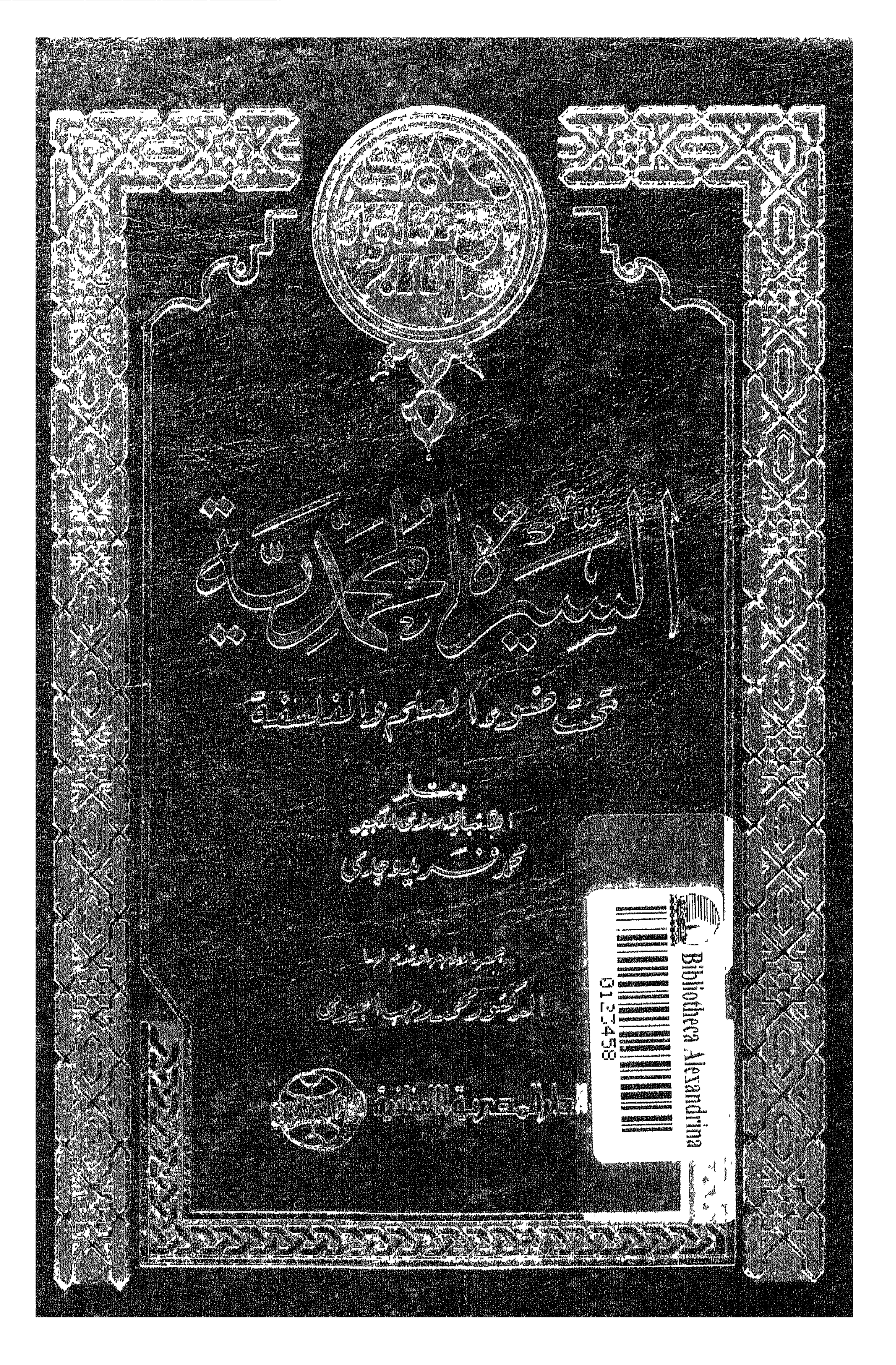

السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة
بقلم
الكاتب الإسلامي الكبير
محمد فريد وجدي
جمع مادته وقدم لها
الدكتور محمد رجب البيومي
الدار المصرية اللبنانية
Bibliotheca Alexandrina
0123458


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





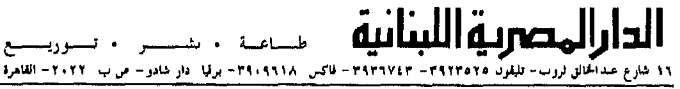



السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويري بمكتبة الخانجي

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م





AL DAR AL MASRIAH AL LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St P O Box 2022 Cairo Egypt PHONE 3936743 3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

بقلم

الكاتب الإسلامي الكبير

محمد فريد وجدي

جمعها وراجعها وقدم لها

الدكتور محمد رجب البيومي

الناشر

الدار المصرية اللبنانية



بسم الله الرحمن الرحيم



بين يدىْ الكتاب

محمد فريد وجدى
العلامة الموسوعى الناقد

تمثلت العصامية العلمية فى شخص الكاتب الكبير المغفور له الأستاذ محمد فريد وجدى تمثّلاً رائعا ، يدعو إلى الالتفات ، فقد اتجه بنفسه إلى تحصيل معارف كثيرة تيسرت له دون تلقين وتوجيه ، حتى أصبح بها علما من الأعلام البارزة فى دنيا الأدب والثقافة .

وقد نال فى حياته شهرة فائقة جعلت مؤلفاته الكثيرة تطير فى آفاق العالم الإسلامى ، وتترجم إلى عدة لغات شرقية وغربية ، ثم ذهب إلى ربه فلم ينهض من تلاميذه الكثيرين من يكتب تاريخه الحافل بالمجد والرفعة ، وكأنه لم يكن ملء البصر والسمع فى دنيا تتحيف المجاهدين وتتناسى العاملين .

كان الأستاذ وجدى صاحب رسالة هامة يكرّس فى سبيلها جهده ، ويبذل فى تبليغها قوته وماله ، فلم يكن يتخذ من الكتابة الأدبية مجالا للتزيّد والمباهاة ، ولكنه وضع أمامه هدفا مرموقا يجهد فى الوصول إليه .

فقد رأى الإسلام لعصره غرضا تتجه إليه السهام ويتناوله أعداؤه بالافتراء والتشكيك .

أما أنصاره فقد أضافوا إليه من الخرافات والغرائب ما ضاعف محنته وأعان الموتورين عليه من ذوى الأهواء ، وتلك محنة أليمة ! تتطلب النجدة المسعفة والكفاح المرير ، والعدة الناجحة فيها مثابرةٌ على البحث وجلد فى الدفاع ، ويقين ثابت لا تعتوره الشكوك ، وإخلاص ملهم يمده العقل الثاقب والاطلاع الغزير ، وقد تهيأ ذلك كله للأستاذ العلّامة ، فتجرد لكفاحه النبيل وأصدر الكتب المتتابعة ، وأنشأ الصحف والمجلات المتعاقبة وسارت الأيام بأبحاثه وآرائه حتى أصبحت آثاره العلمية ملاذا يعتصم به الإسلام فى مهب الزعازع .

على أن الشك الدينى لدى الأستاذ فى نشأته الأولى قد هيأ له هذا القدر الهائل من الثقافة إذ تعرضّ فى صباه اليافع إلى هواجس عاصفة ، زعزعت يقينه وكدرت أفقه – كما سجل ذلك على نفسه – وتطلب الإفادة ممن حوله من العلماء الرسميين فما وجد شيئا ذا غناء ، فاندفع فى قراءاته الشاملة يستوعب ويتعمق ، وينتقل بين المعارف الكونية والاجتماعية والنفسية والتاريخية والدينية حتى انكشفت له حقيقة ناصعة ، تسجل عظمة الإسلام ورفعته ، وتؤكد مطابقته لأرقى الدساتير المنطقية التى يتقيد بها العقل السليم ، فما من فضيلة تدفع إلى رقى البشرية وإصلاح الكون إلّا تجد دعامتها الوطيدة فى قواعد الإسلام ومبادئه ، فكيف يرمى بالجمود القاتل بغياً دون علم ! لابد من دفاع مقنع يكشف اللثام عن الحق الصريح .

وفى هذا الميدان الشاسع انطلق الكاتب الغيور يلقى حججه ، ويؤكد قضاياه ، وقد وجد أكثر هذه الشبهات الظالمة تفد من الغرب ، فتسرى بين المسلمين سريانا مدمرا عاصفا ، فألّف بالفرنسية كتابه عن : « المدنيّة والإسلام » ليطلع القوم فى أوربا على ما تضمنته الشريعة الإسلامية من مثل فائقة تدفع إلى الحضارة والعمران وتهيىء للإنسانية وسائل الأمن .

وقد نص فى مبدأ كتابه هذا على : أنّ الأوربيين معذورون فى تصديق التهم ضد الإسلام والمسلمين ، « ولهم الحق فى العمل ضدهما ما داموا لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدين غير البدع التى اخترعها صغار العقول ، وزادوا أشكالا من الأوهام والأباطيل تنفر منهم الطباع البشرية وتنافى أصول المدنية » .

وقد نُقل هذا الكتاب – أعنى المدنيّة والإسلام – إلى اللغة العربية ، فقرأ المسلمون صحيفة صادقة عن دينهم المفترى عليه .

ومع أنه ألف الكتاب فى سن العشرين فقد أعجب به كثير من منصفى الغرب والشرق ، حتى جعله الدكتور تشارلز آدمز قرينا لكتاب الأستاذ محمد عبده : « رسالة التوحيد » إن لم يزد عليه فى الشمول والاستقصاء !!

وقد كانت مصر فى مطلع هذا القرن ذات حاجة ماسة إلى ذخيرة وفيرة من المعارف الإنسانية فى شتى العلوم الحديثة فليس بها من المؤلفات العصرية ما يسد

فراغا هائلا يوحى بالجهالة الأمية ، وينذر بالتقهقر السريع إلى عصور الظلمات فعكف الأستاذ وجدى على إصدار دائرة معارف القرن العشرين فى عشرة مجلدات ضخام ، وأعد لها مطبعة خاصة تخرج على الناس بإنتاج الكاتب وحده لا شريك له !!

وإذا علمنا أن هذا العبء الثقيل لا ينهض به فى أمم الغرب غير الجماعات المتنوعة واللجان المختصة ، ممن يقضون أعواما طوالا متساندين فى البحث الدائم والاطلاع الجاهد حتى يصدروا إحدى دوائر المعارف فى ثقافة واحدة عن أمة واحدة ، ثم تقام لهم حفلات التكريم ، وتتقاطر عليهم أوسمة التقدير ، ويمنحون على الفور أرفع الدرجات الفخرية فى الجامعات العريقة !!

إذا علمنا ذلك ورأينا الأستاذ وجدى ينهض بالعبء المرهق فيقوم به فى مدى عشرة أعوام على أحسن ما يستطيع ، ويقدم للغة العربية وحده مكتبة حافلة ، تضم شتى المعارف الإنسانية من قديمة وحديثة ، فإننا نتساءل كيف وجد من الأعصاب القوية والعزيمة الماضية والاطلاع المتشعب ما هيأ له النجاح دون أن يطمع فى مأرب مادى ، أو يتعلق بجاهٍ أدبى ، مكتفيا بما يستشعره من سعادة نفسية ، إذ يشارك فى بناء الثقافة الحديثة ويمهد لأمته طريق المعرفة والدراية .

ومهما قيل من أن دوائر المعارف تستنفد أغراضها لأجل محدود ، فإن بها من التراث الفكرى ما يكفل لها البقاء التاريخى وإن غيرت المكتشفات الحديثة شيئا من مقرراتها المؤكدة ، أو أضافت إليها من الشرح ما يسير بها إلى الكمال المنشود ، فذلك من شأن الحياة ولن يعفّى على جهد كادح وإنتاج خصيب !! .

والحق أن نجاح الأستاذ وجدى فى أبحاثه يرجع إلى اعتزازه برسالته ، وعمله فى الحقل الطبيعى الذى كونته ميوله واتجاهاته عن عقيدة وإيمان ، فهو قد نصب نفسه مجاهدا عن الحقائق الإسلامية ، لا يترك مجالا للحديث دون أن يسهم فيه بأوفى نصيب .

وقد ظهرت لعهده طائفة كثيرة من الكتب البراقة لأقلام لامعة نشيطة تحارب الفكرة الإسلامية ، وتصادف ارتياح الأغمار ممن لا يفيئون إلى دراسة واسعة أو

تفكير مستقيم .

وما أكثر من يصفق للجديد دون روية أو تبصّر مهما تكشفت مثالبه واتضحت سوءاته .

ولكن فريدا يقف بقلمه الجبار أمام ما يخرجه هؤلاء جميعا ، فيتلقى الكتاب الذائع بالنقد الصائب والتفنيد السديد ، وطريقته النقدية تدعو إلى الإعجاب والعجب معا ، إذ لم يسمح مرة ليراعه أن ينال شخوص ضحاياه على كثرتهم الغالبة ، بل اتجه إلى الآراء وحدها ، يعرضها كما ذكرها أصحابها فى أمانة وإحاطة ، ثم يدفع بالتى هى أحسن ، دفع المحيط الواثق دون أن تأخذه نشوة الفلج ، فيكيل لصاحبه ما يند عن آداب البحث ومقتضيات اللياقة ، بل إنك تراه يؤيد ما يتفق مع وجهة نظره تأييده يغمره بالثناء والإطراء ، فلا تدرى أأنت أمام مهاجم أم مدافع ! .

ولو سلك الناقدون مسلك فريد فى ردوده لضاق نطاق الجدل فى أقصر زمان ومكان ! وهيهات ، فإن التربية الحصيفة التى أرضعت الكاتب فى مهده الأدبى لا تتاح لغير القلة من النبلاء !!

وقد تواضع كبار الكتاب على أن يهملوا آراء من لم يبلغوا مكانتهم الأدبية من الشبان ، فلا تجد أديبا كبيرا يناقش كاتبا مغمورا يتسنم الدرجات الأولى فى سلم إنتاجه ، ولكن الأستاذ وجدى يشذ عن هذا الترفع الأدبى المتداول ، فيتناول جميع ما يصدر فى ميدانه الإسلامى أيا كان كاتبه ، ثم يسلك فى نقده مسلكه مع ذوى الذيوع والصيت ، وتلك إحدى فضائل الرجل النفسية ولها دلالاتها الأكيدة على مقومات سلوكه دون نزاع .

وقد لمس حاجة عصره إلى تفسير مناسب يقرب كتاب الله من الأذهان ، إذ أن التفاسير المتداولة تتيه بالقارئ فى أودية من العلوم : عربية وفقهية ومذهبية ، فتنأى به عن الروح الحى المتألق فى كتاب الله ، لذلك نهض بواجبه فى التفسير نهوض من يدرك أهمية عمله ، فذاع تفسيره الموجز ، وترجم إلى لغات كثيرة ، وتناقله جمهور المسلمين فى شتى بلادهم النازحة شاكرين .

ولعل من المسار المبهج أن تجد ثلاثة من علماء مصر تترجم أكثر مؤلفاتهم

إلى جميع لغات بنى الإسلام ، وهم فريد وجدى ، وطنطاوى جوهرى ، ومحمد رشيد رضا ، فاكتسبوا شهرة إسلامية تجعلهم فى طليعة علماء كل دولة تعتنق الدين الحنيف !!

و لم يغفل محمد فريد وجدى حق مصر عليه ، فقد كافح فى مضمار السياسة ، إذ أصدر صحيفة « الدستور القومية » لتكون منبر الوطنية الصادقة فى عهد الاحتلال ، وقد تعرض إلى هزات عنيفة دفع إليها تمسكه بمبدئه الصريح ، فقد وقف الخديوى عباس منه موقفا قاسيا حين رفض الأستاذ أن يجعل صحيفته مطية لحزب تركيا الفتاة ، إذ رغب إليه صاحب القصر أن يمحو شعارها الرسمى « لسان حال الجامعة الإسلامية » لتتجه إلى تأييده فكرة إدماج العرب فى القومية التركية !! .

ومع ما بذل من عروض سخية فى الجاه والمال فقد أصر صاحب الجريدة على شعارها الدائم ، وحاربته الدولة بمضايقاتها الكثيرة ، فاضطر إلى تعطيل صحيفته وهو مستريح الضمير لموقفه الصحيح .

ولا ننسى أنه قبل ذلك أيّد السيد توفيق البكرى فى موقفه من عباس ، إذ أصر شيخ مشايخ الطرق الصوفية على منع أتباعه من الاحتفال بالمحمل ، والسير وراءه كما جرت به العادة ، متحديا رغبة الخديو فى ذلك ، ونهض الأستاذ فريد وجدى ليعلن رأى الدين فى هذه البدعة ، معارضا كل ما قيل فى تبريرها من أوهام وملفقات ، حتى انتصر الكاتب الجرئ فى إيضاح الحق ، وأبان عن موقف الدين الصحيح دون خشية أو اكتراث .

أما خلافه السياسى مع مصطفى كامل ، فقد نشأ حين أصر الزعيم الشاب على توجيه خطاب سياسى إلى وزير خارجية بريطانيا فى شأنٍ ما من الشئون الهامة ، ورأى الأستاذ وجدى أن يوجه هذا الخطاب إلى جميع وزراء الخارجية فى أوربا ، كيلا يكون ذلك اعترافا من الحزب الوطنى لانجلترا بمركزها السياسى فى مصر ، وبسط الكاتب وجهة نظره فى مقالين كبيرين ، فانصرف أتباع الحزب الوطنى عن جريدته ، ولكنه أعلن رأيه السياسى غير ملتفت إلى ما سيكون من الكساد والبوار مما سنشير إليه بعد حين ، ولا نكاد نجد نظيرا لفريد وجدى فى حرية الرأى من

رجال الصحافة غير الأستاذ أمين الرافعى ، فكلاهما كان يتمسك دائما برأيه هازئا بما يعترضه من الصعاب ، رحمهما الله .

هذا وقد اتجه الأستاذ وجدى إلى الأبحاث الروحية ، فأصدر مجلة خاصة بها ، وأفرد لها أجزاء متتابعة من مؤلفه القيم « على أطلال المذهب المادى » ، وقد اتخذ منها حجة قوية يحارب بها من ينكرون الحقائق الغيبية فى عالم السموات والأرض ، وساعدته الاستكشافات الأوربية فى هذا المجال مساعدة ناجعة فتابعها بلذة وشغف ، وأخذ يفسر ظواهرها ويعلل نتائجها ، حتى أصبح – فى اللغة العربية – فارسها المعلم وكاتبها الخصيف ، وقد أتاحت له ثقافته العميقة فى علوم النفس والاجتماع والفلسفة فيضا زاخرا من الحجج العقلية والأسانيد الكونية أكسب مقالاته قوة ومتانة ، كما أورثه تضلعه العريق فى اللغة العربية أسلوبا مشرقا واضحا يصل به إلى أهدافه الفكرية وصولا أخاذا لا ينقصه البريق والنصوع ، حتى قال عنه الأستاذ باول كراوس : أنه ملك كتّاب العرب على الإطلاق .

وقد صاحبت الأستاذ وجدى وجالسته ، فرأيته فى أخلاقه الرفيعة نبيا ملهما ، وما ظنك بإنسان يقوم لخادمه إذا دخل عليه مهما تعددت مرات دخوله ؟ !! ، فإذا سألته فى ذلك أجاب متسائلا : عن الفرق بينه وبين الزائرين من الأضياف !! .

ولن يحتاج قارئه إلى معرفة شخصيته فأسلوبه الجدلى ، وطريقة نقاشه ، ومذهبه الإصلاحى .. كل أولئك ينادى بمثاليته الرفيعة ، ويشف عن منازعه ، و« الأسلوب الرجل » كما يقال .

وقد كان فى سنيه الأخيرة رئيسا لتحرير « مجلة الأزهر » فرفعها إلى مستوى ثقافى مشرف ، وكتب بها فصولا دسمة تذكرنا بفصوله الحية التى كان يتابعها فى الجرائد اليومية ذات الشهر الواسعة ، « كالدستور ، والمؤيد ، واللواء ، والأهرام ، والجهاد ، والبلاغ » ، بل إن صاحب « كوكب الشرق » كان ينشر مقالاته فى

صفحة « الأخبار المحلية » ليجتذب إليها أنظار القراء !!

ونحن نأمل أن يجىء اليوم الذى تجمع فيه هذه المقالات فى أجزاء متتالية لتؤدى رسالتها العلميّة على أوسع نطاق .

د . محمد رجب البيومى



محمد فريد وجدى
والسيرة النبوية

قضى الأستاذ العلاّمة محمد فريد وجدى عمره الحافل مجاهدا فى سبيل الله ، إذ تفرغ لدراسة شكوك الملاحدة فى هذا العصر وجلّها وافدٌ من العرب ، سواء ما كتبه الأوربيون أنفسهم طعنا فى الإسلام بخاصة وفى رسالات السماء بعامة ، أو ما كتبه مَن تورّط فى ترديد ما قاله هؤلاء الطاعنون مضيفاً إليه ما ظنه يخدم فكرة الشك الملحد ، وقد أصدر فى مدى ستين عاما من عمره الذى ناهز الثمانين عدة مؤلفات رائعة تتجه هذا الاتجاه نذكر منها كتبه : على أطلال المذهب المادى ، الإسلام دين عام خالد ، الإسلام فى عصر العلم ، مدنية الإسلام ، مهمة الدين الإسلامى فى العالم ، ولما كانت بعض هذه الطعون تتجه إلى نبىّ الإسلام بغيا دون حق ، فقد عمل الأستاذ على تفنيد هذه الطعون على مدى حياته ، فى فترات متعاقبة ، ثم رأى أن يخصّ السيرة النبوية المطهرة بكتاب خاص تحت عنوان (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة) أخذ ينشره تباعا فى مجلة الأزهر على مدى سبع سنوات ، فجاء ما كتبه تحت هذا العنون نهجا فريدا فى بابه ، وقد رأينا أكثر من كتبوا فى السيرة من بعده قد نقلوا عنه دون أن يشيروا إليه ، وكأنهم رأوا أن عدم جمع هذه الفصول الرائعة فى كتاب مستقل مما يبيح لهم أن ينهبوا أفكارها دون الإشارة إليها ، وإذا فعل ذلك من يتصدّر لكتابة سيرة الرسول فقد جانب الأمانة التى هى من أبرز صفات من يتحدث عنه ، وكان المنتظر أن يقتدى بنبى آمن به ، وبذل جهده لدراسة حياته ، وتمجيد أخلاقه ، لذلك رأيتُ من الواجب الأكيد أن أفرد هذا الفصل للحديث عن هذه الفصول الرائعة الممتدة الخصبة التى كتبها الأستاذ محمد فريد وجدى ونشرها فى مجلة ذائعة ، وقد جمعت الآن فى كتاب خاص ليسهل تناولها على الدارسين !

ذكر الأستاذ محمد فريد وجدى أن مثقفى اليوم لم يعودوا يقنعون بسرد الأحداث التاريخية دون تعليل ولا يكتفون بالتسليم بوجود النبوة دون أن يبحثوا ماهيتها أهى حاجة من حاجات الروح الإنسانية أم هى مرجد ظواهر اجتماعية تولّدها

ضرورة الاجتماع مثل ظواهر الارتقاء فى الحياة الإنسانية ؟ والوحى الذى تعتمد عليه النبوة ، كيف يؤمن به المعاصرون دون دليل معاصر يقدمه الكاتب محسوسا ملموساً لا تمترى فيه العقول . فالزمن زمن التنقيب الفاحص ، ولابد للسيرة أن تعرض فى لون فكرى يرضى كل متعطش للمعرفة ، ويقنع من يمترى فى الحق لشكوك تقوم فى نفسه !

وقد لاحظ العلّامة فريد وجدى أن كثيرا ممن تحدثوا عن السيرة النبوية من المسلمين ، وهذا حق ، كان معتمدهم على الأساليب البيانية ، والبراعة الخطابية ، ولم يعنوا بحاجة العقول المجبولة على التشكك إلى الاطمئنان المتثبت ، كما أن بعضهم قد اندفع إلى تسجيل إسرائيليات مزعومة ما كان لها أن تكتب ، ولم يبخس الأستاذ من كتبوا من زملائه بتمحيص ونقد فأشاد بعملهم الجيد ، وذكر أنهم تركوا أشياء دلّت عليها البحوث العلمية المعاصرة ولم يطرقها فى مجال تأييد السيرة النبوية كاتب إلى هذا الزمن ، لا سيما وقد أصبح القول الفصل للعلم المؤيد بالبرهان ، وكل قول لا يؤيده العلم الحقيقى هو خيالات لدى مفكرى اليوم ، فوجب أن تدرس السيرة تحت ضوء العلم .

شرع الأستاذ يكتب فصول السيرة النبوية ابتداء من المجلد العاشر من مجلة الأزهر وقد صدر فى سنة ١٣٥٨ هـ حتى المجلد السابع عشر وقد صدر فى سنة ١٣٦٥ هـ ، ولكن السيرة النبوية فى صميمها قد وقفت عند نهاية المجلد الرابع عشر الذى صدر سنة ١٣٦٣ هـ وما كتبه الأستاذ بعد ذلك قد جاء خاصا بتعاليم الإسلام وهديه العالمى ، وإن جعله تحت عنوان (السيرة المحمدية) ولو كانت مكان الكاتب ، لجعلت تعاليم الإسلام خاصة بموضوع مستقل عن سيرة الرسول ، وهى كذلك أيضا فيما كتب ، ولكنه تمسّك بعنوان السيرة المحمدية فشمل هذه الفصول جميعا ! وماذا عليه لو جعل السيرة مستقله بأحداث الرسول فامتد بالعنوان إلى نهاية المجلد الرابع عشر ، ثم بحث عن عنوان جديد لهذه القوانين الهادية والإصلاحات المفيدة التى أتى بها الإسلام ! ولو كان لى أن أقترح شيئاً بالنسبة لجمع هذه الفصول لاقترحت أن تصدر فى جزئين متواليين ، يخص كل الأول سيرة رسول الله واقفا عند نهاية المجلد الرابع عشر ، ويخص كل الثانى فى الحديث عن هداية الإسلام !

وسأقتصر الآن فى مجال التحليل على الجزء الأوّل لأنّه من موضوعنا فى صميم الصميم ! .

إن أول موضوع بدأ به الباحث هو موضوع النبوة والأدلة العلمية على حدوث الوحى ، وهو موضوع عالجه الباحثون من قبل ، ولكن معالجة الأستاذ محمد فريد وجدى كانت جديدة من وحيه الخاص ، وقد قال إن الأدلة المنطقية على صحة النبوة كثيرة ، ولكن العقول المعاصرة تتطلع إلى الأدلة العلمية الملموسة لا إلى الأدلة المنطقية المعقولة ، وعلى من يريد أن يتقدّم بالدليل العلمى الشاهد فى رأى الباحث أن يتساءل عن أمور ثلاثة :

١ - هل فى الوجود المحسوس ما يدل على حدوث معرفة الكائنات نفثا فى الرُّوع من غير طريق الحواس .
٢ - هل توجد حوادث إنسانية يقرها العلم نفسه تثبت وجود اتصال باطنى بين النفس وبين عالم أرقى منها .
٣ - هل يمكن أن يعترف العلم بوجود عالم روحانى فوق عالم المادة يسوّغ اعتبار الوحى أمرا ممكنا ؟ [1] .

هذه هى الأسئلة التى تصدر الأستاذ للإجابة عنها بما يملك من جهد فكرى ، فقال عن السؤال الأول وهو الخاص بمعرفة بعض الكائنات لأشياء كثيرة نفث فى الروع عن غير طريق الحواس ، قال إلهام الحيوان أمر ظاهر لا شك فيه فالفراش متى وصل إلى الطور الثالث من حياته يضع ببضه على أوراق خضراء ، وهذا البيض لا يفقس إلا فى الفصل الثانى بعد وفاة الأمّ فيتهيأ الوليد الجديد ليأكل من الورق الأخضر ، ويتساءل الكاتب من الذى علّم إناث الفراش أن صغارها تحتاج إلى الغذاء ، هل هدتها الأمهات إلى ذلك وهى لم تر أمًّا فى حياتها ، هل هديت إليها بعقولها ؟ إنها ليست ذات عقول فلم يبق إلا القول بالإلهام .

ثم استعرض الأستاذ حشرات وحيوانات شتى مثل (النيكروفر) التى تموت

---

(١) مجلة الأزهر المجلد العاشر ص ٩٠ .

بعد أن تبيض مباشرة وتجمع جثثا حيوانية لأولادها الصغار قبل أن تموت ، ومثل (البومبيل) من آكلة الحشائش ، وقد هيأت لها الأم ما تتغذى به من الحيوانات لأنها فى الفترة الأولى من حياتها لا تستسيغ الحشائش ؟ فمن أدراها أن صغارها ستحرج من آكلة الحيوانات ؟ .

أمثلة شتى استعرضها الأستاذ ليثبت أن الإلهام يأتى نفثا فى الروع لدى الحيوان ، فلا يستبعد لدى الإنسان ، ولم ينسَ أن يذكر ما قاله الطبيعيون فى الرد على ذلك بأن هذا الإلهام عادة موروثة فهى داخلية إذن ، فقال مفندا هذا الرد كيف يعقل أن تتفق عليها هذه الحيوانات فى كل زمان ومكان ، وكيف تورثها لأخلافها وقد ثبت علميا أن الوراثة للصفات والعادات غير ممكنة ؟ وأنا أزيد على الأستاذ فريد وجدى فأتساءل ؟ إذا كانت هذه الاحتياطات عادات موروثة ؟ فكيف اهتدى إليها الموروث الأول ومَن الذى دلّه على أن يكتشف غيبا لا يكتشفه إنسان مفكر فضلا عن حشرة صغيرة ! إن الإلهام الخارجى ثابت إذن .

وفى الإجابة على السؤال الثانى الذى يتساءل عن حوادث إنسانية يقرّها العلم نفسه تثبت وجود اتصال باطنى بين النفس وبين عالم أرقى منها ؟ ذكر الأستاذ ما عرف عن عقليات تتصف بالعبقرية تأتى بقفزات مدهشة ! والأستاذ لا يستشهد بالعبقرية ليثبتها لمحمد ﷺ فهو يرى أنه نبى موحى إليه ، ولكنّ مظاهر العبقرية لدى بعض البشر ، وهى الأمر الخارق للعادة ، والصفة التى لا تخضع لقانون ، هذه العبقرية قد وُجدت فعلاً ، فرأينا من الناس – وقد شاهدنا ذلك عيانا فى مصر – من يضرب رقما حسابيا مكوّنا من خمسة أعداد فى رقم مماثل ويأتى بالنتيجة صحيحة فى سرعة عجيبة ! فكيف اهتدى ذلك الشخص إلى الجواب ، وقد يكون أميّا ، لاشك أن اتصالا راقيا كان يمدّه بما لا يستطيع أن يقوم به كبار النابغين بديهة دون عدّ ، ومتى ثبت أن هناك اتصالا للعبقرى ! فأولى أن يكون هذا الاتصال العلوى للنبى ! مرّة أخرى ، أقول إن الأستاذ وجدى لا يثبت العبقرية لمحمد ليجعلها أساس النبوة ، ولكنه يقول إذا تصوّرنا العبقرى فى الحياة بأعماله الخارقة ! فمن المعقول أن نتصور النبى بإلهاماته الصادقة ؟ فما العبقرى حينئذ إلا مثل مقرب فقط .

وقد استعرض الأستاذ أمثلة شتى لأناس من الغرب أدهشوا العالم بخوارقهم

الحسابية والرياضية والموسيقية والشعرية ناقلاً قوله عن الشهود لهم من كبار الأكاديميين فى انجلترا وفرنسا لينتهى إلى وجود اتصالات روحانية باطنية تمدّ الإنسان عن طريق العقل العادىّ .

أما السؤال الثالث عن اعتراف العلم بعالم روحانى فوق المادّة ، فقد تحدث عنه الأستاذ وجدى بإشباع مستفيض فى كتاب (على أطلال المذهب المادىّ) ثم أوجز حديثه فى مقال مركز ليثبت ما قاله الروحانيون من أساتذة الجامعات الأوربية عن القوى المجهولة التى تظهر آثارها أمامهم ، ويحارون فى تعليلها ، ولكنهم على تحيّرهم فى التعليل لا يستطيعون أن ينكروا وجودها ، وهى تأخذ عليهم كل سبيل ! .

لقد بذل الأستاذ جهده فى إثبات الإلهام بما استطاع من الأدلة العلمّية ، وإذا كان لكل كاتب مَن ينقده فى بعض قوله ! فحسب الأستاذ أن أضاف جديدا يصلح للنقاش ، وأذكر أن السيد محمد رشيد رضا قد تحدث فى كتابه الرائع (الوحى المحمدى) عن إمكان الوحى السماوى بأدلة فكرية غير التى اهتدى إليها الأستاذ ! وللقارىء الحريص أن يستوعب ما قاله الأستاذان ، وأن يتابع ما دار حول ذلك من نقاش مفيد ، وقد قال الأستاذ وجدى فى خاتمة حديثه (ولسنا نريد أن نثبت إمكان الوحى بالاستناد إلى اكتشاف هؤلاء العلماء فيما وراء الطبيعة ، فقد أثبتنا وجوده بالحسّ من الغرائز التى طبعت عليها الحيوانات ، ومن حوادث العبقريات ، ولكننا نستأنس بها فى بحثنا هذا دلالة على أن الإنسانية قد اجتازت دور الافتتان بالماديات ، وبدأت تدخل إلى عهد من الحياة تتفق فيه فتوحات الروح من طريق النبوة وفتوحات العقل من طريق العلم [1]) على أننا إذا تأملنا ما أورده الأستاذ فى هذه النواحى الثلاث فإننا نجد الناحية الأولى ثابتة بنص القرآن إذ قال الله عز وجل (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيُوتا ومن الشجر ومما يعرشون ....) أما اختلاف العقول قوة ونبوعا وابتكارا – وهى الناحية الثانية – فمن المشاهد الملموس الذى لا ينكره أحد . فإذا نظرنا ثالثا إلى تمسّكه بما انتهت إليه الدوائر الروحية فى

---

(١) المجلد العاشر من مجلة الأزهر ص ١٦٨ .

جامعات الغرب من شواهد دالة على وجود العالم العلوىّ ، فإننا نجد هذه الشواهد مما يستأنس بها فحسب ، كما قرر ذلك بنفسه ، أما حقيقة الروح فهى من أمر الله ! وقد قال الله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ ! وجميل أن نقف عند هذا الحد .

وإذ انتهى الأستاذ من التدليل العلمى على ثبوت الوحى ، فقد انتقل إلى التدليل على ثبوت النبوة ، فينكر أشد الإنكار أن يذهب الماديون إلى أن النبوة أثر من آثار السذاجة الإنسانية الأولى ، ويرى أن الحاجة إلى النبوة أصيلة فى النفس البشرية ، لأن المجتمع الإنسانى كالجسم الحى ينفى بقواه الذاتية كل ما لا حاجة إليه فيه ، ولم يستطع فى أى طور من أطوار حياته أن ينفى رغبته فى العزاء النفسى أمام ما يصيب الإنسان من الكوارث ، وهو عزاء لابدّ منه أمام الكوارث المتتالية ، والخطوب المستمرة ، فقد يستحوذ الإنسان على المال والجاه والسلطان ثم يعوزه العزاء حين يقعده المرض أو يصيبه الموت فى أعز الناس لديه ، فما يغنى عنه الثراء أو السلطان شيئا ؛ ولكن عزاءه يكمن فيما جاءت به النبوة من وجود ملتقى نهائى فى عالم الغيب به يجتمع الشمل ، ويهون الفقد ، هذه الحاجة الماسّة إلى العزاء وجدها الإنسان فى تعاليم النبوات – كما يقول الأستاذ وجدى – فهى التى تتولاه وهو أشد ما يكون احتياجا إلى كلمة طيبة تشرق عليه بالأمل ، كيلا يظل يائساً تصطرع فى نفسه الهموم فيحاول صرفها بالشراب والرحلة والاندماج فى الملاهى دون جدوى لأنها لا تبرح نفسه أنّى سار ! ولولا ما جاءت به النبوة من العزاء ما وجد السلوان .

ومن أقوى ما كتبه الأستاذ فريد وجدى ما تحدث عن نفسية الرسول قبل النبوة وبعدها ، ليردّ على من يذهبون إلى أنّه ادّعاها إدعاء دون وحى منزل ! فيقول الكاتب أن رسول الله لم يشتهر قبل البعثة بين قومه بمميزات تدعوه إلى التطلع للرئاسة الدنيوية ، فقد كان لدى العرب قبل مبعثه من يتصدرون لكشف المستور بما يحترفون من قيافة أو كهانة أو طب ، وكان للناس فيهم معتقد كبير إذ يسألونهم عن المجهول فيجيبون ، ولم يكن لمحمد صلة بهؤلاء حتى يتسامى للحديث عن عالم الغيب تبعا لكهانة أو سدانة ، كما أن كل إنسان كتب له النبوغ فى عمل من الأعمال فإن دلائله تظهر عليه مبكرة منذ نشأته الأولى ، وكلما تقدمت به السنون تضافرت الدلائل

على موهبته حتى يصبح علما فى بابه فى الخطابة أو الشاعرية أو الحكمة ، ولكن نشأة محمد الأولى لم تكن لتدل على أنه يتهيأ لرسالة السماء فى شىء ، ولم يظهر لديه أى ميل للتفكير فى هداية الناس إلاّ قبيل البعثة مباشرة حين حببت إليه الخلوة فى غار حراء ، فكان يمكث وحده متأملا مفكّرا فى ملكوت السموات والأرض يقول الكاتب الكبير [1] ببعض التصرف :

(إن هذه النفس الحائرة الثائرة التى لم تجد فى العالم المحسوس ما تعول عليه أخذت تتلمس بلال غلتها فى عزلة الكهوف وظلمة المغاور وهى محرومة من ملاذ المطاعم والمكاسب لهى نفس لم تطبع على غرار النفوس العادية ، وإلاّ فماذا كان ينقص محمدا بعد أن بلغ مبلغ الرجال وأصبح له زوجة وأطفال حتى يؤثر حياة العزلة فى حراء على متع الحياة الاجتماعية ، أكان يتطلع من وراء هذا الزهد إلى زيادة موارده المالية وتحقيق ذلك لا يكون إلاّ فى الأسواق العامة للتجارة دون الاعتزال) .

وبيئته العربية لم تكن لتهتم بالمسائل الروحية ، ولا ترى السيادة فى قريش لذوى التحنث والإخبات ، فلماذا لجأ محمد إلى حراء قبيل البعثة ؟ إن القلوب الكبيرة تلهم أنها مستقر لأسرار خطيرة وهذا ما ألهمه رسول الله حين حببت إليه الخلوة فآثر الاعتزال .

لقد أصيب محمد بالخوف حين جاءه الملك لأوّل مرّة فما سّر ذلك ؟ ثم أصيب بالحزن حين فتر عنه الوحى حتى عاد إليه فأمره بالدعوة إلى الإسلام ! أيكون قد تخيّل أو اختلط عليه ؟ إن المتخيّل والمختلط عليه لا يأتى بقرآن معجز محكم وإنما قصاراه أن يهذى بما لا يفهم ، وقد جاء محمد بتجديد الدعوة الإلّهية خالصة من الشرك ، ونجح أكبر النجاح فى تجلية حقائقها ، وإفحام خصومها ، فكيف يكون مختلطا عليه فيما يبلغه للناس من كتاب الله ، والمختلط عليهم من الهاذين والمسحورين لا يأتون بعمل إيجابى ؟!

فى أمثال هذه المعانى كتب المؤلف فصلا عن دعوة محمد إلى ربه فنّد فيه كل

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ص ٤٠٧ .

شبهة يتفوّه بها منكر لينتهى إلى قوله الرائع – ببعض التصرف – :

(اللهم ما أقوى سلطانك وأسطع برهانك ، أمّى فى أقصى بيئة عن العمران ، وأبعد مكان عن معترك العقول ، ومضطرب النظريات والمبادىء ، وبين ظهرانى قوم لم يألفوا النظام ، و لم يأنسوا بالوحدة ، ينتدب أن يكون رسولا للناس كافة فيدعوهم للكلمة الجامعة ، ملوّحاً لهم بالأصول الحكيمة لتحقيق هذا المأرب ، الذى لم يطف بخيال فيلسوف ولا مصلح قبله ، مدللًا على إمكانه بالأدلة القاطعة ، ضاربا لهم المثل العملى بتأليف أمّة عالمية ليس فيها ظلّ من نعرة القومية ، ولا عصبية الجنسية ، وبتوزيع العدالة ، وجميع الحقوق المدنية بين الكافة بالسّوية ، أمّة خالصة من جميع علل الاجتماع يسودها قانون أصوله الحقوق الطبيعية ، رأس مالها المعرفة ، دينها العقل ، سلاحها الحكمة ، غايتها المثل الأعلى ، أمّى فى أقصى بيئة عن العمران يأتى بكل هذا بنصوص صريحة لا تحتمل الصرف والتأويل لا يعقل أن يكون كل هذا من عنده ! بل لابد أن يهبط عليه من عالم علوى ، إذ هى أرقى مما سبقها من فلسفات الأقدمين مجموعة متصافرة ! ومن العجيب أن موحى هذه التعاليم يقرر سبقها لزمانها ، وأن الناس سيعرفون فضلها بعد حين ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ أى دليل على الوحى أقوى من هذا الدليل [1] .

بهذا المنطق المتسلسل دعم الأستاذ فكرة الوحى أولا وفكرة النبوة بعامة ثانيا وفكرة نبوة محمد ﷺ ثالثا ! فجلا القتام عن حقائق خافية وهدى إلى خير جزيل .

لقد كانت إحاطة المؤلف الكبير بشبهات الغرب حول رسالة نبى الإسلام ، وتوثبه لتفنيدها فى مدى تطاول إلى أكثر من نصف قرن ، كانت هده الإحاطة دافعة إلى وقوفه المتئد أمام ما يلوكونه من هذه الشبه ، وكانت للكاتب عفة قلم تجعل ألدّ خصومه يصيخون إليه فى احتفال ، كما كان منطقه من الوصوح بحيث لا يجيز لنفسه أن يلجأ إلى الدروب الملتوية ، والمسالك المعوجّة ليحيّر مناظره ، بل يلقاه على قارعة الطريق واضحا سافرا ، يفجؤه بالرد الحاسم النافذ فى غير جلبة أو ضجيج ،

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ص ٤١٢ .

وإذا كان ادعاء هؤلاء المتخرصين قد تكاثر حول القول بأن محمدا ﷺ قد جاء فى فترة توثبت فيها الجزيرة العربية للنهوض وتطلعت إلى الإصلاح الدينى والاجتماعى والثقافى نافرة من جاهليتها الجهلاء ، وقد لمس النبى هذا الشعور فقاده بسهولة جعلت رسالته هينة الأداء ، سهلة المجتنى ، لم ترهقه عسرا فى أمره ، حيث لم يزد فى منطق هؤلاء على أن قاد جماعة تريد أن تتجه إلى الإصلاح مشوقة إلى مشارق الضياء ، إذا كان هذا الادعاء قد تكرّر لدى من يحاولون إنكار هذا الجهاد النبوى الشاق ، وقد تواصوا به حتى أخذوا يكررونه كالشيء البدهى الذى لا يحتمل النقاش ، فإن الأستاذ فريد وجدى قد أعطى قدرة حاسمة على العصف بهذا الإدعاء الواهم ، حين قال إن هؤلاء المضلّلين قد نسوا أنه لو كان الأمر كما يزعمون لما استنكر المشركون دعوة الرسول ، ولالتفوا حوله مذعنين ، ولكن بيئة النبى فى مكة وهى أرقى قبائل العرب إدركا قد ثار ثائرها وجنّ جنونها وطفقت تحارب الرسول وتابعيه بالاستهزاء والإيذاء والاضطهاد والمقاطعة حتى اضطر المضطهدون إلى الهجرة مرتين إلى الحبشة ، وبعد أن عانى المسلمون ما عانوا من عتو قريش فرّوا مهاجرين بدينهم إلى المدينة ، وما كاد الرسول يقيم مع أصحابه فى يثرب حتى تعرّض لحروب طاحنة مع المشركين ، فهل يعقل أن يكون هؤلاء الذين حاربوا محمدا بالسيف والدم كانوا يتطلعون إلى دعوته كى تقودهم إلى النور فلما هتف بها انجذبوا إليه طائعين ؟ .

يقول الأستاذ فريد وجدى فى شرح هذه القضية – ببعض التصرف القليل –:

(هل لم يبلغ الخصوم أن قريشا وهلى القبيلة التى يُرجى أن تكون قد شعرت قبل غيرها بعوامل التوحد والنهوض قد بقيت محاربة للدعوة الإسلامية تؤلب عليها العرب ، وتجمع لها الجموع ، وتقصد بهم قاعدتها بيثرب لتبيد حضراءهم فيها ، حتى شارف صاحب الدعوة ﷺ أن يدعى إلى الرفيق الأعلى ، ولولا أنه رأى وجوب فتح مكة عنوة لبقيت جرثومة الكفر فيها تثير على حلفائه الحروب وتنفر منهم القلوب ، فإذا كانت فى بلاد العرب هذه الفكرة عن النهوض أكانت تتخطى صميم العرب من قريش وخزاعة وتميم وهوازن وتأوى إلى قلوب أهل يثرب ؟ وإذا كانت هذه الفكرة قد جالت فى رءوس بعض مفكريهم فمادا قالوا فيها من شعر ونثر ، وقد تكلموا فى كل شيء حتى الفسق والفجور ، الحق الذى لامرية فيه أن بلاد

العرب قد خلت من هذه الدعوة العامة إلى التوحيد ولو وجدت لوصلتنا أنباؤها إذ لا يمكن أن تظل خفية فهى شعور تولده الحاجة فى الجماعات ! أما وقد ثبت ذلك بكل دليل فإن مصداقه من القرآن قول الله تعالى ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ [١] . هذا الاعتراض المتردد فى دوائر الاستشراق قد تكرر ردّ الأستاذ فريد وجدى عليه أكثر من مرّة فيما كتب من موضوعات السيرة ، كما كرره فى مقالات أخرى سبقت نشر هذه البحوث بسنوات ، إذ كان لا يترك مناسبة تعن حتى يفرد المقالات الضافية متحدثاً عن أثر الإسلام فى إصلاح المجتمع الإنسانى ! وكان على الأستاذ رحمه الله أن يشير فى هذا الموضع إلى مَن عرفوا فى الجاهلية قبيل الدعوة بالحنفاء وهم بضعة نفر لا يزيدون على خمسة أشخاص كانوا يتعبدون على دين إبراهيم ، وقد خاصمهم الجاهليون وأعرضوا عنهم لائمين ، فكانت عبادتهم خاصة بهم ، ولعل الأستاذ حين قال إن بلاد العرب قد خلت من هذه الدعوة العامة كان يدرك أن دعوة الحنفاء كانت خاصة بهم فليس لها شيء من هذا العموم ، ولعلى قرأت له فى غير هذا المجال ما يشير إلى دعوة الحنفاء ، وتلاشى تأثيرها فى غير أصحابها وهم لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة ! ولو كان محمد ﷺ واحدا منهم فقط لما زاد عليهم فى شيء ، ولكن الله قد اختصه برسالته فجاهد وناضل حتى أخرج بها الناس إلى النور من حوالك الظلام .

تابع الأستاذ أحداث السيرة فتكلم عن نشأة النبى قبل البعثة ، ثم عن جهاده فى أداء الرسالة عقبها ، وعما تعرّض له من الإيذاء والاضطهاد صابرا مثابرا ، وعمن أسلموا معه وشاركوه عبء الجهاد مقتدين به ، وإذا كان ذلك معروفا لدارسى السيرة النبوية فلا مناص للأستاذ من ذكره ليحلّل ما تضمن من عظات ، وينير ما خفى من دلائل ، حتى إذا انتهى من هذا السرد الواضح المؤثر فى غير جلبة رنّانة ، بل فى هدوء واثق مطمئن عقد فصلا رائعا تحت عنوان (نظرة فى مناهضة المشركين للدعوة الإسلامية) كرر فيه ما سبق أن قاله بشأن مقاومة الجاهليين للرسالة المحمدية

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ص ٥٦٣ .

ودلالتها على عدم تهيؤ الجو الاجتماعى للدعوة تلقائيا دون وحى منزل ، كما تحدث عن صلابة الذين دخلوا فى الإسلام بحيث لم تستطع أعنف ضروب الإيذاء أن تصدّهم عن الدين الجديد ، وقد يكون الحديث فى هذه الناحية غير جديد ، أما الجديد فهو ما شرحه الأستاذ خاصا بما أحدثه الإسلام من انقلاب لا نظير له فى النفس العربية إذ أيقظ فيها العاطفة الدينية بعد همود ، لأن العرب فى مكة وما حولها لم يخضعوا لأناس يتخصصون فى شئونهم الدينية ويقومون بالدعاية لها كما عهد لدى المتدينين فى أكثر بقاع العالم ، كما لم يكن لديهم صحف أو نقوش تسجل ما يقومون به من من الشعائر الدينية ، وهذا يدل على أنّهم يعبدون أصنامهم عن تقليد متوارث من ناحية ، وعن ضعف الشعور الدينى عامة من ناحية ثانية . فإذا استطاع الإسلام أن يبعث شعورا دينيًّا جديدا كالذى بعثه رسول الله فى مثل هذه البيئة ذات العبادة المظهرية فحسب ، فذاك انقلاب خطير لا يعهد نظيره فى تاريخ البشرية فإذا أضيف إليه غلبة الدعوة الإسلامية على ما عداها فى حياة رسولها المحدودة فقد تمت المعجزة الخارقة للدين لأن ما تقدّم الإسلام من دعوات دينية لم تتح له السيطرة التامة فى حياة رسوله ، بل مضت حقبة طويلة حتى استطاع أتباع هذا الدين نشره على فترات ذات أبعاد ، فالسرعة العاجلة فى انتشار الدعوة آية من كبرى آياتها الخوالد .

هذه النظرات الاجتماعية العميقة تدل على ذاتية مستقلة لدى الكاتب ، ونحن نعرفه من باحثى علم الاجتماع ودارسيه ، وقد انتقع بدراسته الاجتماعية انتفاعا مهّد له سبيل التحليل البصير والتعليل الدقيق ، بحيث أتى فى هذا المجال بما يخالف المعهود ممّا يعلم الدارسون ، فنحن نعلم ما قيل عن سبب انتشار الإسلام بين الأنصار فى المدينة ، وكانوا يتحاربون تحاربا ضاريا لا هدنة فيه ، حتى جمعهم الإسلام على الحب والإخاء ، وقد قيل فى سبب استجابتهم السريعة إلى الإسلام أن مجاوريهم من اليهود كانوا يحدثونهم عن نبىّ حان ظهوره فى بلاد العرب وأنهم سيتبعونه ابتغاء العزة والاستعلاء ، فلما سمع المتقاتلون من الخزرج والأوس بظهور رسول الله ، وعرضت عليهم دعوته نشطوا لاتباعه ليسبقوا إلى ما أمّله اليهود فيعتزون بالنبىّ ويستعلون ! هذا ما جاء فى كتب السيرة من تعليل لانجذاب الأنصار بالمدينة إلى الإسلام ، ولكنّ الأستاذ محمد فريد وجدى لا يقبل هذا التعليل لأمور معقولة أهمها أن أهل يثرب

لم يدخلوا فى الإسلام و لم يقوموا بالدفاع عنه إلاّ بعد ثلاث عشرة سنة من وجوده ، فأين كانوا فى هذه المدة وهم يسمعون من اليهود بحديث النبى المنتظر ؟ وإذا صحّ أن اليهود كانوا يعتقدون بوشك ظهور نبى فى بلاد العرب وأنهم يعولون على الانضمام إليه أفكانوا يصرّحون بذلك لأعدائهم من الأوس والخزرج غير خاشين أن يسبقوهم إليه مع ما نعهد فى بنى إسرائيل من الحرص على كتمان السّر وعدم اطلاع أعدائهم على ما ينوون ؟ ثم هل كان الأوس والخزرج من السذاجة بحيث يصدّقون كلام أعدائهم من اليهود ولا يظنونهم مخادعين وبخاصة إذا كان النبى القرشى لا يزال مضطهدا فى قومه ، وأصحابه مستضعفون فى أكثرهم لا يغنون عن أنفسهم شيئا ؟ ولماذا يميل إليه الأنصار وهم إنما يطلبون رجلا قويا ذا أنصار أقوياء يستعينون بقوته على الخصوم ! وإذا كانت الحرب بين الأوس والخزرج هى التى دفعتهما معا إلى الإسلام ليتحدا تحت رايته فتحتجز الدماء أفما كانوا يدركون أنهم بمناصرتهم نبى الإسلام تجنبا للحرب قد فتحوا أمامهم جبهة حربية جديدة هى جبهة قريش بمكة وحلفائها بالجزيرة العربية . وستكون العاقبة أكثر وبالا ! كل ذلك مما يجعل التعليل المدوّن فى كتب السيرة واهى الحجة فى منطق الأستاذ فريد وجدى ليذهب إلى أن مشيئة الله وحدها قد شاءت أن تأتى بالأوس والخزرج عونا للمسلمين فى ظروف حرجة بالنسبة للمهاجرين والأنصار معا فألقت فى قلوبهم حب الإسلام الخالص بعيدا عن كل اعتبار دنيوى ، بل طمعا فى جنة الله ، ولعل مما يؤيد الأستاذ وجدى فى ذلك وإن لم يذكره فى مجال التعليل أن أصحاب بيعة العقبة حين سألوا الرسول عما ينتظرون بعد تأييده وعدهم بالجنة وحدها ! لا بسيطرة دنيوية وسلطان أرضى ! وقد قال الأستاذ فى خاتمة هذه التساؤلات المحيّرة عما دفع بالأنصار إلى الإسلام :

(لو كان لمحمد مال أو مدد من الرجال أو اتصال بأمة عظيمة تنصره إذا اقتضت الحال لقلنا إن الأوس والخزرج إنما مالوا إلى حيث يرجون العز والسؤدد ، ولكنهم حيال رسول عدم الناصر فى قومه ، وليس يتوقع له فوز يطمع فى خيره فماذا الذى جمعهم على التطوع لنصرته والتضحية بنفوسهم فى سبيل دعوته ، اللهم إنى عجزت عن تعليل هذا الأمر الجلل بالعللِ الطبيعية ، ولا أراه إلاّ آيةً إلٰهية ،

وكم فى الأرض والسموات من آيات يتخيّلها الجاهلون أمورا عادية [١] .

وقد تساءل الأستاذ فى بحثه لِمَ أحجم اليهود عن المسارعة إلى قبول دعوة الرسول ، وقد بلغتهم قبل إسلام الأوس والخزرج ؟ وهوتساؤل أجاب عنه كاتبو السيرة من السابقين حين ذكروا أن اليهود كانوا يتوهمون أن النبى المنتظر من بنى إسرائيل ، فحين علموا أنه من قريش ركبوا رءوسهم وأنكروه وقد بشّرت به التوراة فحرفوها مدلسين ، على أننّا نعرض ما أثاره الأستاذ وجدى بشأن اندفاع الأنصار إلى الإسلام لا لنذكر أنّه لا يقبل النقاش ، بل لنقدّم وجهة نظر لباحث أطال التفكير حتى انتهى إلى أنّ هذا الاندفاع آية إلّهية لا تخضع لتعليل صريح ! ولنعرض نمطا من التساؤل الحائر الذى يقف بأصحابه أمام سدّ منيع يحاولون اقتحامه فلا يستطيعون .

لقد اهتم الكاتب بموضوعه اهتماما يظهر فى استقلاله الذاتى أمام تفسير الأحداث وتعليلها حتى فيما اشتهر منها غاية الاشتهار ، فموضوع كموضوع الهجرة النبوية لم يحظ موضوع مثله باهتمام الدارسين ، حتى خصصت به الأعداد الموسمية من المجلّات الأدبّية والإسلاميّة فى كل عام فى شتى بلاد الإسلام ، وحتّى أصبح المتحدثون عن هذا الحادث الجلل لا يكادون يجدون ما يقولون ، فيبتعدون عنه مضطرين إلى موضوع نبوى آخر ، أو يتكلفون له صياغة أدبية فنية تلمّ به إلماماً يتجددّ فيه الشكل البيانى وحده أما الموضوع فلم يعد يتطلب المزيد ! هذا الموضوع الذائع الجهير قد فتح الله فيه على الكاتب بمدّ جديد حين وقف وقفة متأنية أمام انصراف المشركين عن غار ثور يوم الهجرة دون أن يلجوه وقد انقطعت أمامه آثار الأقدام ، وتعيّن أن يكون مأوىً للمهاجريْن ، فيذكر الكاتب أن القرشيين كانوا أحرص الناس على العثور على النبى تخلّصا مما سيجره عليهم من الحروب والمنازعات لو سلم بنفسه واستقر بالمدينة ، وقد دلّهم القائف على أن آثار الأقدام قد انتهت عند الغار ، وكان للعرب ثقة مطلقة فى قافتهم فيكون عدم تعويلهم على قوله مع وجود الغار ومع عدم استحالة الولوج فيه من أعجب ما يُروى من الأحداث .

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ص ٢٢ .

يقول الكاتب مستطردا : [(١)] (رضينا أن نظن أن يكونوا قد تهيبوا النزول إلى الغار لتفتيشه ، وأن يكونوا قد تخيّلوا أن مَن ينزله تنوشه أفاعيه وتُرديه ، ولكننا لا نرضى ولا نقبل أن نتخيل أنهم يتركونه ويرجعون أدراجهم دون أن يحاصروه أياما وليالى حتى يتحققوا من خلوه وإلاّ اضطررنا أن نتهمهم بالإهمال فى أمر يعدونه أخطر الأمور .

ولسنا نكتفى بهذا ولكنا نقول : كان يجب عليهم أن يقيموا فى كل طريق يمكن أن يتسرب منها إلى يثرب كبكبة من الفرسان تقطع الطريق على خصمهم ، فإذا لم يفعلوا مع تحليهم بأرفع صفات الحيطة الحربية ، فإن إغفالهم له قد فسر بأن الله قد صرفهم عنه ، ولكنى التزمت فى هذه السيرة ألاّ أتجاوز أصول الدستور العلمى فلا ألجأ إلى الظن فى موطن يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية ، وحياة النبى حافلة بالآيات الدامغة فلا حاجة بها إلى ما يمكن الخصوم من تجريحه لذلك فأنا أفسّره بأنه تغابى من قريش عما هم بصدده كما تغابوا عن هجرة كبار الصحابة إلى يثرب ، كأنهم اكتفوا بأن يبعد عنهم النبى إلى حيث لا يراه العرب فى موسم الحج فيفتتن بعضهم بشدة بيانه وقوة عارضته) .

ولنا عند هذا الكلام وقفة ! فقد قال الكاتب إنه لم يذهب فى تعليله هذا النكوص عن تتبع الرسول إلى أن الله قد صرفهم عنه مُماشاةً للعلل الطبيعية والتزاما بأصول الدستور العلمى ! لأنه قدّر فى نفسه أنه يخاطب بكتابه خصوم الإسلام الذين يضيقون بكل تعليل غيبى لا يماشى ما يلتئم حسيًّا مع الأحداث ! مع أنه فى تحليله لموقف الخزرج والأوس من المسارعة العاجلة إلى الانضواء تحت راية الإسلام وهم يعرفون ما سيترصدهم من تبعات ثقال عقب هذا الانضواء !

أقول إنه ذهب فى تحليله هذا الموقف إلى أنه آية إلٰهية فوق البحث ! وإذا تعدّدت مواقف الدعوة الإسلامية التى لا تجد العلة الطبيعية المسلّمة ، فإن تعددّها المتوالى يكوّن أصلا علميا جديدا هو خضوع الأحداث لقوة إلٰهية كبرى أعظم من

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ص ٨٣ .

أن تدركها عقول البشر بالتحليل ! والاعتراف بهذه الحقيقة يلزم من ينكرون هذه القوة المسيطرة أن يأتوا بتفسير علمى لما يرون من مظاهرها القاهرة التى لا تتقيد بعرف أرضى ! فإذا عجزوا عن ذلك وقد ظهرت آثار هذه القوة الإلّهية ماثلة للعيان ، فعجزهم هو العيب الشنيع الذى يجب عليهم أن يتداركوه ، وليس لنا أن نستجلب رضاهم بالوقوف عند التعليلات الحسيّة وحدها ! ولماذا لا تكون المعجزات النبوية التى ترادفت على أيدى الأنبياء جميعهم مسألة علمية لها دستورها المطرد الذى يتجاوز الطبيعى إلى غيره ، فهى قياسية بالنسبة للأنبياء ودليل صحتها العقلى والعملى ما صحبهم من توفيق استمر أثره قرونا بعد قرون ، ولن يوفق محترف كاذب فى أمر خدع به الناس ، وكم رأينا فى صحف التاريخ من أناس خدعوا أتباعهم فترة محدودة من الزمن ثم تكشفت الأحداث فى حياتهم أو بعد مماتهم المباشر عن خديعتهم البلقاء فأصبحوا موضع التحقير والازدراء ! وهذا نقيض ما حصل للرسل عليهم الصلاة والسلام ، إذ عرف لهم الناس صدقهم الحقيقى وانتشرت دعواتهم بعد رحيلهم انتشارا يحمل عناصر صدقها البالغ ! فثبات الدعوة الإسلامية واطرادها المتقدّم على توالى العصور ممّا يؤكد هذه المعجزات الإلّهية ، بل ممّا يجعل هذه المعجزات دستورا علميا خاصّا برسل الله !

على أنى أرى أن كفار قريش إذا كانوا قد أهملوا اقتحام الغار كما قال الكاتب البحّاثة فإنهم لم يهملوا اقتفاء الرسول وتتبعه ، فقد بذلوا فى ذلك ما استطاعوا دون جدوى ! ثم فرضوا المغريات من الأموال لمن يستطيع العثور عليه حيّا أو ميتا ، وحادثة سراقة بن مالك أشهر من أن تعاد ! وإذن فقد أهملوا شيئاً وقاموا بشىء ! وأينا يأخذ الحذر فى جميع أموره فإنك تجد أشد العقلاء احتياطا يفكر ما يفكره ويتخذ التحفظات الواقية ، ويقيم الموانع الحاجزة ظانًّا أنه قد عمل لكل شىء حسابه ، ثم يفاجئه الموقف بما يدل على نقص التدبير ، ووجود الثغرات ! مع أنه احتاط ثم احتاط ، يخيّل إلىّ أن الأمر فى مسألة الهجرة بالذات قد جاء على ما نطق به الشاعر الحكيم حين قال :

وقاية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عالٍ من الأطم

ولسنا بهذا التعقيب نضائل من اتجاه الأستاذ التحليلى ، ولكننا نضيف شيئا إلى

شيء ليطّرد الحديث ..

على أن ما امتاز به الكاتب من النظر البعيد فى الأحداث النبوية إذا أفحم المعارضين بدقته العلمية فإنه يزيد المؤمنين إيقانا فوق إيقان ! إنه يقف بعقله المنقب أمام الحدث المشتهر فيقلبه ذات اليمين وذات الشمال حتى لا تكاد تخفى عليه خافية منه ، ليستلهمه فنونا من التحليل الصادق تقنع القارئ المنصف بديهة بقوتها النافذة ، وتحليلاته للغزوات النبوية هى الشاهد الأروع لما نقول ، إذا اختطّ لنفسه أن يذكر أحداث الغزوة كما يعرفها الناس جميعا ، حتى إذا بلغ مراده فى أتم ما يرتجى من مثله من الوضوح المشرق جعل يرسل نظراته الجديدة مشعّة بضياء جديد ، يَبْدهُ القارئ بطرافته وقوته ! ونمثل لذلك ببعض نظراته الصائبة فى غزوة بدر حين قارن بين قوة المشركين العددية وضآلة الكم العددى الذى لا يتجاوز الثلث لدى المسلمين ، وحين استعرض أسلحة الفريقين ليؤكد هذه الضآلة أيضا ! ثم يقول عقب ذلك إن القائد الذى يدفع برجاله إلى معركة يعتقد أنّ عدوه متفوق فيها بكمه وسلاحه ويقول لجنوده مع ذلك (أبشروا والله لكأنى أرى مصارع القوم) هذا القائد الذى يدفع بجيشه للحرب مع توافر أسباب الضعف المادّى لا يعقل أن يكون صادرا فى معركته عن مغامرة إلاّ إذا كان يريد المجازفة بما يملك من نفس ومال وأهل ، يقول الكاتب متسائلا :

(وما الذى كان يدفع محمدا لذلك ولم يكن مضطرا إليه بحال من الأحوال ، فلا قومه قالوا له قد غررت بنا وادعيت أنك فائز ولم تفز ، لأنهم كانوا هم الذين يطلبون إليه الرجعى بدون حرب ، ولا مشروعه كان سيتعرض للفشل لو رجع دون قتال ، لأن العدو لم يكن ينوى أن يهاجمه فى عقر داره ، ولو فعل لاستهدف للهزيمة لأن قوته لا تسمح له بالشروع فى حرب استئصال ، ولا هو – أى رسول الله – كان يخشى أن يتفرق عنه أصحابه إذا عاد ولم يلق ملجأ ، فقد خرج مرارا للاستيلاء على تجارة قريش وعاد دون أن يعمل شيئا لإفلاتها منه . فلم يؤثر ذلك فى إيمان أصحابه به ، فلم يبق إلا أنه دفع قومه فى هذه المعركة التى لم يستعدوا لها ثقة منه بما وعده الله من الفوز بإحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداهما فلابد أن يصدق وعد ربّه فى الأخرى ، فدفع أصحابه إلى منازلتها واثقاً بالنصر ثقةً لاحدّ لها ، لأن الله لا يخلف وعده : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾ فحقق الله ظنه وآتاه

نصرا أيّد به حجته [١] .

هذا نموذج لبعض ما أشرنا إليه من نظرات الكاتب الدقيقة وإنها لكثيرة تزدحم بها الصفحات .

وقد أتاح نشر هذه البحوث مسلسلة على صفحات مجلة الأزهر لكثير من العلماء أن يناقشوا بعض أفكارها فى الصحف المصرية بعامة . وعلى صفحات مجلة الأزهر نفسها ، فكان الأستاذ وجدى يترقب كل ردّ يوجه إليه ليعقب عليه فى المجلة التى نشرته تعقيبا يتسم بسعة الصدر ، وحسن التقبل للاعتراض ، وقد يكون فى الناقدين من يدفعه الشطط إلى تهجم مسرف يقبح أن يتجه إليه مَن أمرهم القرآن بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة والمجادلة بالتى هى أحسن ، ولكن الأستاذ فى ردّه يترك هذه الأشواك المعترضة ، دون أن يجازى ناقده بمثلها ، بل كثيرا ما يلتمس له العذر بشدة الغيرة وعنف الحمية ، ثم يهدف إلى اللباب الخالص ليعلن وجهة نظره دون لبس ! ولعل الذين يشتطون فى النقاش دون موجب أن يتخذوا العبرة من سلوك الأستاذ فيفيئوا إلى الهدوء المتئد لأن الزبد يذهب جفاء ، والقارئ الجاد يضيق بالتطاول والتزيد ، ويرى صاحبهما دون المستوى الجدلى اللائق ، ومن الذين ناقشوا الأستاذ وجدى على صفحات مجلة الأزهر فضيلة الأستاذ محمد عبد الله الجهنى شيخ المعهد الدينى بالقاهرة ، حيث ذهب الأستاذ وجدى فى حديثه عن الكتب التى أرسلها النبى ﷺ إلى الملوك والرؤساء لعهده إلى الشك فيما روى من أن قيصر الرومان حين جاءه كتاب رسول الله دعا إليه أبا سفيان بن حرب ونفرا من ذوى التجارة القرشية كانوا بالشام حينئذ فسألهم عدة أسئلة عن الرسول وعن آبائه وهل عهد عنه الكذب من قبل ؟ وهل ارتد أحد من دينه بعد اعتناقه ؟ وهل كان النصر له فى المعارك دائما أو سجالا ، وبم يأمر أتباعه ، وقد أجاب أبو سفيان عن كل ما سأل ! ثم قالت الرواية أن قيصر لما كان بحمص جمع عظماء الروم وأمر أن تغلق الأبواب ، وقال لهم إن الفلاح والرشد فى متابعة هذا النبى فهاج

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ص ٣٨٩ .

الحاضرون ، وصاحوا صيحة حُمُر الوحش ونفروا إلى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر هياجهم طمأن خاطرهم وزعم أنه كان يختبرهم فحسب ! هذه الرواية الذائعة لم تجد ارتياحا لتصديقها من نفس الكاتب فأعلن أنه يشك فيها ، وأن إجماع كتب السيرة عليها لا يمنع دون نقدها ، إذ لا يعقل فى منطق الكاتب أن يكون قيصر الروم من سرعة التصديق بحيث يعتمد فى إيمانه على رواية رجال لا يعرف مبلغ صدقهم فيما يقولون ، ولم يسألهم عما يجب أن يسألهم عنه ذو دين قائم عن الأسباب التى دعت إلى نسخ دين ، يتمسك به ، بدين جديد :

« وإذا لم تكن هذه الرواية مختلقة كلها ، فيمكن أن تحال إلى ما يمكن حدوثه عادة كأن يُظن أن حب الاستطلاع حمل امبراطور الروم أن يستحضر من كان فى مملكته من التجار ليسألهم رأيهم عن الدين الجديد ، أما أن يتحوّل إليه بهذه السرعة ويدعو إليه قومه وهم من أشد المسيحين تمسكا بالمسيحية ، فمما لا يمكن قبوله بوجه من الوجوه » [1] .

هذا ما اتجه إليه الأستاذ وجدى ، وهو ما لم يصادف قبولا لدى الأستاذ الجهنى رحمه الله ، فكتب نقدا هادفا نشره الأستاذ وجدى بمجلة الأزهر يقول فيه ما ملخصه « إن الأستاذ يرى أن تمسك النصارى الشديد بدينهم يحول دون سرعة التصديق المباشر فى غير اتئاد وأن هرقل لم يكن من سرعة التصديق بحيث يعتمد فى إيمانه عل رواية رجال لا يعرف مبلغهم من الصدق » ويرد الأستاذ الجهنى على ذلك فيقول :

(إن المطلع على صحيح البخارى يرى أن [هرقل] سأل عما يجب أن يُسأل عنه ، وأسئلته فى منتهى الدقة تدل على عقل ناضج وعلم واسع حتى أعجب به رواة الحديث وقد علم أن أبا سفيان ومن معه أعداء للنبى ﷺ فكلامهم الذى يشهد له لا يجوز أن يكون موضع ريبة لأنه شهادة عدو .

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد الثانى عشر ص ٣٩١ .

ثم تساءل الأستاذ الجهنى : هل كان النصارى يعتبرون أن ديانتهم قد تمت ولا نبى بعد عيسى وأنهم كانوا من التمسك بدينهم بحيث يستحيل أن أحدا منهم يسلم بسهولة ، أو أن الأمر بالعكس أى كانوا يترقبون نبيّاً آخر ، وأن منهم من هو سريع الانقياد إلى الحق متى طهر ؟ ويجيب الأستاذ على تساؤله بالاستشهاد بقوله تعالى ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل على الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنّا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ . فالقرآن – كما يرى الناقد – يقرر جملة حقائق عن النصارى : (١) أنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين وهذا يستلزم أنهم أقرب لهذا الدين ، (٢) أن شيمتهم التواضع وعدم الاستكبار والاستنكاف عن قول الحق ، (٣) وأن منهم من إذا سمع القرآن فاضت عينه بالدمع [١] ، ويتبع ذلك كله فى منطق الأستاذ أن يكون هرقل قد استجاب سريعا إلى كتاب الرسول وأن يكون قد دعا قومه إلى الإسلام فحاصوا حيصة حمر الوحش .

هذا لباب ما قاله الأستاذ الجهنى مع أشياء جزئية تتصل بالحواشي والأطراف ، وقد ردّ الأستاد وجدى على مقاله متتبّعاً كل ما جاء فيه ، وكيلا يمتد بنا الحديث إلى شعب كثيرة فإننا نكتفى بالاستشهاد بما ردّ به على موقف المسيحيين بعامة من الرسول حيث قال [٢] .

(لم ير فضيلة الأستاذ من حقى أن أرتاب فى سرعة تصديق امبراطور الرومان معتمدا فى ذلك على الآية القرآنية التى قررت أن النصارى أقرب مودة من سواهم إلى المسلمين ، لأن من أخلاقهم التواضع وعدم الاستكبار ، فهى تمدحهم بهذه الخلال ، ولا يقرن هذا المدح بالذم بأن يتهموا بسرعة التصديق ، وقد مدح الله المتثبتين المطالبين بالدليل ولم يمدح سريعى التصديق .

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد الثانى عشر ص ٤٩٧ .

(٢) مجلة الأزهر : المجلد الثانى عشر ص ٥٠١ .

ولو استعنا بالتاريخ فى هذا الموطن لرأينا أن النصارى كانوا أبعد تصديقا من جميع الأمم وقد وقفت دولهم للإسلام فى أول ظهوره وقفات ، لولا أن كتب الله له الغلب والانتصار لقضت عليه وليدا ، وقد دخلت أمم برمتها فى الإسلام كالفرس والديلم والترك ، وجماعات غفيرة أخرى ، تعدّ بعشرات الملايين فى الهند والصين وغيرها إلا الأمم النصرانية فإنها تمسكت بعقيدتها إلى أبعد مدى .

أما قوله تعالى ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل على الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ فهو قول صريح فى أن الذين فاضت أعينهم بالدمع كانوا قد آمنوا بالنبى ﷺ من قبل ، وآمنوا بالقرآن ، فلا عجب أن ترق قلوبهم عند سماعة فيبكوا ، وليس هذا بعجيب من قوم تذوّقوا طعم اليقين) .

هذا نمط من النقاش يغنى فيه ما ذكرناه عما تركناه لأنه يدل على اتجاهه ويشى بمنحاه ، وليس لى أن أفصل بين المتناقشين ، فقد وقف معى القارئ على أدلة كل مناقش وله أن يتجه إلى ما يرضاه ، وقد امتد النقاش فى مقال آخر متجها إلى أمور ذكرت عرضا فى المقال الأول وتطلبت الرد الحافل بالنصوص والمراجع وقد ختمه الأستاذ وجدى بقوله (١) .

(إن غرضنا من هذا كله أن ننفى عن السيرة النبوية كل ما يثير أعاصير الجدل مكتفين بالمسلّمات من الحجج ، والمقررات من البينات ، وهذا أفعل فى التأثير من الاستكثار مما يهيج المنازعات ويدعو إلى المناظرات) .

وإخال الرجل على صواب فى منحاه إذا توجّه بحديثه إلى الخصوم ، أما إذا خاطب الكافة من المسلمن فله أن يتبسط كما يشاء ، وقد أخذ الأستاذ وجدى لنفسه عبرة بالغة فى التحرى الدقيق إذ وجد كتباً مريبة ألّفها المبشرون ومَن لفّ لفّهم تجمع الغرائب المنكرة مما سجّله السابقون بحسن نيّة فى كتبهم فنقلوها على علّاتها مطردة إلى مصادرها ، وقدموها لقرائهم على أنها حق واقع كتبها علماء المسلمين من

---

(١) مجلد الأزهر : المجلد الثانى عشر ص ٥٣٨ .

المتخصصين دون أن يتزيّد عليهم متزيد ، ومن أمثلة ذلك ما قام به الكاتبان الفرنسيان (لوميريس) (وجاستون دوجاريك) من وضع كتاب فى السيرة المحمدية ذكرا فى مقدمته أنهما يوردان سيرة نبى الإسلام كما كتبها أتباعه لا يزيدون حرفا واحدا ، وهو خبث مقصود إذ يوحى للقارئ الأوربى أن هذه الأساطير المكذوبة ، والروايات الملفقة حق لامرية فيه ! وأى سبّ للإسلام أبلغ من أن نجعل الخرافات المكذوبة تاريخا لنبيّه ومقوّما أصليا من مقوماته ، وأى تشويه لتاريخ المسلمين أنكى من جمع هذه الخرافات التى كتبت فى مصادرها الأولى بنيّة حسنة ، ثم جاء من استغلها استغلالا دنيئا فجمعها فى كتاب كبير وحرص على إذاعتها بين أيدى الأعداء والموتورين ، وتلك خيانة علمية لا نظير لها ، لأن جامعى الكتاب يعرفان قيمة هذه الروايات عند رواتها ويعلمان أنهما يجمعان كل ما قيل لا على أنه حق ، بل على أنه أشياء تحتمل التصديق والتكذيب وأن إسنادها إلى رواتها يعفى الجامع من مسئوليتها ! فإذا كان هذان الجامعان المغرضان يعرفان طريقة التدوين فى الكتب الأولى ، ولم يكشفا عنها لقرائهما ، بل سردا المكذوبات وكأنها حق ، فلا تدليس أشنع مما ارتكباه ! ولو رُزق الأوائل حذرا حريصا فى اختيار ما يقال لأعفوا من شر كثير .

وقد اكتفى الأستاذ وجدى بالسرد التاريخى فى أبواب قليلة لم يجد لديها ما يستحق الوقوف المتئد ، كحديثه عن السرايا وعن غزوة يهود خيبر ، وجلاء بنى النضير ، وعن الوفود المتعاقبة على المدينة وغير ذلك ، وكأنه رأى فيما ذكره من التحليلات فى الفصول المماثلة ما يغنى عن الإعادة ، ولكل كاتب هدوؤه الذى يدفعه إلى البسط والتحليل ، وتعجله الذى يدفعه إلى الرد المتسرّع ، إذ ليست ظروف الكتابة لدى من يزاولونها ممّا تسير على نمط واحد لا تتعدّاه ، وكاتب السيرة التحليلى يشعر بتهيب شديد فى كل ما يخط مخافة أن يزل إلى خطأ غير مقصود فيتحمل تبعة نفسيّة تؤرقه وتضنيه ، إذ ليس من يؤرخ لنبى الإسلام كمن يؤرخ لبطل عادىّ من رجال التاريخ ، فمؤرخ النبى يتحدث عن رسول قدوة فى فعله وعمله وأى تفسير مخطىء لموقف من مواقفه يكون مظنة خطورة محققة ! ولكن له أن يخطأ دون حذر فى تفسير مواقف غير الرسل ممّن يخطئون ويصيبون ، فتقف أخطاؤهم عند تاريخهم ولا تتعداه

إلى اقتداء واحتذاء ، لعل هذا الحذر البالغ هو الذى جعل الأستاذ يقتصد فى تعليقه إذا لم تنفسح أمامه أبواب الكلام عن طبيعة لا تكلف فيها ولا احتيال .

ولا نترك القارىء دون أن نلفته إلى ما افتتح به الكاتب حديثه عن فتح مكة حيث أفاض فى إبداع ذاتى هداه إليه التوفيق السديد إذ حلّل سهولة هذا الفتح ويسره الهيّن على غير المتوقع المنتظر إذ كان المظنون بعاصمة الشرك أن تكون حصينة منيعة لا تقع فى أيدى الغازين إلاّ بعد أن تسيل حولها أنهار الدماء ، وها هى ذى قد أسلمت مفاتيحها دون مقاومة تستأهل الذكر فكيف تأتى ذلك على غير توقع ، لقد مدّ الأستاذ مسباره التحليلى إلى أعماق الأحداث فرصد الأسباب الحقيقية التى أسقطت الثمرة الناضجة دون جهد ، وحصرها فى خمسة أسباب نشير إليها فحسب دون أن نلخصها ليرجع إلى استيعابها مَن يشاء ، وقد ختم حديثه عن الفتح الأعظم بكلمة رائعة للكاتب الانجليزى (كارليل) فى كتابه البطولة والأبطال حيث قال عن رسول الله فى تقدير وإعجاب :

(ماذا يطلب من رجل يدّعى أنه بنّاء من دليل على دعواه أكبر من أن يبنى بيتا يأوى إليه الناس ، وقد جاء محمد فادّعى أنه نبى ونشر دينا اتبعه مائتا ميلون [لعهد كارليل] من النفوس ووجدوا فيه سعادتهم ، وبقى هذا الدين قائما أكثر من ألف ومائتى سنة فأى دليل يراد منه أن يقيمه على نبوته بعد هذا ؟) [١] .

نطيل الاستشهاد لو حاولنا أن نسجل ما اهتدى إليه الأستاذ من إبدعات فى التحليل النفسى والتشريح الاجتماعى لما يتناول من أحداث ، لأن توفيق الله يصاحبه كثيرا فيما يزاول من هذا التحليل ، وقد أوتى مقدرة فائقة على أن يتدسس إلى نفس قارئه بأيسر اللمسات فيستولى على تقديره حين يوجز وحين يسهب معا ، ولعل من خطراته الرائعة ما عقب به على تقسيم الغنائم يوم الطائف حين غمر الرسول المؤلفة قلوبهم بالعطايا وترك كبار المهاجرين والأنصار ، وقد رضوا بذلك حين استمعوا إلى وجهة نظر الرسول ! وقد تعمق الكاتب هذا الموقف تعمقا اهتدى به

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد الرابع عشر ص ١٩٩ .

إلى قوله السديد :

(لا يبدون إلى ذهن القراء أن المجتمع الإسلامى قام على تصيد الأنصار بالمال أو بالإرهاب ، أو بغيرهما من الوسائل المادية التى تستهوى النفوس وتستولى على الأهواء فإن نظرة عجلى إلى ما حدث فى هذه الواقعة تنفى ذلك بدليل محسوس ، وذلك أن النبى ﷺ أعطى الأموال التى غنمها إلى الذين كانوا لا يزالون مشركين ، وإلى الذين أسلموا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وحرم منه أنصاره ومؤيديه الذى حصل له هذا المال باستماتتهم فى نصرته ، وتعرضهم لأفدح الأهوال فى تأييد دعوته ، فلو كان أمر المجتمع الإسلامى قائما على هذه الأغراض الزائلة لكفى هذا العمل فى حلّ جماعته أو على الأقل لحدثت فتنة تعرض وجودهم للخطر ، وقد شوهد أنه لم يحدث شىء من ذلك ، على أن مَن يرجع للتعاقد الذى حدث بين رسول الله والذين انتدبوا لحماية دعوته من أهل يثرب يرى أنهم لم يعطوا مقابلا لجهادهم غير ثواب الآخرة فإنهم لما اجتمعوا فى الهزيع الأخير من الليل فى بعض شعاب مكة وعرض عليهم النبى ما يطلب منهم أن يبذلوه من التضحيات فى سبيل الإسلام سألوه : وما لنا على ذلك يا رسول الله ؟ فقال لهم : الجنة ، فأجابوه : رضينا بذلك ثم انصرفوا ...[1]) .

وللأستاذ إبداع مماثل فيما افتتح به الحديث عن غزوة مؤته ، وفيما عقب عليه من حديث حجة الوداع إلى أن ختم حديثه النبوى بالكلام عن التحاقه ﷺ بالرفيق الأعلى وتركه أصحابه على الملّة البيضاء .

إلى هنا تم حديث الأستاذ عن حياة الرسول ، ولكنه شاء أن يتحدث عن مبادئ الإسلام تحت العنوان الذى اختاره وهو (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة) فشرع فى كتابة بحوث متتالية قال إنه يخصها ببحث الروابط التى جعلت من الأمة الإسلامية وليداً مستكمل الخلقة صالحا للبقاء على أكمل وجه [2] فكتب

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد الرابع عشر ص ٣٠١ .
(٢) مجلة الأزهر : المجلد الخامس عشر ص ١٣٣ .

ما يقرب من بضعة وعشرين فصلا فى تقرير مبادئ الإسلام وإيضاح أثره العالمى فى إصلاح الكون وهدايته ، وما دعا إليه من حوافظ قويّة تحمى الإنسانية من الانهيار ! ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه البحوث من خير ما كتب عن رسالة الإسلام فى القديم والحديث ، ولكنها لا تتصل اتصالا عضويا متلاحما بسيرة الرسول ، بل من الخير أن تنشر فى كتاب مستقل يحمل عنوانا مثل (رسالة الإسلام) .

ونحن فى نهاية حديثنا عن جهد الكاتب الكبير فى تدوين السيرة النبوية على النحو التحليلى الذى اختاره نحمد الله أن وفّقنا إلى جمع هذه المقالات فى سفر خاص ليسهل تداولها بين الناس ! والأستاذ فريد وجدى علم من أعلام الفكر المعاصر وقد قام وحده بتأليف موسوعته الحافلة (دائرة معارف القرن العشرين) فى عشرة مجلدات ضخام ! ولم يكد يمر عليه يوم واحد دون أن يخرج للناس جديدا من نقد اجتماعى أو توجيه علمى ، أو نقاش فكرى حتى عمرت الصحف والمجلات بمقالاته طيلة حياته غير ما أخرجه من الكتب المستقلة الحافلة إلى أن اختاره الله لجواره الكريم ، فلقى لديه جزاء ما قدّم من صنيع ، وهو - سبحانه - لا يضيع أجر العاملين .

د . محمد رجب البيومى

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

مقدمة

فى هذا اليوم (*) فاتحة العام الهجرى الحافل بالذكريات الخالدة عن الدعوة الإسلامية فى دورها الحاسم ؛ نبدأ فى نشر دراساتٍ متتابعةً فى حياة خاتم المرسلين محمد ﷺ على أسلوب جديد تحت ضوء العلم والفلسفة .

كانت هذه أمنيّتى منذ سنين ، ولكنى كنت أرجىء تحقيقها ، لا إيثاراً لغيرها عليها ، ولكن لما كنت أشعر به من المشقة العظيمة فى تَوْفِيَتها حقّها من الناحيتين العلمية والفلسفية على ما ينبغى أن تكون عليه فى بيئة أصبحت مطامعها العلمية لا تقف عند حدّ . فالناس اليوم – وخاصة متعلميهم – لا يقنعهم سرد الحوادث التاريخية دون معرفة عِلَلها الأوّلية ، سواء أكانت من طبيعة البيئة ، أم من مقتضيات الاجتماع ، أم من مستلزمات العاطفة الدينية التى جُبلت عليها النفوس البشرية . ولا يكفيهم سَرْد أطوار النبوّة وحالاتها دون معرفة ماهيّة النبوة فى ذاتها ، وهل هى حاجة من حاجات الروح الإنسانية كما يقول الدينيون ، أم هى مجرد ظواهر اجتماعية ، تولدها ضرورات الاجتماع ، وتستدعيها أمانى النفوس ، مثلها كمثل جميع الظواهر التى تتولد فى أدوار التطورات الأدبية للأمم ثم تزول وتحلّ محلّها ظواهر أخرى أكثر مناسبة ، وأوثق صلة بضروب الثقافات التى تتعاقب على الجماعات فى مراحل حياتها العقلية ؟

والمَيْل إلى تأييد أحد هذين التيارين الفكريين يستدعى إقامة الأدلة القاطعة

(*) أول المحرم سنة ١٣٥٨ هـ .

عليه ، ولا يمكن أن يؤخذ كقضية مسلّمة ، وخاصة فى هذا الدور من تنازع المذاهب الفلسفية .

ثم إن الكلام عن الوحى وأساليبه ، والاتصالات الروحانية بالملأ الأعلى ، وإمكان استمداد العلم عن العالم العُلْوىّ مباشرة بواسطة المَلَك ، خلافاً للسُنَّة المعروفة بين البشر ، كل هذا لا يتأتى للعقل الراهن أن يُسَلِّمه بغير أدلة تناسب خطورته الاعتقادية ، فالتزام كتابة السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة يوجب إيراد هذه الأدلّة ، ويوجب أن تكون من القوة ، وصحة الدلالة ، بحيث تصلح أن تثلج عليها الصدور ، وتطمئن إليها العقول ، لا أن تكون مسلّمات تحكُّميّةً فى صورة أدلة علمية .

لا أنكر أن هذا كله من أشق الأعمال الكتابية ، وأن المتكلِّف له بسبيل فتح طرائق جديدة للتدليل على أمور روحية يعتبرها أكثر الناس أجنبية عن المحاولات العلمية .

وليست تنحصر صعوبة هذا البحث فى هذه الناحية الروحية ، ولكنها تمتد إلى نواح أخرى علمية باحتة يصعب تعليلها بالأسباب المادية على مقتضى الدستور العلمى ، وسنضطر إلى تلمّس عللٍ لها من عالم ما فوق الطبيعة ، وهذا موضوع نزاع سيكون بيننا وبين العلم الاجتماعى نفسه ، لأنه لا يعترف بذلك العالم العلْوى ، ويهون عليه أن يتلمس للحوادث عِلَلاً واهية أو يتركها بدون تعليل تحاشيا من نسبتها إلى علل غير طبيعية . مثال ذلك قيام محمد ﷺ وحده بدعوةأمة برُمَّتها إلى ترك دين توارثته عن أسلافها أجيالاً كثيرة ، والأخذ بدين مناقض له فى جملته وتفصيله ، ونجاحه فيما تصدى له نجاحاً محيّراً للعقل لم يسبق له شبيه فى تاريخ النفسية الإنسانية . فالباحث العلمى يجد نفسه إزاء هذا الحادث الجلل مضطرا لأن يتلمس له العلل الطبيعية ، فيدعى أن الأمة العربية قبيل البعثة المحمدية كانت تتطلب دينا جديدا ، وتتطلع إلى تأليف كتلة اجتماعية تجتمع فيها كلمتها ، وتتوحد وجهتها ، وتتعين بها غايتها ، فلما ظهر محمد ودعا إلى الدين الجديد والاجتماع عليه ، تسارع العرب إلى تلبية ندائه ، فقام الإسلام وقامت جماعته ، وتمّ لها ما تمّ من الفتوحات الضخمة ، والمدنية الفخمة ، ثم اعترى هذه الوحدة التراخى ، وانتهى حال المسلمين إلى ما انتهى إليه اليوم !

يَدَّعِي الباحثُ العلميّ هذه الدعوى تخلصاً من ورطات الحيرة ، متعمّداً فى هذه السبيل الاستناد إلى علل باطلة ، يعلم هو قبل غيره عراقتها فى البطلان . فإن الأمة العربية لم تكن قبيل البعثة المحمدية تتطلب ديناً جديداً ، وكيف يعقل ذلك وقد رفضت دعوة النبى رفضاً باتّاً وعدّته كاذبا ، وعجبت من جَرْأتِه على الزراية بآلهتها ، واعتبرت التوحيد فِرْية لم يقل بها أحد غيره ، فقالوا كما ذكره الله عنهم : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلَاقٌ ﴾ (١) . فأمّةٌ تقول مثل هذا القول ، وتُنابذ الداعى إلى الدين الحق ، وتتقصده بالقتل حتى يختفى ويخرج من بلده فى جنح الظلام ، ويعتصم إلى غارٍ تفاديا من الطلب الذى أُرسل وراءه ، كل هذا منها لا يدل على أنها كانت تتلمس دينا جديداً أصلح من دينها الأول . وإنى أسأل القائلين بهذا القول : أى أمة فى الأرض من أهل القرون الماضية طلبت أن تتبدل دينا جديدا بدينها الذى ورثته عن آبائها ، وسعت إلى ذلك سَعْيَه ، فتمّ لها ما أرادت أو كادت ؟ ليس فى تاريخ البشر كله ما يدل على هذا . وفى الأرض اليوم أمم لو انتقد الباحث أديانها لعجب كيف يُسيغ قوم لهم عقول أن يدينوا بها فى عصر بلغ فيه العلم إلى حد التحدث فى الصعود إلى القمر ، ولم يكفهم المنظار الفلكى ولا آلة تحليل الأشعة المنعكسة منه لمعرفة تركيبه المادى ؟

أما دعواهم بأن القبائل العربية كانت تتهيأ لجمع شتيتها ، والقيام على هيئة أمة قبل بعثة النبى ﷺ ، فهى دعوى لا دليل لهم عليها ، بل لا أثر يؤثر عنها ، وإنّ أمّةً تدبّ فيها هذه الروح ولا تُؤْثَر عنها كلمة فيها أو بيت من الشعر أو أية حركة تنمّ عليها ، لأمر يوجب الدهش ، لا سيما وقد نقل الرواة من أخبارها كل صغيرة وكبيرة ، بل اختلقوا عليها ما شاؤا أن يختلقوه ، فلو كان لديها ميل للاجتماع لما خفى أمره ، ولكانت له شواهد كثيرة تشير إليه . وما حفز أصحاب التعليل إلى

---

(١) سورة ص : الآيات (٤ — ٧) .

هذه الاختلافات إلا حيرتهم فى تعليل حدوث انقلاب خطير كالذى حدث على يدى النبى ﷺ طفرة ، بدون أسباب مادية مهدت له آمادا طويلة .

ومما نسوقه من قبيل الإطراف فى هذا الباب أن الأستاذ مونتيه ، المدرس بجامعة جنيف ومترجم القرآن الكريم ، قدم لترجمته بمقدمة قال فيها : إن هذا الكتاب يحوى كثيرا من الأصول القيمة ، والتعاليم الصالحة ، وعبارته فى أعلى درجات البلاغة ، فلا يعقل أن يكون محمد والحالة هذه أُمّياً ، لأن الأمىّ لا يستطيع بحال من الأحوال أن يأتى بمثل هذا العمل الأدبى الضخم !

فانظر كيف يتعسف الأستاذ مونتيه فى حكمه ، وينسب الكذب لأعظم رجل أنجبته الأسرة الآدمية ، ويعزو الغفلة لأمة برمتها ، لمجرد أن الكتاب الذى هو بسبيل الكلام عليه لا يمكن صدوره من أمى ! ذلك لرسوخه فى عقيدته من أن العلم والحكمة لا مصدر لهما إلا العقل البشرى ، وأنهما لا يمكن أن يأتيا من طريق الروح ، لأن الروح عنده لا وجود لها ، والعالم الروحانى خيال بحت . ثم هو لا يريد أن يدع أمر صدور هذا الكتاب من رجل أمى أعجوبة خارقة للعادة ، يجب أن نتلمس أسبابها الحقيقية ، فرمى القول على عواهنه وعَلَّله على النحو الذى رأيت !

وأرانى من ناحية مضطرا لأن أقول : إن الكثيرين ممن تناولوا منا السيرة المحمدية بالكتابة جعلوا معتمدهم الأساليب الخطابية ، والأفانين البيانية ، ولم يعنوا أقل عناية بحاجة العقول القوية المجبولة على التشكك والتثبت ، فأسرفوا فى إهمال الناحية الإقناعية ، وتهافتوا على الناحية التسليمية ، فجرهم هذا الموقف إلى قبول كل ما وضعه الخرّاصون من المبالغات التى ضاهَأُوا بها ما ورد من أمثالها عن الأمم المختلفة ، مُعَاصِين بذلك كل ما ورد فى الكتاب من وجوب مجانية الغلوّ فى القول ، وضرورة التثبت فى النقل ، والتمحيص فى الرواية ، فجاءت السيرة المحمدية زاخرة بالأقاصيص الخرافية ، والروايات الموضوعة ، والأشعار المصنوعة . فإن تكن هذه الكتب المؤلفة فى السيرة المحمدية قد راجت لدى العامة ومن يجرى مجراهم ، فقد أهملها الخاصة ، وكان يجب أن تكون أول ما تتجه إليه عقولهم ، وتهوى إليه أفئدتهم . وقد تناول التأليف فى السيرة فى العهد الأخير رجال من أهل الثقافة الحديثة ، فوفوا بحاجات

فى نفوس الناس ، وبقيت حاجات أخرى لا تزال غير مُوَفَّاة ، بل بقيت نواح لفتت العلومُ الراهنة الأنظارَ إليها ، ولم يطرقها قلم كاتب إلى اليوم ، ولا يجوز أن تكون سيرة النبى ﷺ على هذا النحو من النقص ، وخاصة فى هذا العهد الذى بلغت الشكوك فيه أبعد مدى يمكن أن تصل إليه ، ووصل الاستخفاف فيه بأمر النبّوات إلى حدٍّ لم يبلغه حتى فى أظلم عهود الجاهلية .

لقد أصبح القول الفصل اليوم للعلم ، العلم الذى اتفق قادة الفكر الإنسانى على تسميته بهذا الاسم ، وهو جملة المقررات اليقينية على الوجود وكائناته مما سُرِّيت عليه أصول الدستور العلمى ، فكل قول لا يحصل على تأييد هذا العلم أو على القليل لا يماشى أسلوبه ، ويترسم حدوده ، لا ينال من العقلية العصرية المكانة التى يراد أن تكون له . وقد رفض هذا العلم كل ما عرض عليه من أساطير الأولين حتى العقائد التى بادت فى سبيل الدفاع عنها أمم برمتها ، وهذا العلم اليوم واقف لنا بالمرصاد ، ليفعل بعقائدنا مثل ما فعل بعقائد الذين سبقونا إليه ، والأمم الإسلامية اليوم محفوزة إليه بحكم التربية العصرية ، فوجب على القادرين منا على حمايته من الخطر العلمى أن يعملوا على شاكلتهم فى هذه السبيل .

* * *

ربما يخيل لمن يطلع على شرطنا إيراد السيرة النبوية على أصول الدستور العلمى ، أن جانب الإعجاز فيها سيكابد نقصا عظيما ، إن لم يُغْفَل إغفالاً تاماً ، وإغفال هذا الجانب منها يجعلها أمرا طبيعيا ، فتفقد النبوة صفتها المميزة ، وتصبح سيرة النبى كسيرة أحد عظماء الرجال ، وليكن من الممكن إثبات أنه أعظمهم ، فتكون النتيجة سلبية من الناحية الدينية .

نقول : لا ، فإننا إن سرنا على شرط العلم فى إثبات الحوادث ، وعَزْوها إلى عللها القريبة ، فإنه سيتألف من جملتها أمر جلل يقف العلم نفسه أمامه حائرا ، لا يستطيع تعليل صدوره عن فرد واحد ، وسيكون مضطرا بأن يعترف بأن محمدا ﷺ كان عبقريا من طراز خاص فاق به جميع العباقرة ، وهذا كسب عظيم للقائلين بنبوته ، لأن العبقرية فى العلم لا تعنى ما تعنيه فى عرف العامة . هى فى العلم

ما يُلَقى فى رُوع العبقرى من علم أو عمل بدون جهد منه ، فيجىء فذًّا لا سابقة له ، يُتَّخَذُ مثالاً لغيره ولا يمكن تقليده . فالعبقرية بهذا المعنى العلمى تقرِّب معنى النبوة إلى العقل ، وتسوغها فى العلم ، كما سنفصل ذلك تفصيلا فى الأعداد المقبلة .

إنّ ما تم على يد محمد ﷺ أمور لا يسلم بها العقل ، لولا أنها حوادث لا يمكن نكرانها ، ولا الغضّ من جلالتها بوجه من الوجوه . فقد تم على يده : (١) توحيد الأمة العربية بعد أن كانت قبائل لا تجمعها جامعة ، ولا تعطفها على عناصرها عاطفة . (٢) قضاؤه فى أمة برمتها على وثنية كانت متوارثة فيها منذ آماد طويلة . (٣) وإحلاله محلها دينا ينافى ما كانت تدين به من كل وجه . (٤) وإحداثه إصلاحا اجتماعيا قلب طبيعتها من جاهلية مظلمة ، وإباحة متحكمة ، وغفلة متغلبة ، إلى إنسانية متلألئة ، وفضيلة متوثبة ، ويقظة لا تدع فرصة إلى الأغراض الشريفة ، والمقاصد النبيلة إلا انتهزتها ، حتى وصلت إلى زعامة البشرية فى سنين معدودة . (٥) وتأسيسه دستورا حكيما وحَمَلها على اتباعه ، فتأدّت إلى أكمل ما تتوق إليه جماعة من ترابط بين أجزائها ، وتكافل بين آحادها ، وتضافر بين جميع قواها المعنوية ، للوصول إلى غاية ما يمكن الوصول إليه من مكانة بين الأمم . (٦) ووضعه آساس أمة عالمية لا يكون فيها للفروق القومية واللغوية واللونية أثر ، تقوم على دين واحد هو الدين الفطرى الأول ، وعلى شريعة واحدة تبنى على أصول الحق الطبيعى والعدل المطلق ، وتنشد غرضا واحدا هو الوصول إلى أقصى ما قدر للإنسان من كمال صورى ومعنوى معا .

هذه الأعمال كل واحد منها ترفع مُقِيم صَرْحها إلى درجة ممتازة من العبقرية تخلّد له اسما خالدا بين أسماء عظماء النوع البشرى ، فما ظَنّك لو تمت كلها على يد رجل واحد ؟

وليس هذا كل ما فى هذا الموضوع ، فإن العبقريات التى تم لها توحيد الأمم أو إيتاؤها بدين جديد أو بدستور إلخ ، إنما سلكت طريق السنة التدريجية للانتقالات الاجتماعية ، فأوجدت ما أوجدته من التجديد بواسطة أنقاض من الحالات السابقة ، لا تقوى على البقاء إلا زمنا محدودا ، ريثما تتهيأ الأسباب للأمة إلى الدخول فى دور

انتقال جديد تمر به إلى حالة أرقى من التى كانت فيها ، ولكن الرسالة المحمدية لم تسلك طريق تلك السنة الطبيعية ، ولم تستخدم أنقاض الحالات السابقة لبناء الحالات التى أوجدتها ، ولكنها جاءت بالمُثل العليا التى ليس وراءها مذهب ، وأقامت صروحها فى بيئات طهرتها أولا من جميع البقايا الأثرية ، فجاءت أبنيتها قائمة على أسس لا تتزعزع ، حافظة لجدتها وروائها ما بقى الدهر .

مثال ذلك : يحدثنا التاريخ عن عبقريات وحَّدت بين قبائل كثيرة فجعلتها أمة ، ولكنها لم تجعلها أمة مثالية خالصة من جميع عيوب الجماعات البشرية ، فإنك تصادف فيها طبقات ذوات امتيازات مختلفة ، وطوائف متوزعة مرافق الأمة على قاعدة استبدادية تحكمية ، وتجد عامّتها هَمَلاً رَعَاعاً لا حق لهم فى الوجود إلا بقدر الخدم التى يؤدونها للخاصة ، فهم مستعبدون ومحرومون من أكثر الحقوق التى يتمتع بها من فوقهم من مُنتحلى حق الوصاية عليهم ، فالأمة المؤلفة على هذه الشاكلة تسمى فى العرف أمة ، ولكنها فى حاجة إلى تطورات متعاقبة ليخلص فيها الاجتماع من آفاته المنذرة بالفتن الداخلية .

أين هذا من المجتمع الذى دعا إليه الإسلام خالصاً من جميع هذه العيوب ، وقائماً على أكمل الأصول العمرانية ، فهو مجتمع متجانس التركيب ليس فيه طوائف مختارة ، ولا طبقات ممتازة ، ولا حوائل تمنع أى عقل عال ، أو فكر ناضج ، أو نظر ثاقب من إظهار نشاطه ، وإبراز مكنوناته لخدمة الجماعة ، ووصوله بجهوده الخاصة إلى أرفع مكانة ؟ فكم تولى مناصب الحكم ، وزعامة الدين ، ورياسة العلم ، وقيادة الجند ، وتدبير الثروة العامة ، رجال من أجناس مختلفة ، وألوان متباينة ، وطبقات شتى ، لم يمنع أحداً منهم أصله أو جنسه أو لونه أو فقره عن الوصول إلى المرتبة التى عينتها له مواهبه . هذا هو المجتمع المثالى الذى دعا إليه محمد ﷺ وأوجده بالفعل .

وقل مثل ذلك فى الدين الذى أتى به ، والدستور الذى أسسه ، والتمدن الذى أقامه ، والإصلاح الذى بثه ، والمجتمع الذى ألفه ، فقد جاء فى كل هذه الشئون بالمثل العليا نفسها ، لا بحالات سادجة أو متوسطة تحتاج لأن ترقى وتتطور على مدى

الأزمان ، كما سنبين ذلك بالأدلة المحسوسة عند كلامنا عليها فى هذه السيرة . فهذه الأعمال منفردة أو مجتمعة لا يستطيع العلم أن يسلم بإمكان وجودها فى عهد من العهود السابقة ، ولا بإمكان اجتماع عبقرياتها جميعا فى رجل واحد ، فهذا العجز من العلم يكفينا فى إثبات نبوة محمد ﷺ عند كلامنا عن حقيقة النبوة والوحى ، وأدلة ذلك من العلم نفسه ، إن شاء الله (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الأول ، المحرم سنة ١٣٥٨ هـ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما هى النبوّة وما هى الرسالة ؟
والأدلة العلمية على إمكان الوحى

النبوة مرتبة روحية يستأهل بها صاحبها أن يتلقى العلم عن الله بدون وساطة العقل والحواس على ضروب شتى : إما إلقاءً فى الرُّوع ، أو بتوسط مَلَكٍ يتمثّل فى صورةٍ بشريةٍ ، أو فى أثناء النوم على حالة رؤيا ، أو غير ذلك من الحالات الروحية التى لا يدركها غير نبى ، ويسمى هدا الأسلوب التعليمى المخالف للسنن العادية وَحْياً .

هذه النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ويسمى نبيا ، وقد تكون مقترنة بتكليف تقويم أَوَد جماعة مس الناس ، فيسمى هذا التكليف رسالة ، ويُدْعى صاحبها رسولا ، وقد سجل تاريخ البشر أسماء عدد كبير من الأنبياء ، ومثله من المرسلين فى جميع أدوار الإنسانية .

وقد أجمع هؤلاء الأنبياء والمرسلون على أبهم يتلقون معارفهم من طريق الوحى ، وأنهم إنما يُدْلُون إلى الناس بما أُمروا أن يُدْلوا به إليهم ، وأوصوا بالثبات عليه ، والاستمرار فيه وإن غضب الناس مهم ، وتألبوا على اضطهادهم . وقد أوذى وقتل منهم عدد كبير ، وبُلوا قبل قتلهم بجميع ضروب المثبطات ، فلم يزدادوا إلا إقداما ومضيا .

الأدلة المنطقية على صحة النبوة وإمكان الوحى كثيرة ، ولكن العقلية العصرية يصعب عليها أن تقتنع بها ، فإن الفلسفة المادية قد أثارت شبهات جمة على النبوات ، ونفت وجود العالم الروحانى ، وادعت أن كل ما يقال فيه ، ويسند إليه ، من أوهام الأقدمين وأساطيرهم ، وقد تسربت هذه الفلسفة إلى عقول الناس من مصادر عدّة ، لذلك وجب على من يعالج مسألة النبوة والوحى ، أن يعدل عن الاستناد على الأدلة المنطقية إلى الأدلة العلمية ، بشرط أن تكون مبنية على أمور يقينية سُرِّىَ على بحثها الأسلوب العلمى . وهذه محاولة عنيفة تستدعى كثيراً من الجهد يبذل فى سبيل جمعها وترتيبها ، وتهيئتها للدفاع عن النبوة من طريق مباشر يوفر للأدلة كل قوتها الإقناعية ،

وهيبتها الأدبية .

ونحن وقد انتدبنا لخوض غمار هذه المسألة ، نرى أن نتوجه إلى تحقيقها من ثلاث نواح :

(أولاها) هل فى الوجود المحسوس ما يدل على حدوث معرفة لبعض الكائنات ، نَفْثاً فى الرُّوع من غير طريق الحواس ، ومستقلة عن المحاولات العقلية ؟

(ثانيتها) هل توجد حوادث إنسانية يقرها العلم نفسه ، تثبت وجود اتصال باطنى بين النفس وبين عالم أرقى منها ؟

(ثالثها) هل يمكن أن يعترف العلم بوجود عالم روحانى فوق عالم المادة ، يُسوِّغ اعتبار النبوة والوحى أمرا ممكنا ؟

فلنعالج هذه المسائل الثلاث على الأسلوب العلمى فنقول :

١ - هل فى الوجود ما يدل على حدوث معرفة من غير طريق العقل والحواس ؟

الجواب : نعم ، إلهام الحيوانات ، والعبقرية .

فأما إلهام الحيوانات ، فقد شهد المتأملون فى حياة الحيوانات من لَدُن أقدم عهود العلم أن للحيوانات ، وخاصة الحقيرة الساذجة منها ، أعمالا فى تطلُّب أغذيتها ، وبناء أُكِنَّتها ، واحتضان بويضاتها ، وتربية صغارها ، تقصر إدراكاتها القاصرة عن الاهتداء إليها لو تركت وشأنها . وإنا عارضون على قرائنا بعضا منها :

الفراش متى وصل إلى الطور الثالث من حياته يضع بيضه على هيئة دوائر على الأوراق الخضراء . هذا البيض لا يفقس إلا فى الفصل التالى ، فيخرج ما فيه على هيئة ديدان صغيرة فى الوقت الذى تكون فيه أمَّاتها (أى أمهاتها) قد ماتت ، أى أنها لا تراها . فمن الذى علم إناث الفراش أن صغارها متى خرجت احتاجت إلى التغذى بالنباتات الخضراء ؟ ومن الذى هداها إلى وضع بيضها على تلك النباتات ولم تلق بها فى أى مكان آخر ؟ هل هدتها إلى ذلك أمهاتها ؟ لا ، لأنها لم ترها

فى حياتها . هل هديت إليها بعقولها ؟ هذا مما لا يتصوره عقل لأن إدراكاتها قاصرة . ولو أخدت بويضاتها وأفقستها فى بقاع ليس فيها فراش ، لخرحت تلك الديدان وعاشت عيشها الذى يعيشه نوعها ، حتى إذا تطورت وصارت فراشا عملت العمل عيبه الدى يعمله جميع إناث الفراش فى كل بقاع الأرض ، مسوقة إليه بدوافع قاهرة لا تتكلفها . فلم يبق إلا القول بأنها ألهمت هذه الأعمال من القدرة العليا التى أبدعتها .

والحشرات المسماة (نيكروفور) تموت بعد أن تبيض مباشرة أى أنها لم تر لها ذرية قط . ولكنها قبل أن تبيض تعنى كل العناية بوصع جثث حيوانية ، تضعها بجانب البيض لتكون عداء لصغارها متى حرحت . فمن الذى أدرى هده الحشرات أن فى بيضها صغارا ، وأن تلك الصغار ستخرج فى حاجة إلى الغذاء ، وأن ما تحتاج إليه هى تلك الجثث الحيوانية ؟

ومن أعجب المشاهدات العلمية أن الحيوانات المسماة (بومبيل) من أكالة الحشائش ، ولكنّ صغارها تولد من أكالة الحيوانات إلى أمد محدود . فترى الأمّات تعمد إلى وضع بيضها على أجساد الحيوانات ، حتى إذا خرجت وجدت ما تغتذى به . فمن الدى أدراها أن صغارها ستخرج من أكالة الحيوانات ؟

والحيوانات المسماة (أوديتير) و(سفكس) تخرج صغارها من بويضاتها محتاجة إلى التعدى بأجساد حيوانات (حية) . فترى أماتها تعمد إلى اصطياد حيوانات لا تقتلها ، ولكن تضربها فى مجمع أعصابها بحيث تمنعها الحركة ، وتَرْكُمها بعضها على بعض على تلك الحالة من العجز ، فإذا حرج صغارها وجدت أمامها غذاءها الضرورى لها .

ومن المحيّرات للفكر ما ذكره الأستاذ (ميلن إدوار) المدرس فى حامعة (السوربون) بفرنسا فقد قال : إن الحيوانات المسماة (إكسيكلوب) تعيش منفردة وتموت بعد أن تبيض إناثها مباشرة ، تخرج صغارها على حالة ديدان لا أرجل لها ، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية ولا الحصول على غذائها ، ومع ذلك فحياتها تقتضى أن تعيش مدة سنة فى مسكن مقفل وفى هدوء تام وإلا هلكت .

فترى الأم متى حان وقت بيضها تعمد إلى قطعة الخشب فتحفر فيها سردابا طويلا ، فإذا أتمته أخذت فى جلب ذخيرة إليه تكفى صغيرا واحدا مدة سنة . تلك الذخيرة هى طَلْع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ، فتحشوها فى قاع السرداب ثم تضع عليه بيضة واحدة ، ثم تأتى بنُشارة الخشب وتكون منها عجينة تجعلها سقفا على تلك البيضة ، ثم تأتى بذخيرة أخرى فتضعها فوق ذلك السقف ، ثم تضع بيضة أخرى ، وهَلُمَّ جَرّا حتى يفرغ بيضها ، ثم تترك الكل وتموت . فمن علم هذه الحشرة الضعيفة الساذجة هذه الصناعة المحيرة للعقل ؟ ومن أفهمها وهى تموت بعد أن تبيض مباشرة أن صغارها فى حاجة إلى البقاء سنة فى حالة ضعف وعجز ؟ ومن الذى غرس فى قلبها هذه العناية بنوعها حتى كلفتها كل هذه المشقة فى وضع بويضاتها ؟

هذه الإلهامات دليل محسوس على أن قيم الوجود يؤتى الكائنات علما بما يقيمها ويصلحها من غير طريق الحواس التى لا تستطيع أن تكتسبه بها ، وإذا صح هذا فى عالم الحيوان فهو أولى بأن يصح فى عالم الإنسان ، حيث اتصالاته بالأفق الأعلى تكون أقوى ، واستعداده للقبول منها أكبر .

ولكن الماديين لما شعروا بالخطر الذى يتهدد مذهبهم من هذه الناحية تألبوا على القول بأن هذا الإلهام عادة موروثة ، أى أن الجماعات الأولى من الحيوانات اكتشفت وسائل حياتها فأورثتها أَخْلافها ، فصارت فيها غريزة . ولكن كيف اهتدت تلك الكائنات الساذجة إلى هذه الوسائل ولم تَبِدْ قبل أن تجدها ؟ وكيف اتفق أن جميع جماعاتها فى مختلف القارات الأرضية تهتدى إلى وسائل من نوع واحد وليس بينها اتصال ؟ وكيف يعقل أن تورثها لأخلافها وقد ثبت أن الوراثة للصفات والعادات غير ممكنة ، كما قرر ذلك أخص تلاميذ دارون الأستاذ (وسمن) وتبعه أكثر الدارونيين ؟

وقد قرر علماء الطبيعة أن هذه المعارف الفطرية لدى الكائنات الحية ، هى إلهامات إلهية لا شك فيها . قال الأستاذ (بواراك) مدرس الفلسفة فى كلية (كوندرسيه) بفرنسا ورئيس المجمع العلمى فى ديجون فى كتابه الفلسفة صفحة ١٥٨ :

« إن العريزة عند داروِن وهربرت سبنسر أصلها عادة موروثة ، بمعنى أن الحيوان حصل بالتعلم على كل ما يعمله ، وعلمه إذا كان واحدا عند جميع أفراد النوع الواحد ، فذلك فى رأيهم لأن احتياجات وأعضاء هذه الحيوانات متشابهة . إن تفسيرا كهذا يكون نقصه واضحا إذا قوبل بالغرائز المحدودة والكثيرة التركب لدى أكثر الحشرات . فلا التجربة ولا الذكاء الشخصى يستطيع أن يُعلم الحيوان المسمى (اموفيل) الصناعة الجراحية التى تسمح له بشل حركات الديدان الخضراء بدون أن يقتلها ليجعل منها غذاءً لصغاره متى خرجت من بويضاتها » .

وقال الأستاذ (ميلن ادوار) المدرس بجامعة السوربون :

« إن التخيل بأن غرائز النمل مثل أسمى مدركات القوة العقلية للإنسان ، ليست إلا نتيجة عمل الفواعل الطبيعية أو الكيمائية التى بها يتم تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الأحجار ، إن هذه الافتراضات الباطلة ، بل هذه الأضاليل العقلية التى يسترونها باسم العلم الحسى قد دحضها العلم الصحيح دحضا ، والطبيعى لا يستطيع أن يعقلها أبدا » .

يرى القارئ مما مر أن العلم الطبيعى نفسه يعترف بحدوث إرشاد وتعليم من جانب القدرة الإلّهية للعالم الحيوانى الذى يعجز عن تدبير نفسه والشعور بما يصلحه من المحاولات الضرورية له ، فإنكار حدوث هذا الإرشاد للنوع الإنسانى ، وجماعاته فى أثناء تكوّنها فى حاجة ماسة إليه ، تحكم لا مسوّغ له .

على أن هذا ليس بالاعتراف الوحيد للعلم بحدوث الهداية والإرشاد من غير طريق الحواس أو العقل العادى ، فإن له اعترافاً آخر لا يقل عن هذا خطورة ، وهو فى هذه الدفعة خاص بالنوع الإنسانى ، وذلك من ناحية ما اصطلح على تسميته بالعبقرية .

فما هى العبقرية ؟

شوهد فى تاريخ البشرية حدوث تجديدات عقلية أو فنية فى أرفع درجات السمو ولا يمكن تقليدها ، يؤكد الذين ظهرت على أيديهم أنها أتتهم عفوا بدون إجالة

نظر فيها ، ولا أقل محاولة منهم لإحداثها بل لم تكن تخطر لهم على بال . وهى تظهر شذوذا وبدون تمهيد . وقد تمر أجيال دون أن يظهر فى أى بقعة من الأرض عبقرى واحد . وأصحاب العبقرية فى مجموع تاريخ النوع الإنسانى يعدون على الأصابع . وقد اعتبرها الفلاسفة الأقدمون حالا علوية لا شأن للعقل فيها . فقد قال أفلاطون :

« العبقرية حال إلّهية مولدة للإلهامات العلوية » .

وليس المعاصرون لنا بأقل من الأقدمين إكبارا للعبقرية ، وجنوحا إلى نسبتها إلى الذات الإلهية . فقد قال ڤولتير وهو الفيلسوف النقادة الكبير :

« من شروط العبقرية أن يكون فيها ابتكار ، فهذه الخاصة للابتكار هى التى تعتبر منحة إلّهية » يريد أن لا عمل للعقل فيها كما ستراه هنا .

وقال العبقرى المشهور فيكتور هوجو :

« لندع ما هو من عمل المخ للمخ ، ولنشهد بأن عمل العبقرية نفحة فوق القدرة الإنسانية ، تستخدم فى بروزها للعيان الإنسان نفسه » .

هذا رأى الفلاسفة والعباقرة أنفسهم ، والعلم الطبيعى يؤيدهم فيما ذهبوا إليه ، ويقرر بأن العبقرية منحة من الطبيعة نفسها لا تحصّلها دراسة ، ولا يوجدها تفكير . جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر :

« إن الإلهام العبقرى لا يأتى من طريق التحريض ولا بالإرادة ، ولا بإطالة الروية » . وجاء فيها : « إن كل ابتكار فنى يصحبه عنصر (موهوب) من الطبيعة نفسها . وهذا العنصر لا يستطيع الإنسان أن يوجده بجهوده الذاتية » .

وقال الفيلسوف الكبير (تين) : « Taine »

« العبقرية هبة لا تستطيع أن توجدها أية دراسة ولا أية مثابرة ، فإذا عدمت هذه الهبة استحال العاملون إلى مقلدين وعَمَلة » إلى أن قال : « فإن تحط هدا العامل الخفى بالأسماء الجميلة فتسمِّه وحيا أو تَدْعه عبقرية كنت محسنا ومصيبا فيما تفعل » .

وقال الفيلسوف الألمانى (هيجل) فى كتابه (علم الحمال) :

« أعمال العبقرية تحدث بذاتها من طريق الإلهام المفاجيء ، فالعمل العبقرى لا يتحصل عليه بالتعلم ولا يقبل التوريث ، فهو هبة من العبقرية وكفى » .

وقال الأستاذ الكبير الدكتور (بيير جانيه) المدرس بجامعة السوربون :

« العبقرية قبل كل شيء إلهامات ، وأعنى بذلك حالات عقلية لا يستطيع الحس الباطنى ولا الذات نفسها أن تدعى أنها تملكها ، فهى تحدث على غير علم منّا بها ، ولا تستطيع إرادتنا أن توحدها » .

هذا ويشهد العلم بأن العبقرية أمر خارق للعادة . جاء فى دائرة المعارف الإنجليزية الكبرى (بريتانيكا) فى الطبعة الأخيرة لسنة ١٩٢٩ قولها :

« العبقرية شيء خارق للعادة على وجه الإطلاق ، وأرقى حتى من القوة العلمية الفائقة » . إلى أن قالت : « وهى موهبة فذة لا تقبل التفسير محصورة فى كلمة العبقرية » .

وقرّر العلم أيضاً أنها مما لا يمكن تعليله بالقوانين الأدبية المعروفة ، فقالت دائرة معارف لاروس للقرن العشرين : « إن جميع النظريات تخيب وتفشل إن أريد فهم حقيقة العبقرية » . وقالت : « العبقرية لا يمكن أن تعلل بقوانين » .

وأثبت العلم أيضاً أن العبقرية غير إرادية ، جاء فى المعجم العصرى للغة والعلم المطبوع بنيويورك قول الأستاذ (هازلت) :

« تختلف الألمعية عن العبقرية كما تختلف المقدرة الإرادية عن المقدرة غير الإرادية » .

ونص العلم كذلك على أن الإنسان يملك الألمعية ولكنه لا يستطيع أن يملك العبقرية ، فهى التى تملكه وتسخره فيما تريد إظهاره بوساطته ، جاء فى المعجم العلمى المتقدم ذكره بقلم الأستاذ (لوويل) :

« الرجل الألمعى يكون مالكا للألمعية كما يملك الكثير من الأدوات ويستخدمها فى تأدية ما يريد صنعه ، ولها حد تقف عنده ، ولكن الرجل العبقرى يكون مملوكا للعبقرية ، وهى تحوله إلى كتاب أو إلى حياة على ما يشاء هواها » .

نقول : إن مذهب العلم فى العبقرية ، وحيرته فى تعليلها ، وتصريحه بأنها خارقة للعادة ، وأنها مما لا يعلل بالنظريات ، ولا يمكن التحصل عليها بالدراسة ولا بالتفكير ، وأنها تملك صاحبها وتسخره لأغراضها ، كل هذا يعتبر اعترافا صريحا بأن أرقى مظهر للإبداع الأدبى والمادى يعطاه الإنسان من غير طريق العقل ومنافذ الحواس الجثمانية ، ولا يمكن الحصول عليه بالوسائل العلمية والعملية المعروفة .

ويجب أن يضاف إلى هذا ما شاهده العلم نفسه من الخوارق للعادة فى المجالات العقلية والنفسية ، فإن ذلك يساعدنا على تذليل العقبات التى تقف فى سبيل التدليل على وجود مرتبة النبوة ، وتقرب إلى عقولنا إمكان الوحى .

للأستاذ البسيكولوجى الانجليزى (ميرس) (Myers) مدرس علم النفس بجامعة كامبردج كتاب كبير أسماه (الشخصية الإنسانية) (Human Personality) ، ترجم إلى الفرنسية وغيرها ، نقتطف منه بعض ما أورده ، فإن فيه ما يدل على وجود خصائص نفسية عند بعض الناس تكشف عن حقائق خطيرة ، لا يجوز لمن يعالج مسألة النبوة والوحى جهلها .

قال الأستاذ (ميرس) : « كان للمستر بيدلر خاصة تكاد تلتحق بالمعجزات ، فإنه كان يعيّن على البديهة العوامل التى إذا ضرب بعضها فى بعض أنتجت عددا مؤلفا من سبعة أو ثمانية أرقام . فإذا سئل مثلا : ما هما العددان اللذان إذا ضرب أحدهما فى الآخر أنتج العدد ١٧٨٦١ ؟ أجابك على الفور بأنهما ٣٣٧ و ٥٣ ، وهو يقول إنه لا يدرى على أية حال يأتى بهذا الجواب ، فكانت الإجابة عنده كأنها غريزة طبيعية » .

وقال الأستاذ ميرس : « كان للمستر (فان دوتيكا) وهو فى السادسة من عمره خاصة فى الحساب العقلى ممتازة زالت بعد سنتين ، ولم يكن يدرى على أى أسلوب تسير فى نفسه هذه الأعمال الحسابية » .

وقال : « كان (بوكستود) يحل مسائله وهو يتكلم حرا فيما يريد الكلام فيه ، مما هو خارج عن الحساب الذى ألقى إليه » .

ونقل عن العالم البسيكولوجى والشاعر الكبير (سوللى برودوم) الفرنسى

أنه قال : « حدث لى فى بعض الأحايين أنى كنت أجد فجأة برهان نظرية هندسية ألقيت إلىّ منذ سنة وذلك بدون أن أعيرها أقل التفات » .

وقال نقلا عن العلامة الرياضى المشهور (أراغو) : « اعتدت أنى بدل أن أجهد نفسى فى فهم مسألة فى الجلسة التى ألقيت إلى فيها ، كنت أسلم موقتا بأنها صحيحة ، فإذا جاء اليوم التالى دهشت من فهمى كل الفهم ما كان قد ظهر لى معضلا فى اليوم السابق » .

وقال نقلا عن الفيلسوف الكبير (كوندياك) : « إنه كان غالبا يجد أن عملا لم يتم بالأمس قد تم اليوم فى عقله بدون جهد منه » .

وقال : « إن المسيو رينه الشاعر ذكر للدكتور (شابانيكس) بأنه ينام غالبا وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم فيستيقظ فيجدها تامة » .

وقال راويا ما قاله الموسيقى (فنسان دندى) المشهور عن نفسه : « بأنه يرى غالبا وهو فى حالة اليقظة التامة خاطرا سريعا لموضوع موسيقى ، فيحاول بجهد عظيم من العقل أن يضبطه ، كما يفعل الإنسان إذا أراد أن يتذكر مناما » .

قال الأستاذ ميرس : « وقد كتب الشاعر المشهور (موسيه) الفرنسى عن نفسه يقول : « أنا لا أعمل شيئا ، ولكن أسمع ما يلقى إلىَّ فأنقله ، فكأن إنسانا مجهولا يناجينى فى أذنى » .

ونقل ميرس أيضا عن الوزير الشاعر الكبير (لا مارتين) قوله : « لست أنا الذى يفكر ، ولكن هى أفكارى التى تفكر لى » . يريد أنه لا دخل لعقله الواعى فى الشعر الذى يعمله .

قال : « وكان (سانت ساينس) مثل سقراط يسمع ما تلقيه الروح الملازمة له إليه » .

قال : « وقد ذكر المسيو (دوكوريل) وهو القصصى الفرنسى المشهور إلى الأستاذ (بينيه) بأن أشخاص أقاصيصه بعد أن تظهر فى عقله بعد جهد منه عظيم ، تصير مستقلة عنه فتتكلم ضد إرادته ، وعلى الرغم من التفاته إليها ، وتتوالى

أمامه عند ذاك أدوار قصته بدون جهد يبذله ولا حركة إرادة ، ولا يكون عليه إلا كتابة أقوال تلك الشخصيات وجمع ما يرى . وإذا حدث أن انقطع عن النظر إلى تلك الشخصيات لسببٍ كعملٍ آخر أو نوم ، استيقظ فوجد روايته تامة فى عقله . قال : وكان إذا تشاغل عن النظر إلى الرواية التى تمثل أمامه سمع بأذنيه أحاديث أشخاصها » .

ونقل الأستاذ (ميرس) ما كتبه القصصى الانجليزى المشهور (وردستورث) فى كتابه (الفاتحة أو تطور عقل شاعر) قال :

« أشعر بضباب باطنى يتحول إلى إعصار ، فأشهد أن قوة بالغة الحد تخترع القطعة وتميل بها هكذا وهكذا إلى كل جهة . هذه القوة الهائلة تنبع من صميم روحى على هيئة البخار الكثيف الدى يغطى السائح المنفرد فجآة . فأشعر إذذاك بأنى هلكت ، فأقف ولا أستطيع أن آتى بأقل جهد يخلصنى مما أنا فيه » .

هذه مشاهدات محسوسة وأقوال مأثورة عن كبار العلماء والمؤلفين ، ساقها الأستاذ الكبير (هـ .و . ميرس) لإثبات وجود عقل باطنى فى الإنسان له اتصالات روحانية فى عالم فوق هذا العالم ، لا يشعر به الإنسان العادى ، ولكن يشعر به بعض ذوى الاستعداد لذلك الشعور ، وقد رأيت أنهم من كبار العلماء ، وأجلاء الفنانين ، وأنا لا أريد أن أثبت مما أنقله أن النبوة عبقرية ، أو هى من نوع الحوادث التى سردناها هنا ، ولكنا سقنا ما سقناه للتدليل على أمرين عظيمين :

(أولهما) وجود الهداية والتعليم بدون وساطة العقل العادى والحواس كما تدل عليه حياة الحيوان بجملتها وتفصيلها ، والعبقرية بما آتت الناس من الابتكارات التى لم يَهْد إليها عقل ، ولم يَحُم حولها فكر ، على حال حارقة للعادة .

(ثانيهما) وجود اتصالات روحانية باطنية تمد الإنسان بعلمٍ ، وتسعفه بهدايةٍ ، من غير طريق العقل العادى ، ولا من منافذ الحواس الخمس ، تقريبا للوحى من عقول الناس ، فقد اشتد شكهم فيه إلى حد أن كذبوا بالنبوات وهى أعظم عوامل الانتقالات الفكرية والاجتماعية للنوع الإنسانى ، وقد ابتنت عليها أكبر الأحداث التى غيرت مجرى الشئون العالمية فى جميع الأدوار الانقلابية . وليس مما

يعقل أو يناسب كرامة النوع البشرى أن تكون هذه العوامل العلوية البعيدة الأثر فى حياته ، قد قامت على أكاذيب متعمدة ، أو أوهام فكرية .

ومن العبث المحض أن يثبت الباحث الطبيعى إلهاما تبعثه القدرة الإلّهية فى أحقر الحشرات ، وينفيه عن النوع البشرى ، وهو فى أشد الحاجة إليه فى أول عهده بالحياة الاجتماعية ، وفى أثناء تطوراته فى أدوار تلك الحياة المتعاقبة .

وإننى أظن بأنى بما أثبته هنا قد قربت للعقول حدوث الوحى لمن صرحوا للناس بأنهم أنبياء أو مرسلون ، وحققت الحوادث صدقهم فيما دعوا إليه وحذروا منه .

وليس هذا كل ما نستطيع أن نقدمه للعقلية العصرية من المقررات العلمية المقربة للوحى من العقول ، فإن لدينا مقررات علمية أخرى نرجو أن ندلى بها فى العدد المقبل إن شاء الله (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الثانى ، صفر سنة ١٣٥٨ هـ .

الشكوك فى إمكان الوحى
وعلاجها بالفتوحات العلمية الحديثة

الشك من الصفات العقلية التى نشأت فى الإنسان مع العقل نفسه ، وهو ككل صفاته الأدبية نشأ نشأً ساذَجاً ، ثم تطور بتطور الإنسان فى النظر والتفكير . ولما ولدت الفلسفة أصبح أساسا للبحث فيها ، ولكنه لم يكتسب كل قوته إلاّ على عهد الفلسفة اليونانية ، حيث تكثّرت المعقولات ، وتداخلت مناهج البحث فيها ، فكان ذلك داعيا لعلَم من أعلامها وهو أرسطو أن يضع أداة للتدليل وهو المنطق .

ولكنّ صفة الشكّ لم تبلغ أوج سلطانها إلا على يد (رُنيه ديكارت) الفيلسوف الفرنسى ، فقد جعله أساس مذهبه ، واعتُبر بذلك مجدِّداً فى أسلوب البحث عن الحقيقة فى القرن السابع عشر .

فى أثناء هذه التطورات العقلية تولدت فى النفس الإنسانية نزعة جديدة أساسها زيادة التثبّت ، بوضع المعقولات على قرار مكين من الأدلة المحسوسة ، وما دفع بالنفس إلى هذا الموقف الخشن إلا ما ظهر للباحثين فى العلوم من أن كثيراً من المسلّمات المنطقية تحكُّماتٌ فرضها على العقول الجهل بالكون ونواميسه ، وعمدوا إلى وضع منطق دَعَوْه بالعلمى ، جعلوا أساسه أن كل معقول لا يؤيده شاهد من الوجود المحسوس لا يجوز وضعه فى المُدْرَكات اليقينية . فإن كان مما يقتضيه العمل العلمى فلا بأس من تسميته افتراضاً علميا يمثُل بجانب افتراضات أخرى ، حتى إذا حَظِى بشهادة محسوسة رُفع إلى درجة المسلمات العلمية . وَضَع هذه القاعدة (فرنسوا بيكون) الفيلسوف الانجليزى المتوفى سنة (١٧٢٦) وهو صاحب الدستور العلمى الذى يعتبر سدا منيعا فى وجه الأهواء والأوهام التى قد تتسرب إلى العلوم اليقينية فتفسد كيانها وتلحقها بالأساطير .

ولقد غلا حَفَظة هذا الدستور كما غلا جميع حفظة النظم ، فجعلا من الدرجة التى وصل إليها العلم فى القرن التاسع عشر نهايةً لا محل وراءها لجديد ، وحملهم الغلوّ فى تقديس ما وصلوا إليه إلى اعتبار ظنّيات أعلامهم أصولا يقينية . فلما ظهر

مذهب لامارك فى تسلسل الأنواع الحية ، وتألق نجمه فى أوائل القرن التاسع عشر ، اعتبره علماء ذلك العهد الكلمة النهائية للعلم لكشف سر أكبر مسألة بيولوجية ، وصاروا يَسْتَجْهِلون كل من يجرؤ على التشكيك فيه . فلما ظهر مذهب دارون بعده بنحو ستين سنة ، افتتن به العلماء ودخلوا فيه وتركوا مذهب لامارك من أجله ، وَغَلَوْا فيه غُلُوًّا عظيما حتى عدّوا كلَّ من لا يقول به غبيا . ولكن لم تمض عليه ثلاثون سنة حتى تبين لكثير من كبار العلماء وَهْنُ أصوله الأولية ، فتسللوا منه وعاد كثير منهم إلى مذهب لامارك ، ومنذ عشرين سنة تركوا المذهبين وتمسكوا بمذهب (دوفريس) العالم الهولاندى ، وهو يشايع إيمان الإلّهيين ، فإنه أثبت بالتجربة أن الأنواع تنشأ طَفْرةً متولّدةً من أنواع قديمة ، حاصلةً على جميع مقوماتها بدون تطور تدريجى فى آماد طويلة ، ولا بسبب تأثير البيئة فيها . وفى الوقت نفسه أدركوا أن العلم الذى وصفوا أصوله باليقينيات قرنين متواليين لا تقوم كثير من أصوله إلاّ على افتراضات حتى فى العلوم الرياضية . ارجع إلى ما كتبناه فى مقالات كثيرة فى هذا الموضوع ، وما ألممنا به فى مقالة (منطق الدين) فى العدد السابق .

هذه التطورات المتتابعة فى المقررات العلمية أثرت أعمق تأثير فى عقلية المشتغلين بالعلوم الكونية ، وأورثتهم أدبا عاليا حيال الوجود المحسوس ، وما عسى أن يكون فى ثناياه من القوى المجهولة . فبعد أن كانوا يتعصبون لأصوله المقررة عندهم تعصبا يأباه العلم نفسه حتى عارضوا أصحاب المكتشفات الحديثة معارضة عنيفة انتصارا لتلك المقررات ، أصبحوا يرحبون بالمجددين فى العلم ، بل يرجون أن يكثر عديدهم ليستطيعوا سد الثُّلَم التى أحدثتها الانقلابات المتوالية فيه ، حتى لم يأنفوا عندما حدثت حادثة خارقة للعادة فى أمريكا [١] أن يحققوها ، وأن يعلنوا صحتها وصحة أمثالها ، وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا بوجود شىء فى الكون غير المادة وقوتها ، ويرمون من يقول غير هذا بالبَلَه أو بالوقوع تحت تأثير العقائد الموروثة .

إن موقف العلم والذين يعبّون من منهله كان قبل الخمسين السنة الأخيرة

---

(١) حادثة ظهور أمور روحانية محققة فى منزل بمدينة هيدسفيل .

موقف خصومة لكل معقول لا يمت إلى المادة بسبب . فكانت مسألة الوحى من المسائل التى يدحضها العلم بكل شدة ، ويعدّها من أبعد المحالات العلمية ، ثقةً منه أن ليس وراء المادة عالم أرقى منها ، بل ليست الروح البشرية التى تعتبر آية الخلق ، إلا مظهرا من مظاهر المادة .

وقد تغير موقف جمهور كبير من أعلام العلماء اليوم حيال مسألة الروح الإنسانية وعلاقتها بعالم علوى وراء الحس ، واستمدادها منه قوةً وسلطانا لا تحصل عليهما فى عالم المادة مهما توسعت فى علاقتها به . وكان الباعث لهؤلاء العلماء على تغيير آرائهم ، إكبابَهم منذ نحو تسعين سنة على البحث فى النفس الإنسانية من طريق التنويم المغناطيسى والذهول الذى يقع فيه بعض الناس فيصيرون به أداة لحدوث ظواهر خارقة للعادة ليس لهم فيها أقل تأثير .

فالتنويم المغناطيسى الذى كشفه الدكتور مسمر الألمانى (١٧٣٣ – ١٨١٥) ، واعترف بوجوده علميا بعد جهاد مائة سنة للحصول على هذا الاعتراف ، قد أثبت أن للإنسان عقلا باطنيا أرقى من عقله العادى كثيرا ، وأنه وهو فى تلك الحالة يرى ويسمع من بعد شاسع ما يحدث وما يقال ، ويقرأ من وراء حجب ، ويخبر عما سيحدث ، مما لا توجد فى عالم الحس أقل علامة لحدوثه . شاهد هذه الأحوال ملايين من الناس حتى أصبحت أمرا لا يمكن المِراء فيه .

ولكن علماء كثيرين لم يقفوا عند هذا الحد ، فلم يكتفوا بالدرجة الأولى أو الثانية لهذا التنويم بل تجاوزوها إلى حدود بعيدة منه ، فشاهدوا أن العقل الباطن يزداد سموا عما شوهد عليه فى درجات النوم الأولى ، ولا يستمر خاضعا لإرادة المنوِّم . وبالتوغل فى درجات التنويم توصل المجرِّبون إلى درجة تخرج فيها روح الوسيط من جسده ، وتمثُل إلى جانبه غير مَرْئيّة ، بينما يكون الجسد فى حالة موت حقيقى لولا علاقة خفية بينه وبين الروح . وقد توصل هؤلاء العلماء إلى تحقيق أمور روحانية – والمنوَّم فى تلك الحالة – أثبتت لهم أن الروح مستقلة عن الجسد كل الاستقلال ، وأنها لا تنحلّ بانحلاله ، وتتصل وهى متجردة عن المادة بالأرواح التى سبقتها إلى ذلك العالم .

وقد عُلم من هذا أن الروح ، عندما يعترى صاحبها نوم طبيعى أو صناعى ، تتصل فى عالمها الروحانى بأمثالها من الأرواح ، ولما تستيقظ لا تذكر شيئا من ذلك لعدم تدخل المخ الجثمانى فى هذا الاتصال .

أما حالة الذهول التى يقع فيها بعض الناس ، فيصحبها حدوث ظواهر روحانية تعتبر من الخوارق التى لم يكن ليحلم بحدوثها العلماء ، استعصت على كل تعليل مستند إلى عوامل مادية ، وقد استحضر لشهودها أكبر مشعودى الأرض ، فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة فى شىء ، ولكنها حوادث روحانية ، لا أثر فيها للمهارة اليدوية .

إنّى بإلمامى هنا بهذا الفتح العلمى لا أقصد الدعوة له بالذات ، ولكنى أقصد منه أن جمهورا كبيرا من أكبر علماء الأرض أصبحوا يعتقدون بوجود عالم روحانى ، وبوجود اتصال وثيق بينه وبين الروح الإنسانية ، وأن ذلك يظهر بوضوح فى حالة النوم المغناطيسى وحالة الذهول الذى يقع فيه بعض الناس بسبب مرض أو بسبب استعداد عصبى فيهم . ولو كانت هذه التأكيدات من هؤلاء العلماء كلاميةً فلسفيةً ، لما سمحت لنفسى بالاستناد إليها فى بحث أخذت على نفسى أن أعتمد فيه على العلوم اليقينية . نعم إن هذا الفتح العلمى لم يعمّ جميع علماء الأرض ولم يصبح فرعا من العلم الرسمى ، ولكن الجم الغفير الذى بحثه منهم واعترفوا به فى مدى تسعين سنة ، وفى كل أمة متمدنة ، يفتّ فى عَضُد المادية ، ويُطَأْمِن من كبريائها ، ويشكك المشايعين لها . على أن من لم يقل به من العلماء لم يتسنّ له فحصه . وليس فيمن وُفّق لفحصه واحد أعلن احتقاره له أو استند إلى علم فى دَحْضه . قال العلامة الطبيعى الكبير مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعى كدارون فى كتابه : (الآيات والمذهب الروحانى فى العصر الراهن) : « أنا على اتصال بتاريخ هذه البحوث وكل ما يكتب فيها ، وقد زججت بنفسى فيها منذ عشرين سنة فلم يتفق مرة واحدة أن رأيت رجلا بحثها بحثا جديا واقتنع بصحة الظواهر الروحية ، ثم عاد ففقد ثقته بها وأعلن أنها مبنية على الخداع والتدليس » .

ونحن لأجل إحاطة هذه البحوث بالاحترام الواجب لها فى نظر القارئين ، ننقل لهم فذلكة من تاريخ اشتغال العلماء بدراسة المساتير النفسية على أسلوب العلم الحديث

فنقول :

تاريخ تأسيس جمعية المباحث النفسية فى انجلترة سنة ١٨٨٢ .

جاء فى كتاب الشخصية الإنسانية « The Human Personality » للعلامة الأستاذ (هـ . و . ميرس) « H . W . Myers » مدرس البسيكولوجيا فى جامعة كامبردج ما يأتى :

« حوالى سنة ١٨٧٣ حيث كان المذهب المادى قد أوغل فى البلاد حتى وصل إلينا ، وبلغ أوج سطوته على العقول ، اجتمع ثُلّة من الزملاء فى كمبردج وأجمعوا رأيا على أن هذه المسائل العويصة المتنازع فيها ، (يريد المباحث الروحية) ، تستحق التفاتاً وجهدا جدّيا أكثر مما عولجت بهما إلى ذلك الحين . وكنت أرى أنا أن محاولةً جديرةً بهذا الاسم لم تعمل إلى ذلك الوقت للبت فى هل نحن أهلٌ أو غير أهلٍ للإلمام بشيء يتعلق بالعالم غير المرئى ؟ وكنت مقتنعا بأنه لو أمكن معرفة شيء من ذلك العالم على أسلوب يمكن العلم أن يقبله ويحفظه ، فلا يكون ذلك بالتنقيب فى الأساطير القديمة ، ولا بوسيلة التأمل فيما بعد الطبيعة ، ولكن بواسطة التجربة والمشاهدة ، وبتطبيقنا على الظواهر التى تحدث فينا أساليب المباحث المضبوطة نفسها ، فإنها منزهة عن الهوى ، ومُتَرَوًّى فيها ، أقصد بها تلك الأساليب التى نحن مدينون لها بمعارفنا عن العالم المرئى المحسوس .

« فالمباحث التى يجب علينا عملها لا يمكن أن تقتصر على تحليل ساذج للأسانيد التاريخية ، أو التى صدرت عن هذا الوحى أو ذاك مما حدث فى الزمان الماضى ، ولكن يجب أن تؤسس قبل كل شيء – ككل بحث علمى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة – على تجارب يمكننا تكرارها اليوم ، مؤملين أن تزيد عليها غدا ، فلا يمكن أن تكون إلا مباحث مؤسسة على هذه القضية وهى : « إذا كان يوجد عالم روحانى ، وكان هذا العالم الروحانى موجودا فى أى عهد كان ، وكان قابلا لأن يظهر ويُستكشف ، فيجب أن يكون كذلك فى أيامنا هذه » .

« فمن هذه الوجهة وبالجرى على هذه الاعتبارات العامة ، واجهت الجمعية التى أنا عضو منها هذه المسألة » .

ثم أخذ الأستاذ ميرس يسرد التجارب التى عملها وعملها غيره مما لا سبيل إلى نشره هنا ، ثم قال :

« ما هى الأدلة التى تحملنى على الاعتقاد بأن كل هذا ليس بصحيح ؟ هذا سؤال يجب أن يضعه كل إنسان نصب عينه إذا توصل إلى التحقق ، بغير طريق التأمل ، من الجهل المطلق الذى هو عليه بماهية الوجود الحقيقية .

« إنى أعترف فى كل حال بأن معارفى فيما هو مرجح أو غير مرجح فى الوجود لم تظهر لى كافية لرفض مشاهدات يظهر لى بحق أنها حقيقية ، وأنها مع ذلك ليست مناقضة لمشاهدات وأصول عامة أكثر منها تأسّساً . ومهما كان مجال المشاهدات العلمية واسعا فإنه – حتى باعتراف ممثلى العلم الرسمى – ليس إلا نظرة عجلى فى العالم المجهول وغير المتناهى للنواميس الطبيعية » انتهى .

هذا هو تاريخ تكوُّن جمعية المباحث النفسية بلوندرة سنة ١٨٨٢ ، من أقطاب العلم فى انجلترة ، ولا تزال باقية للآن ، وقد جمعت من التجارب النفسية ما وقع فى نحو أربعة وخمسين مجلدا ، وهو ذخر علمى لم يوجد له مثيل قط فى أى عهد من عهود العقلية الإنسانية . فإذا أراد قراؤنا أن يدركوا مقام هذه الجمعية فى نظر رجال العلم ، فليقرءوا ما كتبه عنها الأستاذ الكبير وليم جمس فى كتابه إرادة الاعتقاد « La Volonté de Croire » ، وهو مدرس علم النفس بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة ، قال فى الصفحة ٣١٣ :

« إن جميعة المباحث النفسية التى يمتد عملها فى انجلترة وأمريكا ، قد سمحت بأن يتلاقى العالمان العلمى والروحانى فى مجال واحد . وإنى أعتبر أن هذه الجميعة مهما كانت وظيفتها محدودة سيكون لها نصيب كبير فى ترتيب المعارف الإنسانية . فلهذا أستحسن أن أفضى إلى القارىء بنتائج أعمالها بإيجاز فأقول :

« إذا صدقنا الجرائد وأوهام الصالونات ، خيل إلينا أن الضعف العقلى وسُرعة التصديق هما الرباط المعنوى الجامع بين أعضاء هذه الجمعية ، وأن حب العجائب هو الأصل المحرك لها . والواقع أنه يكفى أن نلقى نظرة واحدة على أعضائها لدحْض هذه التهمة . فإن رئيس هذه الجمعية هو الأستاذ سدجويك « Sidgwick »

المعروف بأنه أشد الناس شكيمة فى النقد ، وأعصاهم قيادا فى التشك بجميع البلاد الانجليزية . ووكيلاها المستر ارثر بلفور والأستاذ ج . ب . لنجلى ، سكرتير المجمع العلمى . ويمكن التنويه من أعضائها العاملين بالأستاذ ريشيه الفيزيولوجى الفرنسى الخطير . وتشمل قائمة أعضائها رجالا آخرين كفايتهم العلمية أشهر من نار على علم . فإذا طلب إلىّ أن أعين جريدة علمية تكون مصادر أغلاطها مُتّقاةً بأدق أساليب التمحيص ، فانى أنوّه بمحاضر جمعية المباحث النفسية . فإن الفصول الفيزيولوجية التى تنشرها الجرائد الخاصة بهذا العلم ، لا تبلغ فى دقة النقد مبلغ دقة هذه المحاضر المذكورة ، حتى أن صرامة الأساليب الكشافة التى طبقت منذ عدة سنين على شهادات بعض الوسطاء ، كانت بحيث توجِد اختلاف الآراء فى باطن الجمعية نفسها » انتهى .

وقبل أن تتألف هذه الجمعية حمل الرأى العام المجمع العلمى الانجليزى على تأليف لجنة لفحص الظواهر النفسية وتمحيصها ، فندبت ثلاثة وثلاثين علماً من أعلامها للقيام بهذه المهمة العلمية . فبذلوا فى تحقيق هذا الموضوع ثمانية عشر شهراً ، ثم حرروا تقريراً إجماعيا وقع فى ٥١٤ صفحة ، وطبع فى أكثر اللغات الحية . جاء فى آخره ما نصه :

« عقدت هذه اللجنة اجتماعاتها فى البيوت الخاصة بالأعضاء لأجل نفى كل احتمال فى إعداد آلات لإحداث هذه الظواهر أو أية وسيلة من أى نوع كانت .

« وقد تحاشت اللجنة أن تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة ، أو الذين يأخذون أجرا على عملهم هذا ، لأن واسطتنا كان أحد أعضاء اللجنة ، وهو شخص جليل الاعتبار فى الهيئة الاجتماعية ، وحاصل على صفة النزاهة المطلقة ، وليس له من غرض مالى يرمى إليه ، ولا أية مصلحة فى غش اللجنة .

« كل تجربة من التجارب التى عملناها بما أمكن لمجموع عقولنا أن تتخيله من التحوطات ، عُملت بصبر وأناة . وقد دبرت هذه التجارب فى أحوال كثيرة الاختلاف ، واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة لأجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا ، وإبعاد كل احتمال لتزوير أو توهّم .

« وقد اكتفت اللجنة فى تقريرها بذكر المشاهدات التى كانت مدركة بالحواس وحقيقتها مستندة إلى الدليل القاطع .

« وقد بدأ نحو أربعة أخماس أعضاء اللجنة تجاربهم وهم فى أشد درجات الإنكار لصحة هذه الظواهر ، وكانوا مقتنعين أشد اقتناع بأنها كانت إما نتيجة التدليس أو التوهم ، أو أنها تحدث بحركة غير اعتيادية للعضلات ، ولم يتنازل هؤلاء الأعضاء المنكرون للغاية عن افتراضاتهم هذه إلا بعد ظهور المشاهدات بوضوح لاتمكن مقاومته فى شروط تنفى كل فرض من الفروض السابقة ، وبعد تجارب وامتحانات مدققة مكررة ، اقتنعوا مضطرين بأن هذه المشاهدات التى حدثت فى خلال هذا البحث الطويل هى مشاهدات حقة لا غبار عليها إلخ » .

هذا ما ورد فى ذيل ذلك التقرير الضخم ، ولسنا فى حاجة لأن نقول إن هذا أكبر حدث سُجّل فى تاريخ العلم . ومن العبث المحض أن يتوهم متوهم أن الحقيقة تضيع أو أن التدليس يروج بين يدى ثلاثة وثلاثين رجلا من أعلام العلم المتمرسين على النظر والتمحيص وتمييز الغث من السمين فى كل ضروب البحوث البشرية .

ولقد كان لهذا التقرير أثر عالمى عامّ ، فهبَّ ألوف من العلماء والفهماء فى جميع ممالك الأرض لبحث هذه الخوارق ، وألّفوا لما مئات من الجميعات ، ونشروا مثلها من المجلات ، ووضعوا فيها ألوفا من الكتب ، ولا تزال هذه المؤسسات قائمة إلى اليوم ، والاهتمام بها يزداد على نسبة كثرة ما يعمل فيها من التجارب والبحوث ، وقد أقيمت لها خمس مؤتمرات عالمية فى لوندرة وباريس وغيرهما ، أصدرت تقارير ضافية ترجمت إلى اللغات الحية .

هذا ولو أردنا أن ننقل شهادات أعضاء المجامع العلمية ، ورؤساء الجامعات ومدرسيها ، والفلاسفة والصحفيين والمحامين ، وجميع من فحصوها من كبار العقول ، لا قتضى ذلك منا مجلدا ضخما ، ولكنا نكتفى بما تقدم فإن فيه بلاغا للمفكرين .

غرضنا من الإلمام بهذه المسألة :

لسنا نقصد بما نشرناه فى هذا الموضوع أن ندعو إليه ، ولكنا نقصد منه أن

نثبت للذين غرّتهم الفلسفة المادية فوقفوا عند حدودها فيما يقررون ، والذين يظنون أنه ليس فى الوجود شيء فوق ما يعرفون ، أنهم مخدوعون ، فإذا لم نظفر إلا بتشكيكهم ، وتشكيك من يتأثرون بكتاباتهم فيما هم جامدون عليه ، فهذا كسب لنا عظيم .

على أننا نرجو أن يحملهم هذا الشك على ترك خيلائهم بالقليل من المعرفة التى حصلوها ، وعلى التأسى بأقصاب العلم المعاصرين فى التواضع وفى الامتناع عن نفى ما لم يحيطوا بعلمه . وإن لهم فى مثل العلامة الكبير السير وليم كروكس أسوة حسنة ، فإن هذا الرجل الفذ حصل على كل ما يمكن الحصول عليه من ألقاب الشرف العلمية ، وتولى رئاسة المجمع العلمى البريطانى ، وقد قال فى خطبة له فيه ، كما ورد فى مجموعة خطبه صفحة ٨ :

« من بين جميع الصفات التى عاونتنى فى مباحثى النفسية ، وذلّلت لى طرق اكتشافاتى الطبيعية ، وكانت تلك الاكتشافات أحيانا غير منتظرة ، اعتقادى الراسخ الصحيح بجهلى . وأكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم عاجلا أو آجلا إلى إهمالهم الكلى لجانب عظيم من رأس مالهم العلمى المزعوم .

إلى أن قال : « ولست بآسف من الحدود التى تضعها أمامنا الجهالة الإنسانية ، بل إنى اعتبرها منشطا منقذا . إنى أعتقد بأنى لست أنا وليس أحد سواى أهلا لأن نحكم بأن شيئا بعينه ليس بموجود فى الكون » (تأمل) .

كذلك لهم أسوة بمثل الأستاذ الكبير (شارل ريشيه) عضو المجمع العلمى ومدرس الفيزيولوجيا فى جامعة الطب الفرنسية ، فقد قال فى مقدمة كتبها لكتاب (الظواهر النفسية) تأليف الدكتور (ماكسويل) النائب العام فى بوردو من فرنسا ، قال :

« يجب على الإنسان مع احترامه العظيم للعلم العصرى أن يعتقد بقوة أن هذا العلم العصرى مهما بلغ من الصحة فهو لا يزال ناقصا نقصا هائلا .

ثم قال : « لماذا لا نصرّح بصوت جهورى بأن هذا العلم الذى نفخر به إلى هذا الحد ، ليس فى حقيقته إلا إدراكاً لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتُفلت منا ولا تقع تحت حواسنا ، وأن الطبيعة الحقيقية للنواميس التى تقود المادة الحية أو

الجامدة تتعالى عن أن تلم بها عقولنا ؟

إلى أن قال : « فالأَوْلى بالعالم الصحيح أن يكون متواضعا وجريئا فى آن واحد ، متواضعا لأن علومنا ضئيلة ، وجريئا لأن مجال العوالم المجهولة مفتوح أمامه » .

نتيجة ما تقدم :

يرى قراؤنا مما قدمناه أن العلماء المنصرفين لدراسة الكون والكونيات ، قد ظهر لهم عقب حدوث اكتشافات خطيرة لم تكن تخطر لهم ببال ، أن حدود العلم لا تزال بعيدة عنهم ، وأن كل ما حصّلوه منه لا يعدو العلاقات الموجودة بين بعض ما يقع تحت حسهم من الموجودات . أمّا كُنْه تلك الموجودات وحقيقة النواميس التى تدبرها ، فلا يزال أمرهما مجهولا . وقد تجلى لهم أن من الحماقة وضع حد للممكنات ، والتكذيب بما لم يحيطوا بعلمه من المجهولات .

ثم يرى قراؤنا أيضا أن طائفة من أماثل هؤلاء العلماء ، قد وُفقوا منذ تسعين سنة ، عقب ظهور حوادث محققة تدل على وجود عالم وراء العالم المحسوس ، إلى التنقيب عن حقيقة ذلك العالم ، جارين على أسلوبهم العلمى من المشاهدة والتجربة ، فوقفوا على أمور لم يكن يدور فى خلد أحد أن أقطاب العلم المادى يعودون فيثبتون وجودها وقد سبق لهم نفيها ، والتشنيع على القائلين بها من الشئون الروحانية .

ولسنا نريد أن نثبت إمكان الوحى بالاستناد إلى اكتشافات هؤلاء العلماء فى عالم ما وراء الطبيعة ، فقد أثبتنا وُجوده بالحس من الغرائز التى طبعت عليها الحيوانات ، ومن حوادث العبقريات ، ولكننا نستأنس بها فى بحثنا هذا ، إدلالا على أن الإنسانية قد اجتازت دور الافتنان بالماديات ، وبدأت تدخل إلى عهد من الحياة تتفق فيها فتوحات الروح من طريق النبوة ، وفتوحات العقل من طريق العلم ، فتستقيم على الجادة التى توصلها إلى كمالها المرجوّ لها ، خالصة من الشبهات الرائنة على الصدور ، والشكوك المحيرة للعقول (*) .



(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الثالث ، شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٨ هـ .

حظّ الأمم من النبوّة
قديماً وحديثاً

يحيط بتاريخ النبوات كثير من الغموض ، فإن من اشتهر منهم فى التاريخ العام ، وعُرفت سيرهم ، وضُبطت تواريخهم ، عدد لا يذكر بجانب من لم تُعرف أسماؤهم ، و لم تصلنا أخبارهم . وقد دلت العلوم الاجتماعية على أن الجماعات البشرية فى جميع أدوار وجودها صدرت فى حياتها الدينية عن تعاليم مقررة أفضى بها إليها رجال منها ، أطلقت عليهم ألقابا مختلفة من كهنة وبطارقة وموابذة ومعلمين ، بل وآلهة وأنصاف آلهة ظاهرين بأجساد بشرية إلخ ، ولكن بسبب الظلمات المخيِّمة على تواريخ تلك الأمم لم تعرف أسماء أكثرهم ، و لم يمكن نقد ما أتوا به من التعاليم ، وتقدير قدرها من الناحية الفلسفية ، وتمييز من يصح أن يحشر منهم فى زمرة الأنبياء ، لسلامة تعاليمهم من ضلالات الوثنية ، ومن يتعين الزجّ بهم فى قبيل الدجاجلة والمشعوذين ، وطلاب السلطان والمال باستغلال جهل الجاهلين .

ليس هذا موطن تحقيق تاريخى لتمييز الصادقين من الأنبياء الكذبة ، ولكنا نلفت نظر القارئين إلى حقيقة ذات دلالة بعيدة المدى فى فهم مرمى العاطفة الدينية ، وهى أن العالم كله متمدِّنهُ ومتوحّشه ملتفٌّ حول النبوة فى جميع مظاهرها ، لا تشذ منه جماعة فى أى عهد من عهود التاريخ ؛ فأينما أجلت بصرك شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا إلى القرن العشرين ، وفيما قبل التاريخ ، فلا تصادف غير أمم وشعوب وقبائل معوّلة فى توفية أخص حاجاتها الروحية على النبوة . فهل هذا التعلق الشديد بالنبوة أثر من آثار السذاجة الإنسانية الأولى توارثتها الأجيال فأصبحت حاجة نفسية لابد من توفيتها على حال من الأحوال ؟

يقول الماديون : نعم ، ويقول الاعتقاديون : لا . فأى الفريقين أهدى سبيلا ، وأقوم قيلا ؟ الماديون بحكم أصولهم مضطرون لإنكار النبوة واعتبارها شعوذة وتدليسا وخداعا ، ولحسبان الملتفين حولها سذجا مخدوعين ، وغفلا مأفونين .

هذا تعليل قليل الكلفة ، سائغ فى نظر الذين لا يهمهم تحقيق الأمور ، ولكن

الذى أوتى نعمة التثبت يصعب عليه أن يتحلل من النظر فى أمر جلل كأمر النبوة بكلمة يلفظها لا يعرف مبلغها من الصحة .

كل الأنبياء مشعوذون مزوّرون ، وجميع الخلق سُذَّج مأفونون ! لو صحَّ هذا لكان أفظع طعن يمكن توجيهه إلى الجبلّة الإنسانية ، وإلى الطبيعة التى كونتها فى رأيهم على هذه الشاكلة . فإن كائنا تستوعب حياته نفسيةٌ من هذا الطراز ، ويتسلط عليه وهم بهذا القدر من الخطر ، ويستمر مئات الألوف من السنين فى هذا الضلال العقلى ، يعتبر وجوده شؤما على الأرض التى يعيش عليها ، ويعد أفضل منه الحيوان الأعجم بما لا يقدَّرُ .

هنا يمكن أن يقول لنا واحد من أنصار هذا الرأى : رُوَيْدك قليلا ! أليست القبائل والجماعات قد تناحرت ولا تزال تتناحر لنصرة صنم من الأصنام ، أو لتأييد وهم من الأوهام ، فهل الأصنام والأوهام مما يجب أن يتعصب له إلى هذا الحد ؟ وهل تاريخ الحروب الدينية إلا سلسلة من هذه الاندفاعات الجنونية ، وراء الأوهام النفسية ؟ فإن شئت أن تنظم الدرارى مدحا فى تقديس هذه النفسية البشرية ، فافعل ، ولكن لا تنتظر أن يخفف النقد العلمى من شدته لأى اعتبار من الاعتبارات .

فأجيبه بقولى : لقد قرَّبت لى البعيد ، وكفيتنى مؤنة سرد الأسانيد الدالة على سمو النفسية الإنسانية ، واسترخاصها حياتها الأرضية فى سبيل غرض لا يمتّ إلى المتع الجسدية بسبب . إنك نظرت إلى السبب المباشر للتناحر ، فوجدته ماثلا فى نصرة صنم من الأصنام ، أو وهم من الأوهام ، ولكنك لم ترتفع عن هذا الحضيض لتشرف على الدوافع الحقيقية الباعثة على تأييد الأصنام أو الأوهام . إنك لو فعلت لرأيت أن الباعث هَمٌّ بعيد الشأو ، عالى القدر ، سامِ السموَّ كله ، وهو اختراق الحجب الأرضية ، للوصول إلى عالم الروح المحض ، والخير البحت .

لا يعيب هذا الاندفاع الإنسانى أن يكون باعثه المباشر صنم أو وهم ، فقد يكون منشؤهما جهلا أو سذاجة ، وهما عرضان يزولان وتحل محلهما عقائد صحيحة ، وقد تعود فتُحرَّف تلك العقائد الصحيحة ، وهلم جرا ، ولكن الباعث الذى يهيب بالإنسانية إلى الجهاد فى سبيل الروح دائب على العمل ، لا يمل ولا ينى

فى دور من الأدوار .

يجب أن يُجَرّد هذا الباعث الروحانى من كل ما يلابسه من عقائد باطلة ، وضلالات عارضة ليمكن رؤيته على حقيقته ، وتقدير طبيعته ، ومعرفة مدى تأثيره فى ترقية النوع البشرى وتحريره من بهيميته .

أما رأيت فى خلال تاريخ النوع البشرى أن هذا الباعث العالى حمله على تقييد إطلاقه ، وتهذيب أخلاقه ، فعد العدل فضيلة ، والظلم رذيلة ، واعتبر البذل محمدة ، والإمساك مذمة ، وعد التواضع مكرمة ، والتكبر مأثمة ، وحسب المساواة مفخرة ، والتميز معرة ؟

فإن قلت : كل هذا أوجبه – على قول الداروبيين – ما غرس فى طبيعة الإنسان من غريزة الاجتماع ، فهى التى دفعته قهرا للتخلق بما يحفظ وجود الجماعة من الأخلاق الفاضلة ، فتخلق بها قهرا ، وبالإدمان عليها ، كما تقتضيه حاجة الاجتماع ، انطبعت فى ضميره ، فإذا نظر إليها المتأمل السطحى ظنها صفات فطرية علوية ، وما هى فى حقيقتها إلا ضرورات اجتماعية اقتضتها الطبيعة الأرضية ولا أثر للروح فيها .

نقول : كل هذا الكلام معلول ، فإن الاجتماع ليس بحاجة من الأخلاق إلا للقدر الذى عليه النمل والنحل والذئاب والفيران ، وهذه الأنواع كلها ولدت مفطورة على ما يحفظ وجودها الشخصى والنوعى بدون كسب ، فكان يكفى الإنسان أن يولد مفطورا على مثلها ويقف منها حيث وقفت ، أما وهو لم يقف منها عند حد ما يستدعيه الاجتماع ، فتراه يزيدها كل يوم تهذيبا ، عاملا على إنشاء جو أدبى حوله يباين به مادية الطبيعة ، حتى إنه ليحاول أن يخرج نوعه من سلطانها ليعيش فى ظلال آدابه وأخلاقه ومدنيته ، بمعزل عن خشونتها وصرامتها ، فإن هذا كله لا يستدعيه قيام الاجتماع ، ولا هو بحاجة إليه . ألست ترى ألوفا مؤلفة من الجماعات قائمة فى الأرض على أخلاق السباع والذئاب والدِّبَبَة ؟ فأى عامل دفع الإنسان لما وراء حاجة الاجتماع ، فدرس الأصول حتى قتلها خبرا ، وسرى فى سرائر المبادئ حتى لم يدع حِنْواً من أَحْنائها يمكن أن تنزوى فيه حقيقة حتى مدّ مِسْباره إليها ، وسلط

عليها من تدبّره نورا كشافا فأدركها ، ولم يَألُ فى إضافة ما يجده من أسرار العدل والإنصاف ، وخفايا الآداب والأخلاق ، إلى ما سبق له تسجيله منها ، حتى أصبح لديه كنز منها اتخذه مثلا أعلى لا يزال يحن إليه ، ويود أن يصيبه تطور أدبى جديد فيضطره إلى التعويل عليه .

ما هذا الحنين من الإنسان إلى المثل الأعلى من الاجتماع ، وفيه تقييد للحرية ، وتحديد للحقوق ، وتكاليف على الأقوياء ، وواجبات على الممتازين ، وحقوق للضعفاء ؟

ما هو العامل النفسانى السامى الذى يجعل الإنسان يتمنى أن لو أصبح الناس كلهم متساوين فى الحقوق والواجبات ، فى مجتمع لا أثر فيه للاعتبارات والامتيازات ، بل ما هو ذلك العامل السماوى الذى يحبب بعض النفوس فى الإيثار ، فينزلون لإخوانهم عما يملكون ، وليس فى القانون ولا فى حاجات الاجتماع ما يدعو إليه ؟

إن قلت : إن كل هذا دعا إليه التوسع فى توفية حاجات الاجتماع ، قلت لك : فإن كثيرا من الناس فكروا فى الزهد حتى كان أحدهم يكتفى من الغذاء ببضع تمرات أو تينات ، ومن اللباس بعباءة يجمع حافتيها بخلال ، وآخرين آثروا اعتزال الجماعة ضنا بأنفسهم على موبقات الاجتماع ، وغيرهم شغلوا أنفسهم بالعبادة حتى قد لا تصادف الواحد منهم إلا راكعا أو ساجدا ، فهل كان هذا كله من توليدات غريزة الاجتماع التى يقول بها الداروينيون وهى لا تمت إلى الاجتماع بأدنى سبب ، بل تنافيه فى نظر الكثيرين من العلماء ؟

تأييد الفطرة الإنسانية لتعاليم الأنبياء :

ماذا حمل الأنبياء للأمم من التعاليم ، وأى شىء أفادوه المجتمعات المختلفة فى خلال العصور ؟ إن بضاعة الأنبياء معروفة فى كل زمان ومكان ، وهى تلطيف خشونة الطبيعة البشرية ، وقهر ميولها البهيمية ، وإدخالها فى حدود الاعتدال ، وتوجيه الشخصية الإنسانية وجهة الخير ، والسمو والصلاح ، وذلك بلفت نظر الناس إلى أن للكون صانعاً قديرا حكيما ، وأن لهم روحاً قُدِّر لها الخلود فى حياة بعد هذه الحياة ، وأن العدوان الذى يرتكبه الإنسان فى حياته الأرضية ، ضد

الآداب والحقوق الخاصة والعامة ، يحاسب عليه فى تلك الحياة ، وقد دان الناس كلهم لهذه العقائد حتى لم يصادف قديماً ولا حديثاً أمة بغير دين ، فعلام يدل هذا العموم والشمول ، حتى والإنسانية فى أحط الأدوار ؟

ألا تدل على أنها مطبوعة على الانعطاف إليها ؟ وهل فى الدين إلا واجبات وتكاليف وإيثارات وتضحيات ؟ فلو كان الإنسان طينا محضا لما هوى إلى هذه التعاليم ، وللفظها كما يلفظ كل ما لا يشعر بميل فطرى إليه .

وقد بلغ نحو ألف وخمسمائة مليون نفس اليوم من المدينة شأوا لم تكن تحلم به الجماعات التى سبقتها فى الوجود ، ومع هذا فهى لا تزال تدين بنبوة أربعة أو خمسة رجال مضى على أقربهم عهدا نحو أربعة عشر قرنا ، ولم يستطع أنبه الماديين ، رغما عما كتبوا فى صرف الناس عن هذه النبوات ، أن يحولوا عنهم غير عدد محصور من القارئين مع أن فى تعاليم بعض هؤلاء الأنبياء ما يُكَرِّه إلى النفوس الحياة الأرضية ، ويَعُدّ المتع الجسدية رِجْساً من الأرجاس ، فإن فيهم ، وليس من أقلهم أتباعا ، من يقول إن جميع المطالب البدنية أقذار لا تليق بكرامة الإنسان ، وأن ليس ينجيه منها إلا الفناء فى الله . وفيهم من يقول ، ولا يقل عن سابقه فى عدد الأشياع : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن سرقك رداءك فأعطه قميصك .

فما السر فى بقاء هذه الأديان إلى اليوم سائدة على الأمم المتمدنة رغما عما أصيب به أكثرها من التحريف والتصحيف والتأويل ؟ السر علبة عاطفة علوية على الفطرة البشرية الأرضية ، فهى تدين بهده الأديان على ما فيها لأنها تتنسم من خلال تعاليمها عَرْف الوحى السماوى الذى تولاها فى طفولتها ، وقوّمها فى شبيبتها ، وعزّاها فى شيخوختها ، ولا يزال ينفحها فى سويداء فؤادها بما يربُّها ويكملها .

العوامل النفسية الخفية فى حياة النبوات :

يشتد الكتاب الماديون فى ضرورة إبعاد فكرة النبوات من العقلية الإنسانية ، بحجة منافاتها للعلم من ناحية ، وعدم حاجة الاجتماع إليها من ناحية أخرى . ويغفلون عن أن العلم اليوم قد أثبت النبوات بأدلة لا تقبل النقض ، وما حيلتنا فيمن جمدوا على ما هم عليه ، ولم يبالوا بما جد فى العلم من الفتوحات التى أقامت ألوفا من

العلماء وأقعدتهم فى أربعة أرجاء المعمور ، ولا تزال تفعل فى النفسية الفلسفية الأفاعيل ؟

وأما زعمهم بعدم حاجة الاجتماع إلى النبوات فينمّ عن جهل عظيم بطبائع الاجتماع ، فإن المجتمع كالجسم الحى ينفى بقواه الذاتية كل ما ليس به حاجة إليه . أما وهو ما ينف التعلق بالنبوات رغما عن جميع الصوارف التى تستخدم لصرفه عنها ، فذلك يدل على أنه لا يزال به حاجة إليها . فيجب على كل باحث فى أطوار الإنسان أن يدرك سر تمسكه بها رغما عن جميع الشبهات التى أثيرت حولها . وإذا شئت أن نفضى إليك بما انتهى إليه علمنا فى هذا الشأن فإليك :

لا جدال فى أن العلوم والفنون قد آتت الإنسان بكل ما هو فى حاجة إليه من مقومات الحياة ، وهى دائبة على إيتائه منها بما لا يدع له معها حاجة إلى المزيد ، ولكنها قد عجزت إلى اليوم عن إيتائه بأعز مطلوب لديه ، وهو (العزاء) الذى لابد منه حيال ما ينتابه من صروف الأيام ، وكوارث الحدثان فى الأهل والنفس والمال .

ماذا يغنى الإنسان أن يحاط من طُرَف الصنائع ، وتُحَف الفنون ، وبدائع المخترعات بما يجعل حياته طيبة هنيئة ، وبما يحببه فى استبقائها واستدامتها ، ويزيده تشبثا فيها ، وولوعا بها ، وهو لا يلبث أن يصاب له عزيز عليه بمرض فيعجز عن علاجه نطس الأطباء ، ثم يختطفه الموت من جانبه فلا تقوى قوى العالم كله على تخليصه من أنيابه ! فإذا شيعه إلى مثواه فى الأرض ، وعاد يبكيه ويندبه أياما وشهورا ، وبدأ يعاود حياته العادية فى وسط هذا النعيم المدنى العظيم ، بوغت بكارثة أخرى من هذا النوع فى عضو آخر من أعضاء أسرته ، أو أصيب هو بمرض خطير يفقده لذة العيش ، ويجعله حيا كميت ، لا يستطيع حراكا ولا همسا ، ويتراءى له الموت كاشرا عن أنيابه بين لحظة وأخرى ، ويدخل إليه الأساة ويخرجون فلا يستطيعون إسعافه بما يعيده إلى حالته الأولى أو ما يقاربها ، وقد يكون فى عنفوان شبابه ، وريق صباه !

هبه قد عُمِّر حتى بلغ من السن عتيا ، فما الذى يعزيه عن شبابه الذى

تصوحت زهرته ، وأخلقت ديباجته ، وعن قواه التى خارت حتى أصبح لا يستطيع النهوض ، وطالعه وجه الموت شاحبا مزعجا فى كل لحظة من وجوده المتعب المثقل بالهموم ؟

إن هذا العزاء للإنسان حاجة لا تعدلها حاجة عنده ، وقد حاول أن يجدها فى كل ما تسمح له به العلوم والصناعة فعجزت ، وعمد إلى صرف عقله عنها بالصهباء والمزاهر والدفوف ففشلت ، بل زادته إيغالا فى الهموم !

هذه الحاجة الماسة إلى العزاء وجدها الإنسان فى تعاليم النبوات ، فهى التى تتولاه وهو أشد ما يكون احتياجا إلى كلمة طيبة توجه إليه ، وأمل – ولو ضعيفا – يعتمد عليه ، فاضطر أن يبقى على هذه التعاليم ، متربصا بالعلم أن يفتح عليه بما يؤيدها ، وقد ظهرت بوادر هذا الفتح بما اتفق له من بحوث تجريبية فى عالم الروح ، فاكتسبت بذلك تعاليم النبوة سلطانا جديدا على العقول ، وكلما تقدمت تلك البحوث ازدادت مرتبة النبوة إشراقا ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى ، إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [1] (*) .

★ ★ ★

(١) سورة المجادلة (من الآية ٢١) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الرابع ، شهر ربيع الثانى سنة ١٣٥٨ هـ .

نصيب العالم من رسالة خاتم المرسلين
محمد صلى الله عليه وسلم

لو كانت الحركة التى أحدثها الإسلام انحصرت فى بيئتها التى نشأت فيها ، لما ساغ لنا أن نذكر نصيب العالم منها ، ولكنها كما يعلم الناس كافة ، ما عتَمت بعد انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، أن اجتازت حدود البلاد العربية شمالا وشرقا وغربا وجنوبا ، متخطية جميع الحوائل التى وضعت أمامها ، وكانت سببا مباشرا لتغيير خريطة العالم فى مدة لا تزيد على ثمانين سنة .

لو كانت هذه الحركة ذات صبغة استعمارية باحتة ، لانحسرت بعد بلوغ شوطها الأقصى ، تاركة وراءها أحاديث الفظائع التى ارتكبت لتدويخ الأمم ، ولسلبها ما بأيديها من المال والعتاد ، ككل حركة من هذا النوع حدثت فى خلال العصور ؛ ولكن هذه الحركة لم تسكن حتى بعد وصول الفتوحات التى اقتضتها إلى نهايتها التى قدرت لها ، بل حتى بعد طروء الضعف والفتور على بنية الدولة الإسلامية التى تمثلها ، ويجب أن أقول حتى بعد أن ضاع استقلال أكثر الممالك الإسلامية ، واشتد كَلَب الدعاة على أهلها فى جميع البلاد الشرقية . وهذا يدل دلالة لا تقبل النقض على أن قوامها عنصر أدبى له وقع عظيم فى النفوس ، لبقائه مؤديا مهمته فى أثناء دور الفتور الذى أصاب جماعته ، وقد شوهد أنه اشتد وازداد سلطاناً على العقول عندما بلغ هذا الفتور أقصى درجاته فى القرن الأخير .

هذا موضوع دراسة علمية لا يجوز إغفالها، بل هو موطن القصد الرئيسى من الرسالة المحمدية ، إذا لم تكشف حقيقته ، وبقيت تحت حجب الإغفال ، استحالت السيرة المحمدية إلى مثل سير رجال التاريخ العاديين ، وبقى معنى الإسلام الذى استوعب كل حياة النبى ﷺ ووجوده ، مجهولا حتى عند أهله الأقربين . ونحن لأجل إدراك هذا القصد مضطرون للرجوع إلى ما كان يفهمه من الإسلام رجاله الأولون ، والجماعات التى تتسارع إلى الدخول فيه من أهل الملل الأخرى .

الأمر الذى كان يفهمه المسلمون الأولون من أمر هذا الدين ، أنه ليس بدين

جديدٍ ، ولكنه الدين الأول الذى أوحاه الله إلى جميع رسله فى خلال القرون ، وأفسده القادة بالزيادة فيه والنقص منه ، وتناوُلِه بالشروح الطويلة ، وإخراجِه عن حقيقته بالتأويلات الخيالية ، ليتم لهم ما كانوا يرمون إليه من التسلط على الناس ، وتسخيرهم لمصالحهم الخاصة . ولم يكن فى الأرض دين سلمت أصوله من هذا التحريف ، فخنع كل قبيل لما عليه الكافة ، غير متوقعين أن يكون لهم مخرج منه ، فصبروا على ما هم عليه مستسلمين .

اتفق أنه عند ما نشأ الإسلام كان بجزيرة العرب يهود ونصارى ، نزحوا إليها هربا من اضطهاد الفرس والرومانيين ، فأخذوا ، ولا سيما اليهود ، يقدحون فى الإسلام ويحرضون المشركين على مقاومته ، ويشدون أزرهم على ذلك ، ويثيرون الشبهات عليه . فكان ينزل فى الرد عليهم قرآن يَدْحَض ما يفترون ، ويبين وَهْنَ ما إليه يستندون . استمروا على ذلك حتى بعد أن أسلم جم غفير من أعليائهم . فاجتمع من شبهاتهم والرد عليها شيء كثير من الحوار ، تجلت فيه الأصول التى يقوم عليها الإسلام ، والمبادىء التى شرع ليبثها فى القلوب ، ويحمل على احترامها العقول ، ويبين ما عليه خصومه من مجافاة المنطق ، ومخالفة الواقع ، والتعويل على الوساوس ، والجمود على الأضاليل . وهذا كله يعتبر أكمل أسلوب للدعاية إلى الحق فى أمم أحيطت بالأباطيل ، حتى كات تختنق فيها فطرتهم الإنسانية ، فتخلط بين ما هو حسن وما هو قبيح ، وبين ما هو ممكن وما هو مستحيل .

ما تبين للأمم من هذا الحوار :

تبين لها من هذا الحوار هذه الأصول :

(١) شرع الدين لتربية الإنسان وتكميله ، لا لتسخيره وتذليله .

(٢) دين الله واحد لا يتعدد ، وإنما تعددت الأديان بسبب ما أدخله عليها زعماؤها من آرائهم ، وما حمَّلوها من تأويلاتهم .

(٣) خُلق العالم الإنسانى كله من أب وأم ، فجميع أفراده إخوان ، وقد انقسموا بسبب كثرتهم إلى شعوب وقبائل ، فيجب أن يتعارفوا ويتآلفوا ، لا أن يتناكروا ويتناحروا .

(٤) قوام الدين العقل ، ومادته العلم ، وميزانه الدليل ، العقل المطلق من أسر

الأوهام التقليدية ، والعلم القائم على الأعلام الوجودية ، والدليل الخالص من مؤثرات الأهواء النفسية .

(٥) التكاليف الدينية ، مقيسة على الاستطاعة البشرية ، وللعاجز عن أدائها المعذرة .

(٦) لا وساطة بين الله وعبده ، ولا سلطان لطائفة تنتحل لنفسها هذه الوساطة ، وليس أحد بملزم أن يتبع رأى غيره ، فهو حر لا يتقيد إلا بما تتقيد به الكافة أمام الشريعة العادلة .

(٧) التقليد غير جائز لأنه كما يكون فى حقٍّ يكون فى باطلٍ ، وفى الاتباع غنى عنه ، ولا اتباع إلا بعد النظر فى أدلة المتبوع ، ومحاكمة أقواله إلى المنطق والعلم .

(٨) الدين لا يحرِّم على الإنسان إلا ما يضره ، ولا ينهاه إلا عما يفسده ، ولا يعاقبه على الخطأ والنسيان ، ولكن على العمد والإصرار .

(٩) كل إنسان مسئول عن نفسه ، وعن أعماله ، ومطالب بالدفاع عن ذاته ، لا يغنيه فى ذلك لجوؤه إلى ملك مقرب ، ولا انتسابه إلى نبى مرسل ، أو ولى حميم .

(١٠) لا فضلَ لنفس على نفس ، ولا سلطانَ لضمير على ضمير ، ولا مزية لأمة على أمة ، فالكل سواء أمام الله ، وإنما التمايز بتقوى الله وطاعته .

(١١) المنح الإلهية سواء أكانت مادية أم روحية حق للكافة على السواء ، تعطَى للمستحق لها بلا تمييز بين الأجناس والألوان واللغات .

(١٢) المثل الأعلى للاجتماع أن يكون الناس أمة واحدة ، يدينون بدين واحد ، هو دين البشرية الأول الذى نزل على أسلافهم ، ولكن بعد تجريده من زيادات المتزيدين ، وأهواء المتحكمين ، وأضاليل المؤولين ، وأن يكونوا أمة عالمية خاضعة لأحكام العقل ، ومتمشية مع فتوحات العلم ، وماضية قُدُماً فى تحقيق المُثُل العليا من العدل والإنصاف والمساواة والحرية والاستقلال ، والتطهر من بقايا الوحشية والصفات الحيوانية .

الفرق بين الإسلام والأديان الأخرى فى معنى الدين :

هذه بعض الأصول والمبادىء الإسلامية التى يجد الباحث فيها عشرات من الآيات القرآنية تدل عليها نَصّاً ، وقد دوّنتها كتب الشريعة الإسلامية بين دفاتها ،

ونبه إليها الأئمة ، وبنوا عليها استنباطهم للأحكام ، ووضْعَهم للنظم الاجتماعية .
وأنت ترى أنها جملة وتفصيلا مخالفة لما كانت عليه الأمم كافة . فقد كانت الجماعات لا تفكر فى وحدة الدين ، ولا فى صحته أو تحريفه ، فإن ذلك كان موكولا للقائمين به ممن نصبوا أنفسهم مهيمنين عليه . وكان الناس يعتقدون ، كما أوهمهم بذلك قادتهم ، أن الدّين لا يُتناول بالعقل ، ولا يتحكم فيه بالنظر ، فإنما هو إيمان تقليدى لا يجوز أن يتردد عقل فى قبوله . وكل علم يدفع بصاحبه لتحقيق الاعتقاد وتصحيحه ، وكل فلسفة تستدعى إثارة الشكوك فى النفوس ، كانت تعتبر ملعونة يستحق المشتغل بها أن يرمى فى النار حيا ليموت على أفظع حالة . أما التكاليف الدينية فكانت فى نظرهم من حق المهيمنين على الدين ، وعندهم أنه لا يلحظ فيها تربية الإنسان ولا تكميله ، وإنما محض العبودية للخالق ، وكلما كانت أشق على النفس ، وأدعى للإعياء واللغوب ، كانت أفضل .

أما الوساطة بين الله وعباده ، فكانت فى نظرهم ضرورية ، لأن رؤساءهم أوهموهم أن ذلك من وضع الخالق نفسه ، وأنهم وكلاؤه فى أرضه ، ما يحلّونه فى الأرض يحل فى السماء ، وما يعقدونه فى الأرض يعقد فى السماء . والطاعة لهؤلاء الوسطاء واجبة ، وتقليدهم أمر لابد منه بدون نظر ولا نقد ، ولا تَطَلّب دليل ، فذلك كفر !

أما المسئولية الشخصية فلم يكونوا يقولون بها ، لأن القائمين على الدين هم الذين يجيبون عنهم فى الآخرة ، وهم الذين يتولون عند الله الشفاعة لهم .

أما تفاضل النفوس فكان من الأمور المقررة عندهم ، فالذين ينتسبون إلى الطوائف الممتازة من القادة والزعماء والوسطاء ، مفضلون على من سواهم ، ويجب أن يعفوا من جميع التكاليف الاقتصادية والقانونية ، والخدم الاجتماعية .

أما المثل الأعلى للاجتماع فكان فى نظرهم ما هم عليه ، وإن كانوا أسرى للتقاليد ، وعُبّاداً للخيالات ، وصرعى للأباطيل ، يساقون سوق الأنعام إلى حيث لا يعلمون ، أو إلى حيث يعلمون ولا يريدون .

هذه الأصول التى تولى نشرها القرآن ، ويصلح كل منها أن يكون ثمرة لثورة

اجتماعية ، اجتمعت بين دفتى كتاب ، فتألفت منها روح إلهية قامت بها أمة ، ثم سرت فى أربعة أرجاء المعمور لا يصدها شىء ، لأنها مطلب الفطرة البشرية ، وسَكَن النفس الإنسانية ، ومُتَنَسَّم العواطف القلبية ، فلا عجب أن تبقى حية قوية حتى بعد أن أصاب جماعتها الوهْن ، وبَرَّح بها الفتور ، فهى حظ العالم كله لاحظ أمة واحدة منه .

وإذا شوهد أن هذه الروح تزداد على مدى الأيام فتاء وقوة ، فلأن كل تَرَقٍّ للإنسانية يظهرها ، ويجلى حقيقتها ، ويتولى إذاعتها ، فهى مما لا يعقل أن يضعف أو يزول بتمادى الأيام ، وكرّ الأعوام .

تعليل سرعة انتشار الإسلام :

إن السرعة التى انتشر بها الإسلام فى بيئات لا تعرف العربية ، وبدون دعوة منظمة ، قد حيرت مؤرخى العالم الغربى ، وهو حدث فى حد ذاته يوجب الحيرة ، لم يدون التاريخ له نظيرا فى حياة العالم كله . فالدين الموسوى لم يجاوز فى انتشاره أسرة إسرائيل ، ولا يزال فى الحدود التى كان عليها من لدن وجوده . والدين المسيحى بقى نحو ثلاثة قرون محصوراً فى طوائف مبعثرة ، لم تقم لها دولة ، إلى أن تولى الامبراطورية الرومانية كونستانتين الأول ، وكانت أمه قد ربته على الديانة المسيحية ، فحمل قومه على النصرانية ، وأمر بتحطيم الهياكل والمعابد الوثنية ، واعتبر النصرانية الديانية الرسمية للامبراطورية الرومانية (٢٧٤ – ٣٣٧) . من ذلك الحين قام النصارى بإرسال بعثات تبشيرية منظمة للبلاد القصية ، استعمل فيها الإجبار أحيانا . ولما اكتشفت أمريكا فى القرن الخامس عشر ، وجدت تلك البعثات مجالا فسيحا لدعوتها ، وخالفت فيها سماحة المسيحية مخالفة صارخة ، وقد دون مؤرخوهم كل ذلك تفصيلا مما لا موجب لنشره .

ولكن الإسلام الذى يحرّم مثل هذا الإجبار فى نصوص صريحة من كتابه : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ [1] ، ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ

---

(١) سورة البقرة (من الآية ٢٥٦) .

أَحْسَنُ ﴾ [١] ، و لم تكن له قط إدارة دعاية منظمة ، قد سرى إلى أقصى ما يمكن أن تسرى إليه دعوة ، وبلغ عدد أتباعه فى نحو قرن واحد أكثر من مائة مليون نسمة ، ثم استمر تياره فى السرعة حتى بلغ إلى ما هو عليه الآن ، مقاوما كل الدعايات السيئة التى تحاط بها سمعته ، ومتغلبا على جميع العقبات التى توضع فى طريقه ، مستمرا على ما هو عليه ، واثقا بقوته الذاتية ، ومحدّثا نفسه بأن سيكون ديانة العالم كله فى يوم من الأيام : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [٢] .

هذه الظواهر الغريبة لا يمكن تعليلها إلا بما ذكرناه ، من أن هذا الدين قد حمل إلى الناس روحا إلهيا ، فيه من قوة السريان ، وعظم السلطان ، ما لجميع الحقائق الخالدة .

اعتبر ذلك فى الأمم التى كانت تخالف العرب فى لغتها ، ومنها ما كان لها السلطان عليهم كالأمة الفارسية التى كان قد خضع لها العرب آمادا طويلة فى العراق واليمن . فإن هذه الأمة العريقة فى السؤدد والمدنية بعد هزيمتها فى وقعة القادسية تحت قيادة سعد بن أبى وقاص ، بدل أن تشتغل بدس الدسائس ، وتدبير المكائد ، وإشعال نار الفتنة فى كل مكان ، لإجلاء العرب عن بلادها إرضاء لأنفتها القومية ، أخذت تشتغل بالدخول فى الإسلام ، ونشره فى ربوعها ، وتعلم لغة المغير عليها وحذقها ، والتبحر فى علوم القرآن وفروعها ، فلم يمض عليها سنون معدودة ، حتى كان أقطاب الإسلام من رجالها ، وكانوا قد توزعوا ضروب البحوث النقلية والعقلية واللغوية ، حتى سأل السائلون : ماذا كان يحدث لو لم يتول الفرس والديلم والأجانب عن العربية هذه العلوم الإسلامية ؟

سبب تهافت الأمم على الدخول فى الإسلام :

لست أريد التوسع فى تفصيل هذه الإجمال ، فهو معروف مقرّر بين أهل

---

(١) سورة النحل (من الآية ١٢٥) .

(٢) سورة الأنفال (من الآية ٣٦) .

العلم ، ولكنى ألفت نظرهم لهذه الظاهرة النفسية المدهشة ، التى تدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء الأقوام تلقفوا مبادئ هذا الدين لِما آنسوا فيها أنها منزلة للإنسانية عامة ، لا لأمة خاصة ، وأن كتابها لم يذكر فى مخاطباته أمة باسمها القومى قط ، فلم يقل مرة واحدة : يأيها العرب ، ولكنه قال عشرات المرات : يأيها الناس ، ويأيها المؤمنون . ولِما رأوا أيضا أنّ فى الإسلام غذاء أرواحهم ، وشفاء قلوبهم ، وسكن عقولهم ، ومطمأن نفوسهم . وإنى لا أظن أنه يمكن سياقة برهان أقوى من هذه الظواهر ، على أن أصول هذا الدين ومبادئه كانت ولا تزال حاجة الجماعات الإنسانية .

ومما أعود فألفت النظر إليه ما ذكرته فى صدر هذه المقالة ، من أن أصول الإسلام ومبادئه لا تزال فيها قوة الاستمرار حتى بعد ضعف أهله ، وذبول دولته . وهذه أكثر تحييرا للعقل من سابقتها ، فإن الناس قد اعتادوا أن يفتتنوا بدين القوى ومذهبه وعاداته ، حتى أهوائه وأوهامه ووسأوسه وفسوقه ، بل بلاهاته وجنونياته ، واتفقوا على أن يتحولوا عن الضعيف وكل ما يتصل به من عقائد وعادات وتقاليد ، وأن يشنّعوا عليها ، ويتشاءموا منها ، وأن يتوقعوا كل سوء من الأخذ بها .

ولست أحيل القارئ من ذلك إلى أمر مستور ، فقد ثبت ثبوتا قاطعا حتى بشهادة دعاة الملل الأخرى ، أن دعاية الإسلام تنجح حيث تخيب جميع الدعايات الأخرى . فلو لاحظت أن البعثات التبشيرية تدعو إلى أديان الأمم القوية ، ذات المدنيات الفاتنة ، وقد حُكِّمت فى أموال طائلة ، تبذلها تألفا للناس وجذبا لمودتهم ، ولها دور فخمة يسكنها رجالها ، يؤوون فيها من يظهر الميل إليهم ، ويمدونه بالمأكل والمشرب والملبس ، ويختصونه بالحماية بين أهله ومعشره ؛ بينما لا توجد بعثة رسمية للإسلام ، اللهم إلا نفرا من التجار ، أو أفرادا من متسولة الدراويش ، يعيشون عالة على من يدعونهم ، ومع ذلك يتسارع الناس إلى الدخول فى ملتهم ، مفتونين بما يسمعونه منهم من أصول الإسلام ومبادئه . وهذه الحال كما تشاهد فى أفريقا ، تشاهد فى آسيا والاقيانوسية ، وكل مكان لا يكلف فيه الانتقال من دين إلى دين تأثيرا سيئا على الحالة الاقتصادية أو الاجتماعية كما هى عليه فى أوربا وأمريكا . فهذه الظاهرة ذات دلالة قوية جدا على أن أصول الإسلام ومبادئه قد جلبت للإنسانية خيرا لم يجلبه

دين قبله ، ولا أى نظام اجتماعى آخر . فإن الأقوام التى تسكن بلاد العرب وسورية وبلاد الفرس وبلاد ما وراء النهر إلى الصين ، كلها خرجت من وثنية منحطة ذات أصول جاهلية ، إلى دين هو أرقى ما يمكن أن يتصوره العقل ، نالوا بسببه مزايا اجتماعية وأدبية لا تحصى . فبعد أن كانت القبائل العربية لا تعرف الوحدة ، ولا تدين لغير القوة ، وكانت الحروب بينها دائمة التسعّر ، تآخت فى دين الله ، وسادها النظام ، ورحل كثير منها إلى الممالك التى فتحها الإسلام ، وساهمت فى بناء مجد المسلمين ، ورفع أعلام مدنيتهم الفاضلة .

أما الفرس فقد أعاد لهم الإسلام دولتهم وثقافتهم ووحدتهم ، فقد كانوا انتهوا فى أواخر عهدهم إلى مثل العهد الإقطاعى الذى أهلك أوربا قرونا طويلة ، فكان دخولهم فى الإسلام سببا فى رجوع وحدتهم إليهم ، وزوال أسباب التناحر من بينهم . وعادوا إلى أكمل مما كانوا عليه أيام مدنيتهم ، وكثر فيهم نبوغ الأئمة الدينيين ، والمؤلفين العلمين ، والكتاب والشعراء المبرزين .

أما الأمم التى وصل إليها الإسلام فى شمال بلاد الفرس وشرقها إلى الصين ، فقد أخرجها الإسلام من غيابة الخمول العقلى ، وصار يدوّن تاريخ الأدب من رجالاتها أسماء لا يزال يعترف العالم بفضلهم على العلوم والفنون والصنائع إلى اليوم .

ولا أحدّثك عن الأمم التى كانت لا تذكر فى تاريخ البشر ، إلا فى باب المستعمرات للأمم القوية فى الإسلام كأمم شمال أفريقا ، فقد تألفت فيها دول ، وقامت فيها مدنيات ، وسجلت لها اسما فى ديوان الجماعات التى ساهمت فى بناء المدنية .

أما مصر التى كان قد أحالها الاستعمار الرومانى إلى جثة مصبّرة ، كما عبر بذلك عنها الأستاذ جول لابوم ، فى مقدمة الفهرست الذى وضعه للقرآن الكريم ، فقد تنبهت من رقادها الطويل ، ونفضت عنها غبار خمولها المزمن ، وعادت أفضل مما كانت عليه فى عهد فراعنتها ، حتى كان من مؤسساتها ما بقى إلى اليوم قبلة أنظار مئات الملايين من البشر ، يقتبسون منه الدين واللغة ، وهو الأزهر المعمور .

ماذا أفاد الإسلام أهل أوربا من الناحية الأدبية ؟

يخيل إلىّ ، وقد انتهيت إلى هذا الحد ، أنك تريد أن تسألنى : وماذا أفاد

ظهور الإسلام أهل أوربا من الناحية الأدبية ؟ فأجيبك :

ظهر الإسلام فى القرن السابع للميلاد فى وقت كانت فيه أوربا فى ظلام حالك بشهادة المؤرخين الأوربيين ، فكان رجال الدين هنالك مستولين على السلطة الدنيوية فوق سلطتهم الروحية ، وقد حملهم تطرفهم فى حماية العقول من الشبهات الدينية التى تثيرها العلوم فى الصدور على إعلان أنها عدوة الدين ، فقاطعها الناس طائعين ومكرهين ، فنضبت ينابيعها ، وتصوحت أزاهيرها وأقوت مغانيها ، ولم يبق منها إلا ما تمس إليه الحاجة الساذجة .

وكان إذا سولت لإنسان نفسه أن يعيد النظر فيها ، أو أن يبنى رأيا على أصولها ، زُجَّ به فى أعماق السجون ، وعُذب واستتيب ، فإن أناب أطلق سراحه ، وإن أصر ألقى حيًّا فى النار !

ظهر الإسلام وأوربا من أدناها وأقصاها على هذه الحال ، فقفز بعض رجاله إلى أسبانيا فامتلكوها ، وكانت على مثال غيرها من الاستبداد فى الحكم ، والتضييق فى الدين ، فمضى المسلمون على سجيتهم فى تأسيس المدارس بها ، ونشر العلوم ، وبناء المستشفيات ، وإقامة المراصد ، وفتّح جامعاتهم لمن يقصدها من الطلاب ، غير ناظرين إلى أجناسهم ولا أديانهم ولا ألوانهم ، فتنوّر كثير من أهل الأقطار الأوربية فى مواد العلوم ، وقدم إليها طلاّب آخرون من بقية الممالك . وكان المسلمون قد امتلكوا أيضا جزيرة صقلية (سيسيليا) فى جنوب ايطاليا ، فجروا هنالك أيضا على عادتهم من نشر العلم ، وتشييد دوره ، فدخل إليها طلاب كثيرون من سكان تلك البقاع . فكان ذلك سببا مباشرا فى انتشار علوم المسلمين وآدابهم فى أوربا ، واندست معها أساليبهم فى التمحيص ، وأصولهم فى التدقيق ، فتنبهت هنالك عقول ، وفكرت فى مصيرها نفوس ، وأدركت حالتها قلوب ، فكان ذلك ، على قول الأوربيين ، سببا فى نهضة أوربا الحديثة .

فهل يمكن أن يثبت لنا إنسان ، بأن دينا من الأديان ، أو نظاما من النظم ، عم خيره الأرض ، ونالت كل أمة منه نصيبا مثل ما عمها من الإسلام ، إما مباشرة وإما بواسطة ؟

هذا ولم يتم الإسلام جولته العالمية بعد ، ولا تزال أمم فى الأرض لم تبلغها منه

دعوة ، وأمم قد ضُللت فيه تضليلا بعيدا ، ولكنه بما أودع من قوة وحق ، سيتغلب على هذه العقبات كلها حتى يسود العالم كله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

ربما استغرب باحث أن لا تؤثر أصول الإسلام على سمُوّها هذا فى العالم المتمدن ، كما أثرت فيما عداه ، والواقع أن العالم المتمدن الذى استعصى على الإسلام ، هو أعصى ما يكون على العلم نفسه ، الذى كان ثمرة من ثمرات رجاله ، فلا يزال الناس فيه يعيشون على الضد بما يوصى به قانون الصحة ، وما يتطلبه ناموس الأخلاق ، وما يتقاضاهم إياه علم الاجتماع ، وتصيبهم على ذلك المَثُلات فلا يرعَوُون ؛ فهل يصح أن يقال اعتمادا على هذا : إنهم سيستمرون على مُعاصاة الحقائق ؟ اللهم لا ، فلابد لهم من متاب ، يوم يحدث تطور أدبى جديد ، فيتغلب العقل على الهوى ، ومتى حدث ذلك ظهرت أصول الإسلام هنالك على أكمل ما هى عليه فى أية بقعة من بقاع الأرض ، وتم له الأمر ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (٢) .

وأنا لا أقول هذا لأن الإسلام دينى ودين قومى ، ولكن لأن الأصول التى يقوم عليها ، والمبادئ التى يدعو إليها ، هى النواميس الإلهية الخالدة التى اكتشفها الناس فى خلال العصور المتتابعة ، ودلت عليها العلوم اليقينية فى أدوار متوالية من الثورات الفكرية ، والانتقالات الأدبية .

إن ديننا يدعو إلى المثل الأعلى من الاجتماع ، وهو أن يتعارف الناس قاطبة ، ويعيشوا إخوانا متكافلين ، لا أعداء متناحرين ؛ وإلى نصب العقل ميزانا لتمييز الحسن من القبيح ، والحق من الباطل ؛ وإلى إدمان النظر والفكر ، وإعمال الروية والبصيرة فى اكتناه المجاهيل ، وتمحيص المعالم ، والبعد عن الظنون والأوهام ، واجتناب الخيالات والوساوس ، والاستماع إلى كل قول واتباع أحسنه ، وتصيد الحكمة حيث كانت ، والإحسان فى كل شيء ، وتطلب العلم من معادنه ، وعدم الوقوف منه

---

(١) سورة فصلت (من الآية ٥٣) .
(٢) سورة ص (الآية ٨٨) .

عند حد ، وعدم التقيد بأحوال الأمم السابقة ، والسير قُدُما إلى الغايات البعيدة ، والنهايات القاصية ، والتخلق بأخلاق الله فى سموها وإطلاقها ، والاتصاف بالمحامد والابتعاد عن السفاسف ، ومجانبة الظلم والانظلام ، والعدل المطلق حتى حيال الأعداء الألداء ، والدءوب على إصلاح العالم ، وعدم الإفساد فيه إلخ ، مما لا يمكن إحصاؤه ، وقد قامت الفلسفة بتفصيله فى الزمان الأخير ؛ قلت : إن ديننا يدعو إلى كل هذه الأصول على إطلاقها ، وفى غاية سموها ، لا يعقل أن يقف من انتشاره عند حدّ ، ولا أن يحال بينه وبين القلوب بصدّ ، ولله الأمر من قبل ومن بعد : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ [1] ، ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِل عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [2] [*] .

★ ★ ★

---

(١) سورة النساء (الآيتان ١٧٤ ، ١٧٥) .

(٢) سورة آل عمران (الآيتان ٨٣ ، ٨٤) .

(★) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الخامس ، جمادى الأولى سنة ١٣٥٨ هـ .

نفسية محمد ﷺ
قبل النبوة وبعدها

قلنا فى فصل مضى إن النبوة مرتبة روحية يستأهل بها صاحبها أن يتلقى العلم عن الله بدون وساطة العقل والحواس على ضروب شتى ، ويسمى هذا التلقّى وحيا . وقلنا إن الوحى رغما عما يثيره ضده الماديون مشاهد محسوس فى العالم الحيوانى لا يستطاع تجاهله ، ولا قيمة لما علل به أولئك الماديون هذا الوحى الحيوانى ، كما أثبتنا ذلك بكل حجة . ثم ألممنا بما كشفه العلم من التنويم المغناطيسى ، وما تجلى فيه من وجود شخصية باطنية للإنسان أرقى من شخصيته العادية ، ليس للإنسان بها أقل علم ، وما ثبت من وجود أفراد من كبار الرجال شهدوا أنهم كثيرا ما هدوا إلى حلول نظرياتهم العويصة فجأة بدون إجالة نظر ، أو أنهم يسمعون بآذانهم ما يجب أن يكتبوه ، أو يرون بأعينهم ما يجب أن يؤلفوه إلخ . ثم ختمنا ذلك بقولنا :

« هذه مشاهدات محسوسة وأقوال مأثورة عن كبار العلماء والمؤلفين ، ساقها الأستاذ الكبير (هـ . و . ميرس) لإثبات وجود عقل باطنى فى الإنسان له اتصالات روحانية فى عالم فوق هذا العالم ، وأنا لا أريد أن أثبت بما أنقله أن النبوة عبقرية ، أو هى من نوع الحوادث التى سردناها هنا ، ولكنا سقنا ما سقناه للتدليل على أمرين عظيمين : أولهما وجود الهداية والتعليم بدون وساطة العقل العادى والحواس ، وثانيهما وجود اتصالات روحانية باطنية تمد الإنسان بعلمٍ ، وتسعفه بهدايةٍ من غير طريق العقل العادى ، ولا من منافذ الحواس الخمس إلخ » .

واليوم أعالج موضوعا آخر أخصّ من كل ما تقدم ، وهو نبوة محمد بن عبد الله ﷺ ، فأدرس أولا الأدوار التى سبقت عنده الوحى ، ثم أتبعها بأدلة صدقه ، متوخيا فى ذلك الأسلوب الذى تعهدت بالجرى عليه ، وهو الأسلوب المتفق عليه فى الزمان الأخير فى تحقيق مسائل العلم .

كيف بدأ محمد معيشته كفرد فى القبيلة التى أنجبته :

ولد محمد فى سنة ٥٧١ للميلاد فى أشرف قبيلة عربية وهى قريش ،

ومن أكرم أسرة فيها وهى أسرة بنى هاشم . فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم . وأمه آمنة بنت وهب وهى قرشية أيضا .

توفى والده عبد الله ومحمد جنين فى بطن أمه لشهرين مضيا من الحمل به . وولد فى دار عمه أبى طالب ، وأسماه جده عبد المطلب محمداً . فلما بلغت سنه الرابعة أو أكثر توفيت والدته ، فكفله جده عبد المطلب وكان سيد قريش ، ولم يلبث أن توفى ، فكفل محمدا عمه أبو طالب وعمره ثمان سنين .

ولما بلغت سنه اثنتى عشرة سنة بدا لعمه سفر إلى الشام للتجارة فاستصحبه معه .

ولما بلغت سنه العشرين حضر مع قومه حرب الفجار ضد بنى قيس .

وكان كسب محمد منذ ألقى على عاتقه أن يمون نفسه ، من رعاية الغنم لأصحابها على قراريط يأخذها .

ولما بلغت سنه الخامسة والعشرين دعته سيدة ذات مال تدعى خديجة بنت خويلد ليسافر إلى الشام فى تجارة لها ، وكانت تستأجر الرجال لهذا الغرض ، فسافر محمد بن عبد الله إلى ذلك الإقليم مع غلام لها اسمه ميسرة ، فباع واشترى وأربحها ربحا عظيما ، فوجدت فيه الرجل القوى الأمين ، فخطبته لنفسها فتزوجها ، وكانت تناهز الأربعين ، اشتهرت بالعقل والتصون . فصار محمد يعمل فى مالها حتى دعى للرسالة .

واتفق وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره أن حدث سيل جارف انصدعت منه جدران الكعبة ، وكانت وهنت من حريق كان أصابها قبل ذلك ، فرأت قريش أن تهدمها وتعيد بناءها ، فكان أشرافهم وكبراؤهم يحملون الحجارة على أكتافهم تبركا بالعمل لإقامتها ، وكان منهم العباس بن عبد المطلب وابن أخيه محمد بن عبد الله .

ولما جاء وقت وضع الحجر الأسود مكانه تنافس أشراف قريش فى وضعه ، واختلفوا حتى كادت تشب بينهم حرب من أجله . فأشار عليهم أمية بن المغيرة

المخزومى أن يحكموا رجلا منهم يرضون حكومته . فقالوا نكل أمر الحكم لأول داخل علينا . فكان ذلك الأول محمداً ، فأخبروه الخبر ، فبسط رداءه ووضع فيه الحجر ، وقال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، فرفعوه على هذا النحو حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه هو ووضعه فيه .

نفسية محمد قبل النبوة وبعدها :

لم يشتهر محمد بن عبدالله قبل مبعثه ، ما عدا الاستقامة الخلقية ، بشىء من المميزات اللسانية والثقافية ، فلم يكن بالشاعر الذى يرنن أوتار القلوب ، ولا بالخطيب الذى يختلب أهواء النفوس ، ولا بالعالم الذى يستهوى شهوات العقول ، ولا بالفارس الذى يلجأ إليه فى حماية الحوزة إذا جد الجد فى حربٍ زَبُون . ولم يعرف بشىء مما كان العرب يعولون عليه فى منازعاتهم ومكاثراتهم ومماتناتهم [1] ومنافراتهم ، فلم يعيَّن مرّةً ، بعد تشاور ، قاضيا فى نزاع ، ولا فيصلا فى خلاف ، ولا مرجعا فى مجهول ، ولا حكما فى منافرة .

لقد كان لدى العرب رجال يلوذون بهم فى المهام التى تطرأ عليهم مناسبة لحياتهم القبيلية . فكان لديهم قَافَةٌ يتتبعون بهم أثر الجناة ، ونسّابون يصعدون بالمرء إلى أُرُومته الأولى ، ومُتَطَبِّبة يلتمسون عندهم العلاج ، ورُواة يرجعون إليهم فى الشعر والكلام البليغ ، ومحكّمون يعوذون بهم فى المنازعات ، وكهّان يعتقدون فيهم الاتصال بالروحانيات ، فكانوا يسألونهم عن الغيوب ، ولم يكن محمد فى شىء من هذه الخطط كلها ، فعاش بين قومه لا يلفت لأحدهم نظرا ، ولا يستهوى بمظهره العادى لبًّا .

اشتغل فى طفولته راعياً فلم يَمْتَزْ عن زملائه فى شىء غير استقامة سيرته ، وكرم شمائله ، وبعده عن السفاسف . فلما كبر اشتغل بالتجارة فكان كأوسط أهلها لم يَبُزَّ أمثاله فى شىء غير أمانته فى الأداء ، وعدالته فى المعارضة .

كل إنسان كتب له النبوغ فى عمل من الأعمال يظهر عليه ميل إليه فى طفولته ، فمن قدّر له أن يكون شاعراً أو كاتباً أو خطيباً أو حكيما أو قائداً نمّت

---

(١) ماتنه : باراه وغالبه ، وبينهما مُمَاتنة أى مباراة .

فطرته عليه فبدرت منه ، وهو طفل ، ما يدل على ما سينبغ فيه ، ولم يظهر على محمد بن عبد الله ما يدل على ما سيؤل إليه غير مَيْلٍ كان فيه إلى السكينة والتفكير ، وكلما تقدمت به السن ازدادت حاجته إليهما حتى تأدى به ذلك إلى تمضية أيام بلياليها فى غار بقرب مكة يقال له حِراء ، فكان يمضى فيه تارة ثلاثة أيام وتارة سبعة وتارة تسعة وتارة شهرا ، يمكث فيه وحده متفكرا متدبرا .

هذه هى الصفة التى ميزت محمد بن عبدالله عن غيره من أهل جيله ، وهى صفة لا يجوز أن تغفل أو أن يمر بها مَرًّا ، لأنها مظهر ما استتر فى سويداء نفسيته من النزوع إلى أفق الروح ، والاتصال بعالم الملأ الأعلى ، وما لازمت هذه الصفة نفساً بشرية إلا وجهتها هذا التوجيه الروحى على قدر ما فيها من قوة . ولقد كانت هده الصفة مستوعبة شعور محمد استيعاباً لا يدع لغيرها مكانا فيه ، بدليل لجوئه إلى غار موحش أياماً وليالِىَ متوالية يمضيها فى التفكير وتلمس المخرج من الحيرة . منْ أىّ ضَرْبٍ كانت هده الحيرة ؟ من الضرب الذى يشعل بال الكَمَلة من أصحاب القلوب ، والبَرَرَة من أولى العزم : تخليص النفس من ظلمات المادة وتخليص الغير منها .

ونحن إذا كنا نجهل محامد محمد قبل النبوة لقلة اكتراث الناس له ، وعدم أَبْهِهِم [١] به ، فإننا نستطيع أن نعرفها بما عرف عنه بعد النبوة والتفاف الناس حوله ، ونقلهم عنه كل شاردة وواردة من أعماله وأخلاقه . والحكم على ما كان عليه إنسان من أحوال وآداب فى أول أدواره ، بما عرف عنه منها بعد وصوله إلى قمة المجد ، وبلوغه غاية مرامه ، يكاد لا يعلو الحق ، فإن المعهود عادة أن الإنسان قد يطغيه النجاح ، ويفسد قلبه الفُلْج ، فيصبح جبارا عنيداً بعد أن كان وادعا متواضعا ، ولا عكس . فكل ما دُوِّن عن محمد ﷺ ، بعد مبعثه من شمائل وآداب كانت لا شك له وهو فى ميعة الصبا وعدم استكمال سن النبوة .

وقد دُوِّن من شمائله أنه كان وادعا متواضعا ، هينا لينا ، يلقى أصحابه هاشّا

---

(١) أَبه للشىء وبه أَبْهاً : فطن له وتنبّه .

باشًا ، لا يترفع عليهم ، بل يؤثرهم على نفسه ، ولا يسمح لهم بتعظيمه وتقبيل يده ، وقد عاش طول حياته متقشفا مُخْشَوْشِنا ، لم يشبع من خبز الشعير الذى كان يفضله على غيره . وقد بقى متّصفا بهذه الفضائل حتى اختاره الله لجواره .

قال الحسن بن على رضى الله عنه : سألت هند بن أبى هالة ، وكان وَصّافا ، فقلت صف لى منطق رسول الله ﷺ ، قال :

« كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السّكْت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه باسم الله تعالى ، ويتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل لا فضول فيه ولا تقصير ، ليس بالجافى ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئا غير أنه لم يكن يذمّ ذَوَاقاً (أى طعم شىء) ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تُعُدِّى الحق لم يقم لغضبه شىء ، (أى لم يقم لدفع غضبه شىء) حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غضّ طرفه ، جُلُّ ضحكه التبسم ، يفترّ عن مثل حَبِّ الغَمام » .

إن هذه النفس الحائرة الثائرة ، التى لم تجد فى العالم المحسوس ما تعوّل عليه ، وتركن إليه ، فأخذت تلتمس بِلَال غلّتها ، وسَكَن جيشانها ، فى عزلة الكهوف ، وظلمة المغاور ، وهى محرومة من ملاذ المطاعم والمشارب ، ومتع المكاسب والمآرب ، لهى نفس لم تطبع على غرار هذه النفوس العادية ، ولا تشغلها من المطامع والمطامح ما يشغلها فى محاولاتها اليومية . وإلا فماذا كان ينقص محمدا بعد أن بلغ مبلغ الرجال ، وأصبح له زوجة وأطفال ، وعمل شريف يتكسب منه ، حتى يؤثر على لذات الحياة البيتية ، ومتع المحاولات الاجتماعية فى سن استكمال القوة ، واستتمام الفتوة ، حياةَ الانقطاع عن الناس ، وتجنُّب معاملتهم فى الفترات التى تسمح له بها أعماله المادية ؟ أكان يتطلع من وراء هذا التزهد لزيادة موارده المادية ، وتحقيق مطامعه الاجتماعية ؟ إن تحقيق هذين المطلبين لا يكون إلا فى الأسواق العامة ، حيث يكتظ الباعة والشارون ، وفى المجامع والأندية حيث يجتمع العقلاء ويتشاورون ، لا كِسر غارٍ على رأس جبل لا يرقى إليه الطير .

لم تكن البيئة العربية بالبيئة التى تحفل بالمسائل الروحية وتعظم مدعى تمثيلها بين الناس ، فلم يكن فيهم مُتَبَتِّلة ولا متزهِّدة يعظمهم الناس ويتلمسون بدعائهم البركات ، ولا عباد انقطعوا للعبادة فى الصوامع على نحو ماكان عليه أهل الكتاب ، وكل ما كان لديهم من هذا القبيل كهان بدعون الاتصال بالجان ، وما كان لهم من كبير شأن عند العرب حتى يطمع امرؤ فى أن يعد من زُمْرتهم .

هنا يحار الفيلسوف فى تعليل لجوء محمد بن عبد الله ، وقد مهد له طريق الحياة ، إلى غار يمضى فيه أياما كثيرة ، فى بيئة مادية محضة ، ليس فيها ما يغرى بالانقطاع للعبادة ولا بالتفرغ للتفكير .

ماذا كان يريد محمد بن عبد الله من وراء هذه العزلة الشاقة ، والعناء الكبير ؟ لا تجد الفلسفة إلا جوابا واحدا ، وهو أنه كان نافرا مما عليه قومه من الضلال البعيد ، كارها أن يشاطرهم هذه الحياة الحيوانية ، فلم ير إلا أن يلجأ للتفكير طلبا للهداية إلى سواء السبيل . مطلب بعيد ، ولكن القلوب الكبيرة تُلْهَم أنها مستقر أسرار خطيرة ، ومستودع أنوار يرتد عنها الطرف وهو حسير ، فلتجأ إلى ذاتها تستثير قواها الكائنة ، وتستجش مساتيرها الثاوية فى سويداء معناها الصميم .

هذه كانت بداية كل نابغة كبير ، وكل مصلح عظيم .

ولكن فيلسوفنا لا يكاد ينتهى إلى هذه الحقيقة ويفرح بها حتى يعترضه أمر خطير : وهو أن محمدا لم يخرج من غاره نابغة كبيرا ، ولا مصلحا عظيما ، ولكنه خرج خائفا ترتعد فرائصه ، فلجأ إلى داره وهو يقول لأهله : زَمِّلونى زملونى ، أى دثّرونى دثرونى ، فقد كان يشعر ببرد شديد من هول ما ظهر له من الشأن المهول .

هنا يعترف الفيلسوف بالعجز عن فهم ما حدث لمحمد ، ويترك مكانه للبسيكولوجى الخبير . فيتساءل هذا : ما الذى أصاب محمدا حتى اعتراه هذا الذعر الشديد ؟ فيعلم أنه لما خرج من الغار خائفا أتى أهله فقال لهم : ظهر لى شخص وقال لى : أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول إلى هذه الأمة ، ثم قال لى اقرأ . فقلت له ما أنا بقارئ ، (أى إنى أمى لا أعرف القراءة) ، وكنت نائما على نَمَطٍ

(وهو نوع من البُسُط) فغطّنى به (أى غمّه به بأن جعله على فمه وأنفه) حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال اقرأ . فقلت ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطّنى ثانية ثم أرسلنى ، ثم قال اقرأ . فقلت ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلني ، وقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، إقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [١] ، فقرأتها وانصرف عنى وقد استقر ذلك فى قلبى .

ثم يعلم ذلك البسيكولوجى أن ذلك الشخص لم يظهر لمحمد ثانية إلا بعد أربعين يوما وقد يئس من عَوْده . فبينما هو يمشى يوما إذ سمع صوتا من السماء فرفع إليه بصره ، فإذا هو الشخص الذى جاءه بالغار جالس بين السماء والأرض . فرجع إلى أهله وهو يرتعد رعبا وقال لهم : (دثرونى دثرونى) أى أدفئونى . فأنزل الله عليه : ﴿ يَٰأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ، وَلَاتَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ، وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [٢] إلى آخر السورة . فصدع بأمر ربه وقام بعد أن هدأ روعه يدعو إلى الإسلام سرا ثم أُمِر باعلان الدعوة فأعلنها ، وما زال جاداً فيما هو بسبيله حتى دانت له الأمة العربية قاطبة و لم تَدِن لأحد قبله .

ولكن البسيكولوجى لا يعتد بهذا الفلج كله ، ولا يهمه أمره ، والذى يعنيه هو أن يتحقق ذلك الشخص الذى كان يظهر لمحمد ويكلمه أهو صورة ذهنية أم حقيقة لها وجود فى الخارج ؟ لأنه يعلم أن ضروبا من الأمراض العصبية وخصوصا الهستيريا تظهر للمريض بها أشباحا لا حقيقة لها .

نعم إن الصور الهستيرية لا نتيجة لها غير إزعاج المريض وإقلاق راحته ، والتأدّى به إلى الجنون أو ما يشبهه ، ولكن الصورة التى كانت تظهر لمحمد كانت تهديه للخير ، وتقيمه على الصراط ، وتمده بما يجب أن يقوله لأمته ليهديها إلى سواء السبيل ، وقد تم لها ما أرادت .

---

(١) سورة العلق : الآيات (١ – ٥) .

(٢) سورة المدثر : الآيات (١ – ٧) .

يرى البسيكولوجى هذا الفرق كله ولكنه لا ييأس من تعليله ، فيذهب فكره إلى الشبح الروحانى الذى كان يظهر لسقراط ، ولا يرحل إلى أشباح أخرى ظهرت ولا تزال تظهر للكثيرين ، لأن شبح سقراط مُجْمَع على صحّته بشهادة جميع تلاميذ هذا الفيلسوف ومنهم أفلاطون وأكسينوفون . والمعروف عن شبح سقراط أنه كان يظهر له ويُفْضى إليه بما يجب أن يقوله أو يعمله ، وكثيرا ما أفضى إليه بأمور مستقبلة وأخبر بها تلاميذه ووقعت . وسقراط هذا يعتبر إمام الفلسفة اليونانية ، وقد رفعه بعض المؤرخين إلى درجة النبوة لنبله وفضله واستقامته .

وفيما نحن بسبيله من أمر محمد ﷺ لا يلبث البسيكولوجى أن يعتقد بمَلَك محمد أكثر من اعتقاده بالشبح الروحانى لسقراط (أولا) لا نتفاء افتراض الهستيريا فى خاتم السبيين كما تقدم ، (ثانيا) لثبوت تحقق أمور غيبية كثيرة أفضى بها الملك إلى محمد مثل قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [١] ، وقوله : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [٣] ، وقوله : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ (أى سقف بيته) ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ؟ ﴾ [٤] . وأجل من ذلك كله قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [٥] .

متى آنس صاحبنا البسيكولوجى كل هذا قرر أن مَلَك محمد ﷺ كان أكثر

---

(١) سورة القمر ، الآيتان (٤٤ ، ٤٥)
(٢) سورة آل عمران ، الآية (١١١) .
(٣) سولأة غافر ، الآية (٥١) .
(٤) سورة الحج ، الآية (١٥) .
(٥) سورة النور ، الآية (٥٥) .

ثبوتا من الشبح الروحانى لسقراط ، وأجلّ أثرا منه ، ولكنه لا يزال يشك فى كنهه هل كان له وجود خارجى أم هو صورة ذهنية لمحمد أوجدها عقله الباطنى ؟ لذلك تراه يعمل على استيعاب جميع مراتب الوحى فى أثناء نزول القرءان :

(فأولها) الرؤيا الصادقة فى النوم .

و(ثانيها) ما كان يلقيه الملك فى صدره من غير أن يراه .

و(ثالثها) خطاب الملك له عندما كان يتمثل له بشراً سويا .

و(رابعها) رؤيته جبريل فى صورته الروحانية فيأخذ عنه .

و(خامسها) ما كان يلقى إليه بصوت مثل صلصلة الجرس ، وكان هذا النوع أشده عليه فإن جبينه ﷺ كان يتفصد فى أثنائه عرقا فى اليوم الشديد البرد . وإذا اتفق حصوله وهو راكب بركت ناقته على الأرض ، وحدث مرة أن نزل عليه الوحى على هذا الضرب وفخذه فوق فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليها حتى كادت ترضها . وقد شوهد أنه كان إذا أوحى إليه على هذا النوع أصابته رعدة وكرب ، وتربّد وجهه ، وغمضت عيناه ، وربما غطّ كغطيط البَكْر (أى الفتىّ من الأبل) .

كل هذا لا يحمل البسيكولوجى العصرى على القول باستقلال جبريل عن شخصية محمد الباطنة ولا يزال يجد نفسه متأثرا بالشبهة التى مؤداهاأن نبوته يمكن تعليلها بالأعراض الهستيرية . فيرى نفسه مضطرا لأن يتأمل فيما كان يتأثر به من الأعراض عند نزول الوحى عليه ، فيجد ما يأتى :

(١) أن محمدا لم تكن تظهر عليه أعراض عند نزول الوحى عليه إلا عندما كان يلقى إليه بصوت يشبه صلصلة الجرس .

(٢) أن الهذيان الهستيرى لا يحدث إلا مصحوبا بأعراض ثقيلة من التخبط والاضطراب والصياح والعويل ، وهو ما لم يحصل قط لمحمد حتى فى أثقل حالات الوحى عليه .

(٣) أن ما يسب للهستيريا من الهذيان يحدث فى أثناء النوبة ، فإذا أفاق المريض لم يذكر شيئا مما قاله . وهذا على عكس حالة محمد فقد كان لا ينطق فى أثناء الوحى بشيء حتى يتم ، فيعيد كل ما ألقى إليه ويأمر بتدوينه . وقد كان ، حرصا منه على استظهار ما كان يلقى إليه ، يعيده بلسانه أو يحرك به شفتيه ، فنهاه

الحق عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ [١] ، وقوله ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [٢] ، أى إن علينا جمعه فى صدرك فلا تخش أن يفلت منك ، فإذا قرأه عليك الملك فأنصت إليه وتتبع قراءته .

(٤) أن مواضيع الهذيانات الهستيرية ، لا تخرج عادة عن تصورات وهمية تناسب الأعصاب المتعبة المريضة ، كتخيل المريض رؤية روح شرير يتوعده بالأذى ، أو يتقصده بالقتل ، أو يقلقه بالاستهزاء والتحقير ، ولم يشاهد هذيان هستيرى قط موضوعه نشر فضيلة ، أو إذاعة هداية ، أو الدلالة على مصلحة ، وأنت خبير بأن موضوع الوحى الذى كان يتلقاه محمد ﷺ كان أكبر شأنا من كل ما اشتغل به العالم الإنسانى وهو إذاعة الدين الأول الذى أوحاه الله إلى المرسلين الأولين ، خالصا من جميع الأوهام البشرية التى ألصقها به قادة الأمم بَغْياً بينهم ، وعدوانا على الحقيقة ، وكان ذلك بقصد إصلاح عام للأديان والمعتقدات ندب الحق للقيام بهذه المهمة محمدا ﷺ على فَتْرةٍ من الرسل . هذا عدا عما استتبع هذا الإصلاح العام من دعوة الأمم للتعارف والتآخى ، والإفضاء إليهم بالأصول الأولية للشريعة العادلة ، والأخلاق الفاضلة ، والمدنية الكاملة ، مما يتفق الناس قاطبة على صحته ، ولا يجدون فى أنفسهم حرجا من ناحيته . وقد أثرت هذه الدعوة فسرت بين الأمم سريان البرق ، ومهدت الطريق لأصحابها للحصول على زعامة الأرض ، ولا تزال تبهر العلماء بآياتها ، وتسحر الألباب ببيّناتها ، وتفتح القلوب بأدلتها ، حتى قرر أهل البصر أن مآل الناس قاطبة إلى حظيرتها . فإذا كان هذا كله أثر هذيانات هستيرية ، ونُوَب مرضية ، فماذا أبقيت بعد هذا للوحى السماوى ، والفيض الإلهى ، والإشراقات العلوية ، والاتصالات الروحانية .

---

(١) سورة طه ، من الآية (١١٤) .

(٢) سورة القيامة ، الآيات (١٦ – ١٩) .

هنا لا يتمالك البسيكولوجى نفسه فيخر ساجدا لله وهو يقول :

اللهم ما أقوى سلطانك ، وأسطع برهانك ، أمّى فى أقصى بيئة عن العمران ، وأبعد مكان عن معترك العقول ، ومضطرب النظريات والمبادئ ، وبين ظهرانَىْ أقوام لم يألفوا النظام ، ولم يأنسوا بالوحدة ، مضطرين إلى ذلك بفواعل الطبيعة المحيطة بهم ، وعوامل الحياة القاهرة لهم ، يَنتدب أن يكون رسولا للناس كافة فيدعوهم للكلمة الجامعة بينهم ، والطريقة اللّامَّة لشعثهم ، ملوحا لهم بالأصول الحكيمة لتحقيق هذا المطلب الذى لم يطف بخيال فيلسوف ولا مصلح قبله ، مدللا على إمكانه بالأدلة القاطعة ، والأمثال الساطعة ، وضاربا لهم المثل العملى بالقيام بتأليف أمة عالمية ليس فيها ظل من نعرة القومية ، ولا عصبية الجنسية ، ولا مانع من الاختلافات اللغوية واللونية ، وبتوزيع العدالة وجميع الحقوق المدنية بين الكافة بالسوية ؛ أمة خالصة من جميع علل الاجتماع ، كالطوائف المتفاوتة الحقوق ، والطبقات المتنافرة الاختصاصات ، والشخصيات المتوارثة الألقاب ؛ أمة كل ما فيها حق للكافة على السواء ، والكافة وحدة لا تقبل الانفصام ، يسودها قانون أصوله الحقوق الطبيعية ، ومادته المبادئ الأولية الخالدة التى لا يعتريها تبدل ، ولا يتحيفها انخرام ؛ أمة رأس مالها المعرفة ، وأصل دينها العقل ، وسلاحها العلم ، ووجهتها الحكمة ، وغايتها المثل الأعلى فى الحياة .

أُمّىٌّ فى أقصى بيئة عن العمران ، وأبعد مكان عن معترك العقول ، وعن مضطرب النظريات والمبادئ ، يأتى بكل ما ذكرت على وجه لا مجال للشك فيه ، وبنصوص صريحة لا تحتمل الصرف ولا التأويل ، لا يعقل أن يكون كل هذا من عنده ، ولابد أن يكون قد تلقاه من عالم علوى لا من هذا العالم الأرضى . لأن هذه التعاليم التى أتى بها محمد خاصة بالأفراد والجماعات والنظم والدستور ، أرقى من أية فلسفة نقلت لنا عن الأقدمين ، وأرقى من جموعها متضافرة متساندة ، وكثير من أصولها سبقت زمانها الطبيعى بعدة قرون ، وبعضها بعد أن وُلدت مسبوقة بعدة قرون لا تزال لدى أهلها حلما من الأحلام ، ومن العجيب أن موحى هذه التعاليم يقرر أنها قد سبقت أوانها ، وأنها ستوجد من طريق النظر بعد زمان طويل ، فيُعرف

فضل الكتاب الذى أتى بها فقال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [١] ، وقال : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [٢] .

أى دليل على الوحى أقوى من هذا الدليل ؟ [*] .

★ ★ ★

---

(١) سورة فصلت ، من الآية (٥٣)

(٢) سورة ص ، الآية (٨٨)

(★) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء السادس ، جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ هـ

مهمّة خاتم المرسلين محمد ﷺ

نشرنا فى الأعداد السابقة بحوثا فى ماهية الوحى وفى إمكانه ، بل وجوده بالفعل فى عالم الطبيعة مشاهدا محسوسا ، وفى أن محمدا ﷺ كان واحدا من الذين شرفهم الله بوحيه ورسالته بعد عيسى عليه السلام بنحو ستة قرون ، واليوم نبحث فى ماهية المهمة التى كُلِّف بها محمد ﷺ .

المعروف من الإسلام بنصوص محكمة لا تقبل التأويل ، أن رسالة محمد عامة للناس كافة ؛ وأنه أرسل بالدين الأول الذى أنزله الله إلى المرسلين قاطبة ، خالصاً مما شابَهُ به المحرِّفون ، وما ألحقه به الشارحون والمؤوِّلون ؛

وأن هذا الدين هو ما تدعو إليه الفطرة الإنسانية ، ويمكن أن يتفق عليه البشر كلهم ، فتصبح ديانتهم واحدة ، وجماعتهم واحدة ، لا طفرة ، ولكن بعد أدوار من التطور تحفزهم إلى هذا الموقف حفزاً طبيعيا ، تحت تأثير العلم والحكمة ، والمَثُلات العالمية المربية ؛

وأن الإسلام مجموع من أصول ومبادئ هى المثل العليا التى تتطلبها النفس البشرية ، وتترامى عليها بمجرد إدراكها ، متى خلصت من سطوة الأوهام الوراثية ، وتملصت من سلطة الوساوس التقليدية ؛

وأن محمدا ﷺ هو خاتم المرسلين ، به انتهى دور النبوة ، وانقضى عهد الوحى ؛

وأنه قد عُهِد بعده إلى العلم والعقل أن يقوما على حراسة هذا الذخر الإلهى من عبث العابثين ، وعنت المتنطعين ، وأن يعملا على إزالة العراقيل دون انتشاره ، ويمهدا السبيل لإبلاغه غاية سلطانه .

هذه أمور خطيرة أعلنها الإسلام وعمل على تحقيقها ، ولم تكن تدور بخلد أحد من العالمين حتى أئمة الفلسفة أنفسهم ، إذ لم يكن يبحث أحد فى إمكان وجود رسالة عامة للبشر كافة ، ولم يكن يعرف إنسان أن الله أوحى لجميع المرسلين دينا

واحدا ، ولا أن التخالف فى الأديان إنما حدث بسبب تحريف قادتها لما أنزل إليهم منها . ولم يكن يتخيل مصلح أن هذه الأديان المتخالفة كلها يمكن توحيدها بإرجاعها إلى أصلها الأول ، فيصبح بذلك للأمم قاطبة دين واحد ؛ ولا أن هذه الأمم ذات القوميات المتباينة ، والمصالح المتعاكسة يمكن أن تتوحد ويكون لها وجهة مشتركة ، باعتبار أن توحدها أوْفى بمصالحها ، وأدعى لزيادة رفاهتها .

ولم يكن فى الأرض من يتصور المثل العليا فى الأصول ، ولا أن فى الفطرة البشرية عوامل تحفز النفوس إليها تحت تأثير المثلات العالمية ، والتفاعلات الاجتماعية .

ولم يبحث أهل الأديان قبل الإسلام فى مدى سطوة الأوهام الوراثية بالعقول ، وتأثير الوساوس التقليدية فى القلوب .

كل هذا لم يكن يتردد فى العقلية الدينية قبل ظهور الإسلام ، ولم يكن أقطاب الفلسفة يهتمون بذلك من الوجهة الدينية ، فقد كان رجال الدين منتبذين ناحية لا يسمحون لأحد أن يغشاهم فيها إلا لتأدية العبادة لهم ، ولما أقاموه من التماثيل والنُّصُب حولهم ، أما التفاهم معهم على أصل ، أو محادلتهم فيه ، فإن ذلك كان جزاؤه الإحراق بالنار ، أو على القليل كارثة لا يتعش منها أبدا وإن تاب .

ولما كانت كل هذه الشئون ، لو جاءت بها نصوص كتابية صريحة ، تكشف عن أكبر تطور دينى عرفه البشر منذ وجد إلى اليوم ، وتدخل المسألة الدينية فى صميم الظواهر الاجتماعية التى تماشى المنطق العلمى ، وتساير ناموس التطور الطبيعى ، ويكون انتهاء العالم إليها ضربة لازب ، فإن التدليل على قيام الإسلام عليها بالنصوص الكتابية الصريحة لا من طريق التأويل ، يحول الأنظار إلى الإسلام تحويلا لا يأتى من أى طريق آخر ، ويعتبر أقوى دليل على نبوة محمد ﷺ ، لأن عقلاً بشريًا قبل نحو ألف وثلاثمائة سنة ، وفى بيئة لا تنجب مثل هذه المبادئ ، لا يقوى على تصور كل هذه الشئون العظيمة ، وينجح فى إقناع جمهور كبير بصحتها ، ثم يحمله على التكيف بها والعمل لسيادتها ، باذلاً حياته فى سبيلها ، بحيث يؤدى ذلك إلى قبول أمم عظيمة لها ، ودعوتهم العالم كله إليها .

بناء على هذه الاعتبارات يصبح مما لا يقبل الجدل أن مهمة محمد ﷺ هى أن يحمل للبشرية كلها دينا عاما ، قائما على أصول طبيعية لا يتأتى هدمها ،

بل لا يمكن الشك في أصالتها ، وفي اتجاه كل المحاولات العلمية والفلسفية إلى الحمل عليها ، مصداقاً لوعده تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟ ﴾ (١) .

تنازع أصحاب الأديان لقب الدين العام :

إن قوله تعالى في القرآن : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ (٣) ، لا يدع مجالاً للشك في أن الإسلام أُنزل ليكون دينا عاما للبشرية كافة ، وقد قام محمد ﷺ بابلاغ قادة الأمم ذلك بكتب أرسلها إليهم يحملها رسل من قبله .

ولكن رجال الديانة الإسرائيلية والنصرانية ينازعون الإسلام هذا الحق ويدعون أن دينَيْهم سَبَقا الإسلام إلى هذه المهمة العليا ، فلننظر أَلَهُم حقّ في هذه الدعوى ، أم هي مجرد غيرة متطرفة منهم على دينَيْهم ، حملتهم على أن يضعوهما حيث لا تقوى أصولهما على تَبوئتهما هذه المكانة ، وتمكينهما فيها ؟

فأما الإسرائيلية فلا نصّ فيها على أنها هي الديانة العامة التي شرعها الله للناس كافة ، وكل ما فيها أن رجالا من أحبارها استفادوا مما جاء في القرآن عن الإسلام ، فأرادوا أن توصف بهذا الوصف ديانتهم ، فنحلوها من المهام ما لم تساعدهم على فهمهم هذا آية واحدة من كتابهم ، على حين أنه حافل بما يدل على أنها ديانة أسرة بشرية واحدة ، هي بنو إسرائيل دون سواهم ، وكل ما جاء فيها خاص بها وبمصالحها وبقوميتها وتقاليدها ، دون نظر لاعتبار آخر ، حتى إنه ليست لليهود دعوة إلى دينهم ، بل إنهم يكرهون أن يَصْبَأ إليه من ليس من أسرتهم . فمن تقاليدها أنهم إذا تقدم إليهم راغب في ملتهم ، تلطفوا في رده ببيان ما في ديانتهم من التكاليف التي تشق عليه وما ينتظره فيها من

---

(١) سورة فصلت ، الآية (٥٣) .

(٢) سورة سبأ ، الآية (٢٨)

(٣) سورة الأحزاب ، الآية (٤٠) .

الواجبات التى لا يستطيع الاضطلاع بها . فإن أصر بعد تكرار رده على هذه الصورة قبلوا منه أن يتخلق بأخلاق اليهود ، ويتأدب بآداب شريعتهم ، دون أن يكلف غير ذلك (راجع كتاب Le Judaisme لحاخام باريس المطبوع سنة ١٩٣١) .

كل ما يستندون إليه من نص فى هذا الشأن ، ما ورد فى كتابهم من أن بنى إسرائيل سيكونون محكّمين للأمم ، ومربِّين للشعوب القوية ، وأنه (قبيل قيام الساعة) سيتفق العالم كله على عبادة الله اتّباعاً لديانة بنى إسرائيل ، إذ يكونون قد عقدوا مع الخالق عهدا جديدا ، فيضطر الناس إلى القيام عليه .

نقول : إن هذا القول وحده يكفى فى الاعتراف بأن الديانة اليهودية بحالتها الراهنة ليست بديانة عامة ، ولكنها ستكون كذلك ، كما يقولون ، فى مستقبل بعيد جدا قبيل يوم الدين . فلا موجب لملاحاة أشياعها فى أمر يعترفون بأنه لم يوجد بعد .

وأما الديانة المسيحية فإن أهلها يعتبرونها الديانة الأخيرة العامة ، مستندين فى ذلك إلى اشتمالها على البُشْرى بخلاص العالم من اللعنة التى أصابتهم بسبب عصيان أبيهم آدم لله ، وأكله من الشجرة التى حرمت عليه فى الجنة . فإنهم يقولون إن الله غضب على آدم لعصيانه أمره ، ولعنه وقذف به إلى جهنم ، وورث هذه اللعنة جميع ذريته ، وسِيقوا بعد وفاتهم إلى النار ، إلى أن أراد الله أن يعفو عنهم ، فأرسل ابنه الوحيد يسوع إلى الأرض ، فحملت به مريم جنينا ، ثم ولدته طفلا ، فتربى ونشأ وأخذ يعلم الناس ويعظهم ويَنْعَى على الكهنة والفريسيّين من اليهود تنطّعَهم فى الدين وأخذَهم بقشوره ، وغفلتَهم عما أودع فى آيات الكتاب من الأسرار ؛ فحقدوا عليه ، ووشوا به ، فقبضت عليه الحكومة وصلبته . وكان فى صلبه كما يقول المسيحيون فدية للناس كافة من اللعنة التى كانوا يرزحون تحتها . وبعد ثلاثة أيام من دفنه قام من بين الأموات ، وقابل بعض حواريه وأوصاهم ووعظهم ، ثم صعد إلى السماء ، وأخذ مكانه عن يمين الرب . وقبيل يوم القيامة ينزل إلى الأرض ويدين أعداءه ، وبذلك يتم وعد الله ، وتنتهى هذه الحياة الجسدانية ، ويخلد الذين آمنوا ببنوته لله ، وافتدائه الخلق بنفسه ، فى الملأ الأعلى على مثل حال الملائكة ، ويخلد الذين لم يؤمنوا بذلك فى النار .

وقد نقل مؤلفو الأناجيل كل ما قاله عيسى عليه السلام ، وما وصى بالقيام عليه من الأصول ، وهى تنحصر فى الاستسلام المطلق ، وحب الغير ولو كان عدوا لدودا ، والصفح عن المسيئين ، وعدم مقابلة الشر بالشر ، والتخلص من علائق الدنيا ، وانتظار الموت فى سكينة وهدوء .

هذه الديانة لا تصلح أن تكون ديانة عامة للبشر لثلاثة أسباب :

(أولها) ابتناؤها على عقيدة لا يمكن أن يقام عليها دليل ، فإن لم تؤخذ بالتسليم فلا يكون لها سلطان ما على الضمير الإنسانى ، والتسليم غير ممكن فى عصر كثرت فيه الشكوك ، وأصبح أهله لا يدينون حتى للدليل العقلى إن لم يعززه شاهد من العالم المحسوس . فكيف يتأتى تعميم هذه العقيدة بين الناس وهى فاقدة أهم أركان التدليل ؟

(ثانيها) قيامها على مبدأ الزهد والتخلص من علائق الدنيا ؛ والحياة الاجتماعية تأبى ذلك ، ولا أدل عليه من أن الأمم الآخذة بهذا الدين تقوم على المبالغة فى الاستكثار من المال ، وفى التورط فى علائق الدنيا خلافا لما يوصيهم به ؛

(ثالثها) إبطالها أهم أركان التشريع ، وهو منع الاعتداء بالقوة ، والضرب على أيدى الجناة لكفّ أذاهم عن الناس ، وإصلاحا لنفوسهم . فإذا أخذ الناس بمبدأ العفو المطلق ، على قاعدة : من سرقك رداءك فأعطه قميصك ، ومن ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، استشرى الشر فى الأرض ، وطمّ العدوان فيها ، وذلّ الخيِّرون للشريرين ، وتمادوا فى استذلالهم حتى منعوهم حق الحياة ، وليس هذا من الإصلاح المنشود لهذا العالم فى شىء .

أقول هذا ولا أنكر مبلغ السمو الذى تنطوى عليه هذه الأصول من تجريد النفس من جميع العلائق الجسدانية ، ولكنه سمو قد يسمح به لأفراد يعيشون فى ظل جماعات قوية تستطيع أن تحمى الفضيلة وأهلها من عدوان العادين ، وعبث العابثين ؛ أما أن يصبح هذا التجريد دينا للكافة فلا يعقل بوجه من الوجوه .

هل يصلح الدين الإسلامى أن يكون هو الدين العام ؟

بقيت الكلمة الآن للإسلام ، فهل يصلح أن يكون هو الدين العام ؟

أما أنه قد أوحى الإسلام إلى محمد ﷺ على هذا الوصف ، فقد ثبت ذلك من النصين القرآنيين اللذين أتينا بهما فى مقدمة هذا البحث ، وهو لأجل أن يقيم هذا التطور الدينى الجلل على المسلّمات العلمية ، قدم لذلك مقدمات بدهية :

(أولها) أن الله لم يُخْل أية أمة فى الأرض من الهداية بواسطة رسول ، فقال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [١] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [٢] .

(ثانيها) أن الأمم كانت تقابل هذه الهداية بالاستعصاء ، إلا أفراداً قليلين كانوا يتبعون الرسل متحملين ما ينالهم بسبب صُبُوئهم عن دين آبائهم من العنت والاضطهاد العظيم ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [٣] .

(ثالثها) أن الأمم التى كانت تأخذ بالأديان ، كانت تعمد إلى تحريفها لتتفق وما هى عليه من وثنيتها ، وكان لزعمائها مصلحة فى ذلك التحريف وهى استغلال جهالات تلك الأمم لحفظ مكاناتهم ، وامتداد سلطانهم ، قال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ؟ [٤] ، وقوله : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ (أى فى الكتاب) إلاّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [٥] .

(رابعها) أن الدين الذى كان يبعث الله به رسله تَتْرَى إلى الأمم ، كان يناسب الميول التى فطرهم عليها ، ليكون أخذهم به قائما على الغريزة الأدبية التى متعت بها نفوسهم ، وكان هذا الدين واحدا لجميع الخلق لوحدة تلك الغريزة فيهم ، ومواده

---

(١) سورة فاطر ، من الآية (٢٤) .
(٢) سورة غافر ، من الآية (٧٨) .
(٣) سورة الحجر ، الآيتان (١٠ ، ١١) .
(٤) سورة البقرة ، الآية (٧٥) .
(٥) سورة البقرة ، من الآية (٢١٣) .

توحيد الله وتنزيهه ، والاستسلام لإرادته ، والإحسان فى العمل ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهاَ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ؟ [2] . والدليل على وحدة هذا الدين المنزل لجميع الأمم قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ . كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . فَلِذَلِكَ فَادْعُ (أى فلوحدة الدين فادع) وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (أى لا محاجة ولا خصومة) ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [3].

(خامسها) أن هذا الدين الحق الفطرى الذى أرسله الله إلى الأمم كافة بلسان رسله ، قد أعاد الله إنزاله إلى محمد ﷺ ، رفعاً للخلاف الذريع بين الأديان مع وحدة أصلها ، وأمر رسوله بأن يقوم بدعوة الناس إليه كافة ، باعتبار أنه دين البشرية كلها لا دين أمة واحدة منها ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ،

---

(١) سورة الروم ، الآيات (٣٠ – ٣٢) .

(٢) سورة النساء ، من الآية (١٢٥) .

(٣) سورة الشورى ، الآيات (١٣ – ١٥) .

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (١) .

(سادسها) دين البشرية وحدة لا تتجزأ تشمل الإيمان بجميع من أرسلهم الله من رسل ، وما أنزله إليهم من كتب ، جملةَ ، لأن التفصيل لا سبيل إليه ، قال الله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (٣).

ومما هو ذو دلالة قاطعة فى أن الإسلام أنزل ليكون دين الإنسانية عامة ، لا دين أمة خاصة ، ما شرطه الله على الداخل فيه من وجوب الإيمان بجميع الرسل الذين أرسلوا إلى الأمم وبجميع الكتب المنزلة إجمالا ، فإن كفر بواحد من أولئك أو من تلك الكتب ، اعتبر كافرا وإن آمن بالقرآن ومحمد ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (٤) .

فالإسلام هو الإيمان بدين الإنسانية كلها وعدم التفرق فيه ، تحقيقا للوحدة الدينية ، وهى أساس كل خير يرجى للجماعات البشرية ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ (وقد علمت ما هو) ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان (١٩ - ٢٠) .
(٢) سورة البقرة ، الآيات (١٣٦ - ١٣٨) .
(٣) سورة الأنعام ، من الآية (١٥٩) .
(٤) سورة النساء ، الآيتان (١٥٠ ، ١٥١) .

الْحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ (يريد بالأميين العرب) أَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (١) .

هذا أكبر تطور حدث فى العالم يمكن تسجيله للعقلية الدينية ، وهو ما لا يمكن حدوثه من عقل بشرى بدون إرشاد سماوى ، لأن الحالة العالمية فى عهد نزوله لم تكن توحي به ، ولم تكن البيئة العربية مما تحفز إليه . فجهد أعظم عبقرى يسند إليه إصلاح تلك البيئة ، كان ينحصر فى أن يوجد للأمة العربية دينا يجمع شتاتها ، ويوفق وجهاتها ، ويحملها على أن تتحول إلى أمة ، بدل أن تبقى على حالة قبائل متناحرة .

هذا كان جهد أكبر عبقرى يتكلف إحداث عمل جلل يسجله له التاريخ فى تلك البيئة . أما عدم الوقوف عند حاجة تلك البيئة الجزئية ، والاشتغال بحاجة العالم كله ، وما تقتضيه من عرض أصول الأديان التى بها يدين الناس ، ومحاولة بيان الفاسد منها ، وإصلاح ما يقبل الإصلاح منها ، والعمل على تمهيد الطريق لتوحيدها بإحالة أصولها إلى حقائقها ، والإفاضة فى بيان ماهية الدين ، وعلاقة الإنسان به ، وفى توزّع الأمم فى الأرض ، وحاجتها إلى وحدة عامة ، إلخ إلخ كل هذا لا توحى به البيئة التى نشأ فيها محمد ﷺ ، ولا أرقى عقلية فى أرقى أمة من أمم الأرض على عهده .

إن الصبغة العامة فى الديانة الإسلامية واضحة إلى حد أن آية واحدة من الكتاب لم توجه إلى العرب خاصة ، وكل ما فيه موجه إلى الناس كافة ، أو إلى المؤمنين ، بحيث أن تالى القرآن الكريم من أية ملة كان لا يشعر بإن هذا الكتاب نزل بين ظهرانى أمة غير أمته . وهذه ميزة يجب أن تلحظ فى التدليل على عمومية الدين الإسلامى .

الأصول التى قررها الإسلام لتحقيق هذا التطور العالمى :

لم يكتف الإسلام بتوحيد الدين من الوجهة النظرية ، ولكنه عمل على تحقيق

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان (١٩ ، ٢٠) .

هذا التطور العظيم بتأليف أمة عالمية غير قومية ، كان فيها لذوى الألوان المختلفة ، واللغات المتباينة ، والأجناس المتباعدة ، حقوق واحدة ، تحت اسم جامع مشترك تفنى فيه جميع الأسماء الخاصة ، وهو (الأمة الإسلامية) .

فما هى الأصول التى قررها الإسلام لتحقيق هذه التطور العالمى ؟

(أولها) وجوب الرجوع إلى العقل فى الأخذ بأية عقيدة دينية .

(ثانيها) طلب الدليل على كل ما يتطلب التصديق .

(ثالثها) الاستماع إلى كل قول واتباع أحسنه .

(رابعها) تصيّد الحكمة من كل مَظَانّها حتى ولو جاءت عن المشركين .

(خامسها) طلب العلم من المهد إلى اللحد ، وبذل كل جهد للوصول إلى لبابه .

(سادسها) النظر فى السموات والأرض ، وفى جميع ما يقع تحت سلطان المشاعر والتأمل فيها .

(سابعها) السياحة فى الأرض لدراسة أحوال الأمم ، ومعرفة علل تقدمها وتأخرها ، أو هلاكها وبقائها .

(ثامنها) عدم الاعتداد بالعقائد الموروثة ، ومحاكمتها إلى العلم والعقل وتطلّب الدليل عليها .

(تاسعها) الامتناع عن التقليد وتطلّب الاقتناع الشخصى .

(عاشرها) استشعار المسئولية الشخصية ، والاعتقاد بأن الإنسان لا يغنى عنه أحد شيئا .

هذه أصول لو أخذت بها أمة لحدث فى عقليتها ونفسيتها ووجودها الاجتماعى تطور سريع لا يقف دون إبلاغها أرفع مستوى تتوق إليه فى حياتها الأرضية .

ولو أخذت به الأمم قاطبة لتقاربت وتفاهمت وتعاطفت ، وانتهت إلى الوحدة التامة ، كما حدث للأمة الإسلامية وهى مؤلفة من عشرات من القوميات ، وكما يحدث لمن يقبل الإسلام دينا له ، إذ يجد نفسه كأنه من المسلمين جسدا وروحا ، وينسى

أنه من نابتة بيئة أجنبية . فالإسلام رسول الوحدة الإنسانية ، والممهد لأكبر تطور روحى وعقلى واجتماعى سيحدث فى العالم البشرى .

نعم إن هذا التطور العام لا يمكن حدوثه إلا بعد أدوار كثيرة من الانقلابات الأدبية والعلمية والاجتماعية ، ولكنه سيحدث لا محالة ، وليس بكثير أن تمضى عليه بضع مئات من السنين بعد وصوله إلى حالته الراهنة ، وقد أنبأنا الله بذلك فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [1] .

ولكن مما يجب علينا بيانه هنا أن هذا التطور سيكون لمصلحة الإسلام لا محالة ، لأنه كفل لنفسه هذه المكانة بما أحاط جوهره به من العوامل التى تجعله الغاية التى ليس وراءها غاية .

فهو يدعو إلى توحيد الله وتنزيهه ، ويحول دون الخيالات أن تتناوله على أية حالة ، وهى التى فرقت الأمم شيعا ، وألبست الأوهام حلة الدين ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ﴾ .

ويدعو إلى الوحدة الاجتماعية والوحدة الدينية ، ولكنه لا يلزم الأمم فى التمشى إليهما أن تتوخى أسلوبا مقررا ، تاركا لناموس الترقى الحرية فى تكييف جهودها على ما تستدعيه حالات الانتقال فى خلال المقتضيات المختلفة .

ويمنح العقل سلطانه كله ، لا يحمّله إصْراً إلا ما يزيد فى نضوجه من علم ونظر ، ويبارك فى قواه لمن تثبت وتحقق .

ويطلق للميول الجسدية حريتها ، ولكن فى دائرة الاعتدال التى ترسمها الحكمة المستمدة من العلم الصحيح ، لا من التحكم وإرادة التسخير .

ويأمر بالتوسع فى العلم ، والتبحر فيه ، العلم الذى يحصله الواقع المحسوس ، لا الذى يقيم صرحه الخيال ، وتمده الأوهام والظنون .

---

(١) سورة فصلت ، الآية (٥٣) .

ويأمر بمراعاة الأحوال ، وتقدير الظروف ، ومعالجة الأمور بالحكمة لا بالخرق ، وبالتشاور لا بالاستبداد بالرأى .

ولا يحرم على أهله إلا الخبائث ما ظهر منها وما بطن ، سواء أكانت فى مأكل ومشرب ، أم فى قول وعمل ، مُحِلًّا لهم الطيبات فى حدود الاعتدال والتوسط .

ويحث على دوام الترقى ، وتطلّب الأحسن من كل شىء ، وتوخّى الأمثل من كل رغِيبة .

ويحض على التخلق بأخلاق الله ، وهى ما يرى ظاهرا يبهر الأنظار فى كتاب الكون المبسوط للكافة ، يرون فيه آثار حكمته وعدله ، ورحمته وإحسانه ، وتدبيره وإتقانه .

إنّ ديناً يكون قد أُحيط بكل هذه العوامل ، وكفى المحلّلات بما رأيته من الحوافظ ، جدير بأن يبقى على الدهر ، وإن انحرف عنه أهله ، ويدوم دوام السموات والأرض ، وإن الْتوى على بعض أصحاب الأغراض فهمه ، حتى إذا استعدت النفوس إلى إيثار الوحدة الاجتماعية والوحدة الدينية ، وجدت الإسلام أمامها يدعوها إلى حظيرته ، فأقبلت عليه إقبال الهِيم على المورد العِدّ ، فقبلته دينا لها إن طوعا وإن كرها ! وإلى هذا يشير الحق فى قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا [1] وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ . قُلْ آمَنَّا باللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [2] [*] .

★ ★ ★

---

(١) المراد بقوله تعالى : « كرها » فيما يظهر : إكراه الحوادث العالمية الناس على قبول الإسلام كمنفذ لهم من الشرور .

(٢) سورة آل عمران ، الآيتان (٨٣ ، ٨٤) .

(★) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء السابع ، رجب سنة ١٣٥٨ هـ .

أدوار الدعوة الإسلامية
وما لقى أهلها فى سبيلها

ليس فى الشئون الاجتماعية ما هو أشد على المصلحين من تغيير عادة من عادات أمة برمتها ، فضلا عن تغيير عقيدة من عقائدها ، فما ظنك بتغيير كل ما يخالف الحق والعدل من عاداتها ، والعقلَ والحكمةَ من عقائدها فى سنين معدودة ؟ هذا ما لا سبيل إليه فى نظر جميع الذين عالجوا الشئون الاجتماعية ، ودخلوا فى مضايقها ، وهو الذى قام به محمد بن عبد الله خاتم المرسلين ﷺ ، واعتبر بحق أدلّ آيةٍ على صحة رسالته . آية تتحطم حيالها كل ما يمكن أن يُدْلَى به من الشبهات وهى راسخة رسوخ الجبال ، وتضمحل دونها ضروب الخلابات الكلامية وتتبخر فى الهواء ، وهى ماثلة أمام الأعين مثول الشمس فى رائعة النهار .

يقول شوبنهور الألمانى مؤسس المذهب التشاؤمى : « يخيل للجاهل أن كل حادث تعليله ميسور ولا تتراءى له وجوه الإعضال فيه » ، ويخيل للجاهل فيما نحن بصدده أن تعليل نجاح النبى فى الانقلاب الذى أحدثه فى الأمة العربية أمر ميسور ، ويحوم فكره حول الشبهات التى يتلقفها عن أعداء هذا الدين ، فيعزوه إلى البيان الساحر الذى أذيعت به الدعوة الإسلامية ، ويغيب عنه أن سحر البيان أعجز من أن يهدم ما بنته الأجيال فى متطاول الأحقاب والقرون ؛ أو إلى الإجبار والإكراه ، ويتناسى أنهما لا يكونان إلا بالقوى المسلحة ، وأين هى ممن لا ناصر له ولا معين ؟ فإن قيل : كان له الناصرون والمعينون . قلنا : هذا وجه الحيرة ! فكيف حصل على عدد عديد منهم بحيث تغلبوا على أمة بأسرها ؟ ثم نسأل : وكيف بقوا أقوياء مخلصين بعد مامات زعيمهم ولم يتفرقوا شَذَر بَذَر ، كما هى السنّة فى كل أمر لا يقوم على أساس من الحق ركين ؟

أشد ما ترامى إلى هؤلاء القشريين من خصوم الإسلام ، أن العرب كانوا فى دور نهوض ، فلما أهاب بهم محمد إلى العمل أجابوه منقادين ؛ ويغبَى هؤلاء المضللون عن أنه لو كان لأهل الجاهلية ميل إلى الاجتماع والنهوض لما استنكروا ما جاءهم

به النبى من النور المبين ، ولالتفوا حوله متساندين متكاتفين . ألم يبلغك أنه حين دعا النبى قريشا للدين وهى أرقى قبائل العرب إدراكا وبصرا بأعقاب الأمور ، ثار ثائرها ، وجن جنونها ، وطفقت تعارض الدعوة بكل وسيلة تطوف بخيال الجاهليين : الاستهزاء ، الإيذاء ، الاضطهاد ، المقاطعة ، حتى اضطر النفر الذين قبلوها للهجرة إلى الحبشة مرتين ، واضطر من بقى للالتجاء إلى شِعْبهم فى الجبل يتّقون فيه مباغتة إخوانهم الأقربين ؟ وبعد أن بقيت الحال على هذه الوتيرة ثلاث عشرة سنة اضطر المسلمون للهرب من وجه المشركين إلى المدينة ، وتبعهم النبى ﷺ خفية ، وقد اضطر فى الطريق أن يلجأ إلى غار يغص بالهوام والحشرات ، حتى استبعد متعقبوه أن يكون قد لجأ هو وصاحبه إليه ، لأن دخوله فوق مقدور الآدميين !

ثم ألم يبلغهم أن خاتم المرسلين ﷺ بعد أن استقر فى المدينة ، وكان قد هدى الله أهلها للإسلام ، تتبعه فيها المشركون شانّين عليه حروبا طاحنة ، قاصدين اصطلام المؤمنين ، والفراغ من أمر هذا الدين ؟

فهل يعقل أن قبائل تميل إلى التوحد والنهوض ، تناهد دعوة مثل الدعوة الإسلامية أساسها توحيد القلوب ، وتطهير العقول ، وترقية النفوس ، وجلب المصالح ، ودرء المفاسد ، والعيش على أكمل وأجمل ما يكون ؟

وهل لم يبلغ الخصوم أن قريشا ، وهى القبيلة التى كان يرجى أن تكون قد شعرت قبل غيرها بعوامل التوحد والنهوض ، قد بقيت محاربة للدعوة الإسلامية ، نؤلب عليها العرب وتجمع لها الجموع ، وتقصد بهم قاعدتها بيثرب لتبيد خضراءهم فيها ، حتى شارف صاحب الدعوة ﷺ أن يدعى إلى الرفيق الأعلى ، ولولا أنه رأى وجوب فتح مكة عَنْوة لبقيت جرثومة الكفر فيها تثير على خلفائه الحروب ، وتنفر منهم القلوب ؟

فإذا كانت فى بلاد العرب قبل مجىء النبى ﷺ فكرة عن التوحد والنهوض ، أكانت تتخطى صميم العرب من قريش وخزاعة وتميم وهوازن إلخ وتأوى إلى قلوب أهل يثرب من قبيلتى الأوس والخزرج ، ولم يكونوا فى مكانة تسمح لهم بأن يحدّثوا أنفسهم بحركة من هذا القبيل ؟

وإذا كانت هذه الفكرة قد جالت فى رءوس بعض مفكريهم ، فماذا قالوا فيها من شعر نظيم ، أو نثر حكيم ؟ أكانت حركةً بكماء لا تنبس بكلمة تدل على وجودها ، وقد تكلموا فى كل شىء حتى فى الفسوق والفجور ، ونقل عنهم فى حرص شديد ، ومبالغا فيه إلى أقصى الحدود ، أفلا كانت تترامى من أحد خطبائهم أو شعرائهم كلمة فى هذا الموضوع الخطير ؟

لقد حرص نقلة اللغة ممن عاشروا أهلها فى البداوة على نقل كل كلمة من كلماتهم ، حتى الدالة على الهَنَات ، وأطنبوا فى ذكر بلاغة قائلها ، وتوسعوا فى سرد نسبه ، وتعداد مناقبه ؛ أفلم يعثروا على اسم شاعرٍ دعاهم للوحدة أو خطيب أهاب بهم للنهوض وهى دعوة يملأ صداها المعمور ؟

الحق الذى لا مِرْية فيه أن بلاد العرب لم تقم فيها دعوة ترمى إلى توحيد قبائلها ، وإصلاح نفسيتها ، وتقويم ديانتها ؛ ولو كان لترامت إلينا أخبارها مكبرة مضخمة ، لأن هذه الحركة الإصلاحية لا يمكن أن تكون خفية ، فهى شعور تولده فى الجماعات الحاجة ، وتهيئه العوامل ، تضطرب له أعصابها ، وتنفعل به أعضاؤها ، وتنشأ تحت تأثيره أخلاق جديدة ، ومرامٍ بعيدة ، تدرك تطوراتها الشعوب البعيدة عنها ، فما ظنك بالقريبة منها ؟

أما وقد ثبت ذلك بكل دليل ، فإن مصداقه من القرآن الكريم قول الله تعالى فى كتابه : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا (أى حين نادينا موسى) ، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، لِتُنْذِرَ قَوْماً مَآ أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [1] .

كيف انتشر الإسلام فى بيئة الجاهلية ؟

لو تصدى أحدنا أن يتخيل ما يمكن أن يعمله رسول أُمر أن يقوم بدعوة جديدة فى وسط هذه البيئة الأمية المتشددة فى جاهليتها ، لما وجد لذلك طريقا معقولا ، إلا ما سلكه النبى ﷺ ، وهو أن يدعو أولا أهل بيته ، فآمنت به امرأته خديجة بنت خويلد ، وابن عمه على بن أبى طالب ، وكان فى كفالته لضيق ذات يد

---

(١) سورة القصص ، الآية (٤٦) .

والده ، وكان إذ ذاك قد ناهز سن الحلم ، وزيد بن حارثة بن شرحبيل ، وكان مولاه اشتراه ثم أعتقه وتبنّاه ، وأمّ أيمن حاضنته .

ثم رأى ﷺ أن يدعو سرا من يعرف فيهم رجاحة العقل ، وسلامة الفطرة ، والنزوع إلى الحق ، فشافَهَ بالدعوة أبا بكر بن أبي قحافة ، وكان صديقا له ، فأسرع إلى تصديقه ، لما يعلم فيه من الصدق والأمانة والإخلاص . وكان أبو بكر من عظماء قريش ورجالاتها المعدودين مالا وجاها وسخاء ، وكان محببا إلى الناس مبجلا فيهم ، لذلك اتخذه النبي ﷺ وزيرا له ، يستشيره في جميع ما لم ينزل فيه وحي .

فقام أبو بكر من ناحيته بدعوة من يثق بنضوج عقله ، وصحة منطقه ، فلبى دعوته رجال : منهم عثمان بن عفان ، وكان شابا لا يجاوز العشرين . فلما ترامى إلى عمه الحكم بن عفان خبر إسلامه ، قبض عليه وأوثقه كِتَافاً ، وآلى على نفسه أن لا يحلّه حتى يرجع إلى دين آبائه ، فتحمل عثمان هذا الاضطهار بصبر وثبات . فلما رأى عمه تفانيه فيما هو فيه ، أطلقه .

ومنهم الزبير بن العوام وأمه صفية بنت عبد المطلب ، فلما بلغ عمه خبر خروجه عن دين آبائه كان يعذبه بأن يغمره في الدخان المتصاعد من الحريق ، فلم يزده ذلك إلا تشبثا بما هو فيه على أنه لم يتجاوز سن الحلم .

ومنهم عبد عمرو بن عوف بن عبد عوف (وقد غير النبي ﷺ اسمه فجعله عبد الرحمن بدل عبد عمرو) .

ومنهم سعد بن أبي وقاص ، وكانت أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية ، فلما علمت بصبوئه عن دين آبائه قالت له : بلغني أنك قد صبأت ، فو الله لا يظلني سقف من الحر والبرد ، وإن الطعام والشراب عليَّ حرام حتى تكفر بمحمد ! فلم يثنه ذلك عن عزمه واستمر على ما هو عليه .

ومنهم طلحة بن عبيد الله ، وكان يسمع من أهل الكتاب أن نبيا سيرسل في آخر الزمان ، فلما سمع دعوة أبي بكر بادر إلى الإسلام .

وممن سبقوا إلى الإسلام مسوقين إليه بدافع وجداني ، صهيب ، وكان عبدا

روميا ؛ وعمار بن ياسر وأبوه وأمه سمية ، وعبد الله بن مسعود ، وكان راعيا للغنم ، فلما سمع بمبعث رسول الله اتبعه ولازمه ، فكان يمشى أمامه ، ويستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ، ويلبسه نعليه إذا قام ؛ وأبو ذر الغفارى ، وكان من أهل البداوة ، فصيح اللسان حلو الحديث ؛ وسعيد بن زيد العدوى وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر ؛ وأم الفضل لبابة بنت الحارث زوج العباس عم النبى ﷺ ؛ وأبو سلمة ابن عبد الله ابن عمة رسول الله وزوجه أم سلمه ؛ وعثمان بن مظعون الجمحى وأخواه قدامة وعبد الله ، والأَرْقَم بن أبى الأرقم ؛ وخالد بن سعيد بن العاص ، فغضب عليه أبوه ومنعه الغذاء ، فأوى إلى رسول الله ﷺ ، وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد .

حدث كل هذا والنبى مختف فى دار الأرقم بن أبى الأرقم يدعو إلى دينه سرا . ثم أمره الله بالجهر بالدعوة فى قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [(١)] ، فصعد على جبل يقال له الصفا وطفق ينادى : يا بنى فِهْر ، يا بنى عدىّ ، لبطون قريش ، فكان الرجل إذا لم يستطع الخروج بنفسه ، أرسل من يأتى له بالخبر ؛ فلما اجتمع الناس قال لهم النبى ﷺ : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقِىّ ؟ » قالوا : نعم ما علمنا عليك كذبا . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

فلم يرفع أحد بما قاله رأسا ، ولم يقم له وزنا ، وأغلظ بعضهم له القول ، ثم تولوا عنه مدبرين .

عند ذاك أنزل الله عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس) ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [(٢)] ، فاستدعاهم رسول الله وقال لهم : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم

---

(١) سورة الحجر ، الآية (٩٤) .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات (٢١٤ - ٢١٦) .

خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لَجَنَّةٌ أبداً ، أو لَنارٌ أبداً » !

فكلمه القوم كلاما ليّناً إلا عمّه أبا لهب فإنه أغلظ له القول ، وصاح بالناس أن خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتموه إذن ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم . فأجابه عمه الثانى أبو طالب قائلا : والله لنمنعنه ما بقينا ! وقد بر بيمينه . وكان الجهر بالدعوة فى السنة الثالثة من النبوة .

عهد الاضطهاد وما لقى منه النبى والمسلمون :

لما أُمر ﷺ بإعلان الدعوة ، أخذ يغشى مجالس قومه ويدعوهم للإسلام ، ويبالغ لهم فى إظهار حجته ، ووجاهة محجته ، ويكثر لهم من الأدلة عن عوج طريقتهم ، وبطلان ديانتهم . فكانوا يقابلونه بالسُّخر والاستهزاء ، كأن يقولوا : هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء ، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ، ولا يتجاوزون هذا الحد . ولكن لما أخذت الآيات تترى عليه فى تسفيه أحلامهم ، وتحقير آلهتهم ، وتضليل آبائهم ، تغير موقفهم حياله ، وانتقلوا من مجرد الاستهزاء إلى ضروب من الإيذاء ، وصنوف من الاضطهاد لا تطاق .

دخل عليهم النبى يوما المسجد الحرام فوجدهم يسجدون للأصنام ، فنهاهم عن ذلك ، وأنبهم على خروجهم على دين أبيهم إبراهيم . فأجابوه : إننا إنما نسجد لها لتقربنا إلى الله . فبيّن لهم بأن ذلك هو الشرك الذى لا يقبله الله منهم ، ونعى عليهم استرسالهم فيما هم فيه ، فأجمعوا على مخالفته ومنابذته ، كما يحكى الله ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً ؟ إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ ، إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلَاقٌ . أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ، بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى ، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ . أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَلْيَرْتَقُوا فِى الْأَسْبَابِ . جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ

مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ . كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ . وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ . إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ . وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ (١) .

وكان ما أجمع عليه المشركون معاكسة النبى ﷺ بكل وسيلة ، ومحاربة دينه بكل حيلة . فصاروا يتحككون بالمسلمين ويحاولون حملهم على الرجوع إلى دينهم بعد أن صاروا مسلمين . وكان أكثر الناس سعيا فى هذه السبيل أبو جهل وهو من أشراف قريش ، فكان إذا سمع بإسلام رجل نابه الذكر جليل القدر ، لامه وهدده قائلا : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهنّ حلمك ، ولنغلبن رأيك ، ولنضعن شرفك . وإن ترامى إليه إسلام تاجر ، قال له : لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك . وإن كان الذى أسلم مستضعفا أهانه وضربه .

وقد تفنن المشركون فى ضروب التعذيب حتى لم يدعوا وجها من وجوهه إلا أخذوا به حتى الإيلام بالنار . فقد عذبوا بها عمار بن ياسر ، وعذبوا بها أيضا أباه وأخاه وأمه . فمات ياسر من أثر النار . وأخذ أبو جهل امرأته فعذبها ثم طعنها برمح فقتلها .

وقيل فى تفصيل هذا التعذيب إن أبا جهل كان يلبس عمارا درعا من الحديد فى اليوم الصائف .

وممن عذب فى الله خبّاب بن الأَرَتّ ، وكان يحدِّث عن نفسه فقال : لقد رأيتنى يوما وقد أوقدت لى نار ووضعوها على ظهرى فما أطفأها إلاّ وَدَكه ، أى دهنه .

وكان قد أسلم غير خباب عبيد كثيرون ، فكان مواليهم يذيقونهم عذاب الهون ، رجاء أن يصبأوا عن الإسلام فما كانوا يفعلون . وكان أبو بكر إذا مر بعبد يعذب فى الله ، اشتراه وأعتقه ، منهم بلال مؤذن النبى ﷺ ، وحمامة أم بلال وبنتها ، وزُنَيرة .

---

(١) سورة ص ، الآيات (٤ – ١٥) .

فكان مولى بلال يخرجه إذا حميت الظهيرة بعد أن يجيعه ويعطشه يوما وليلة ، فيطرحه على ظهره فى الرمضاء : أى الرمل إذا اشتدت حرارته ، ثم يأمر بالصخرة الثقيلة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعود إلى عبادة اللات والعزى !

أما زُنَيرة وأخت عامر بن فهيرة ، فكانتا لعمر بن الخطاب قبل أن يسلم ، فمر به أبو بكر وهو يعذبهما بالضرب فاشتراهما منه وأعتقهما . أما عامر بن فهيرة فكان يعذَّب حتى يخر مغشيا عليه ، فاشتراه أبو بكر كذلك وأعتقه .

وكان أبو فكيهة عبداً لصفوان بن أمية ، فأخرجه فى يوم شديد الحر مقيداً إلى الرمضاء ، ووضع على بطنه حجرا حتى خرج لسانه وعم صفوان حاضر ، فكان يقول لابن أخيه : زده عذابا حتى يأتى محمد فيخلصه بسحره . فاشتراه أبو بكر وأعتقه .

وأم عنبس كانت أَمَةً لبنى زهرة ، وكان الأسود بن عبد يغوث قد تولى تعذيبها بأشد ما يستطيع قلبٌ صَلْدٌ أن يفعله ، فصادفه أبو بكر فاشتراها وأعتقها . واشترى كذلك ابنتها لطيفة وكانت تُسام أشد العذاب ، وأعتقها . واشترى لبينة جارية المؤمل ابن حبيب ، وكانت تلاقى من سيدها أفظع ما يلقاه ضعيف من قوى .

وممن أوذى فى الله أبو بكر نفسه ، حتى أنه نوى أن يفر بدينه من وطنه ، فقصد الحبشة وسار حتى أتى برك الغماد ، وهو موضع يبعد عن مكة بخمس ليال ، فلقيه سيد قبيلة القارة ابن الدُّغنة فسأله عن وجهته ؟ فقال : أريد أن أسيح فى الأرض وأعبد الله . فقال : مثلك لا ينبغى أن يخرج ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ؛ وصحبه ابن الدغنة حتى أتى قريشا وقال لهم : مثل أبى بكر لا يصح أن يخرج . فقبلت قريش جوار ابن الدغنة ، وشرطوا على أبى بكر أن لا يعلن صلاته ولا قراءته . فقبل منهم ذلك ، ولكنه ابتنى لنفسه مسجدا فى فناء داره ، فكان يجلس فيه ويقرأ القرآن ، وكانت تجتمع عليه نساء المشركين وأبناؤهم معجبين به وبتقواه . فخشى المشركون أن يفتنهم ما يرونه فيه ، فارسلوا لابن الدغنة يشكونه إليه ، فحضر وقابل أبا بكر وقال له : إما أن تقتصر على ما اتفقنا عليه وإما أن ترجع إلىَّ ذمتى . فقال

أبو بكر : إنى أرد عليك جوارك ، وأرضى بجوار الله ! فتقصده المشركون وألحقوا به من ضروب الاضطهاد ما لا يصبر عليه إلاّ مثله .

لجوء قريش إلى المسالمة بعد يأسهم من تأثير الاضطهاد :

لما رأى المشركون أن ما صبوه على المسلمين من ضروب الأذى والاضطهاد لم يزدهم إلا تمسكا بدينهم ، وتعلقا بنبيهم ، اجتمع قادتهم وتشاوروا فيما يعملون . فأشار عليهم عُتْبة بن ربيعة العبشمى وكان سيدا مطاعا ، بأن يذهب إلى محمد فيعرض عليه أموراً لعله يقبلها ويقلع عما هو ماض فيه . فقبلوا رأيه . فذهب إلى النبى ﷺ فصادفه يصلى ؛ فلما أتم صلاته فاتحه الحديث وقال له : « يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت ، من خيارنا حسبا ونسبا ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها » .

فقال النبى ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » .

فقال له الوليد : « يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ؛ وإن كنت تريد شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ؛ وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ؛ وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيٌّ من الجن لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوَى » .

فقال له النبى ﷺ : « لقد فرغت يا أبا الوليد » ؟

قال : نعم .

قال النبى ﷺ : فاسمع منى :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ . حـمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيراً وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ

حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ، فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ، فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [1] .

لما انتهى النبى ﷺ إلى هذا الحد ، أمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن قراءته .

فلما رجع عتبة إلى قريش قال لهم : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ، ولا بالكهانة ، ولا بالسحر . يا معشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى ، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه . فو الله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فعزّه عزكم !

فقالوا له : لقد سحرك محمد !

فقال لهم : هذا رأيى ، وتركهم وشأنهم .

يتجلى من سفارة عتبة بن ربيعة إلى النبى ﷺ أمر ذو دلالة قوية فيما نحن بصدده : ذلك أنه فى كل ما قدمه من المغريات لخاتم المرسلين كان همه مصروفا

---

(١) سورة فصلت ، الآيات (١ - ١٤) .

إلى شيء واحد وهو المحافظة على الحالة التى كانت قريش عليها ، فلو كانت هنالك حركة تطور لظهرت جلية فى كلامه ، بل لجعلها محور حواره ، ولما عاد إلى قومه لم ينصحهم باتباعه ، بل لم يتبعه هو نفسه ، وكل ما أشار عليهم به أن يتركوه وشأنه ، فإما أن يكفيهم الناس أمره فيطمئنوا على عاداتهم ووثنياتهم ونظامهم الاجتماعى ، وإما أن تكثر أنصاره ويسود فيستفيدوا من علو شأنه باعتبار أنهم قومه وأقرباؤه ، وليس هذا شأن الجماعات التى نشأت فيها عوامل النهوض والتطور . وليتهم رضوا بهذه الحالة من الحياد التى دعاهم إليها عتبة ، ولكنهم رأوها مما لا تطاق حيال دعوة يوشك أن تثمر ثمراتها فتنقلهم مما جمدوا عليه آمادا طويلة ، ولا يبغون عنه حولا .

إن الذين يريدون الغضّ من تأثير الإسلام فى الأمة العربية لتقليل شأن الرسالة المحمدية ، يبذلون جهدا عظيما فى تمويه هذا التعليل ، ويفتتن بهم بعض المسلمين بقصد تمجيد الأمة العربية ، ولكن لا أولئك ولا هؤلاء يستطيعون أن يأتوا على ما يقولون بسلطان بيّن ، لا سيما وأن أدوار المشادة بين النبى  وبين المشركين لم تقف عند هذا الحد ، كما ستراه فى المقالات التالية ممّا لا يدع مقالا لقائل ، إن شاء الله (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء الثامن ، شعبان سنة ١٣٥٨ هـ .

عزم المشركين على الجدّ فى وقف الدعوة الإسلامية

لم يترك الجاهليون وجها من وجوه الإيذاء والإيلام إلا عاملوا به النبى ﷺ ومن آمنوا معه ، فلما عجزوا عن فتنتهم عن دينهم ، أجمعوا على معاملتهم بأقصى ضروب الشدة ، حتى يفرغوا من أمرهم ، ولكنهم قبل أن يقدموا على هذا الأمر رأوا أن ينذروا عشيرة النبى ﷺ ليتخلوا عن حمايته ، فإذا أبو أعلنوهم الحرب وعاملوهم معاملة الأعداء . فمشى جماعة منهم إلى أبى طالب بن عبد المطلب عم النبى ﷺ ، وقالوا له :

« يا أبا طالب ! إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد طلبنا إليك أن تنهى ابن أخيك عنا فلم تنهه ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، فإن لم تكفه عنا نازلناه وإياك ، حتى يهلك أحد الفريقين » !

فلما سمع أبو طالب ما قالوه عظم عليه مخالفة قومه وعداوتهم ، ولكنه لم يطب نفسه بخذلان ابن أخيه ، وتعريضه لوحشيتهم ، فرأى أن يكلمه فى هذا الأمر فقال له :

« يا ابن أخى ! إن قومك جاءونى فقالوا لى كيت وكيت ، فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » .

فأجابه محمد ﷺ بقوله :

« يا عم : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أنزل عن هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته » ! ثم بكى وقام . فلما ولى ناداه أبو طالب ، فأقبل إليه فقال له : « اذهب يا ابن أخى وقل ما أحببت والله لا أسلمك إليهم » !

فلما رأت قريش أن مسعاهم لم يفلح اعتزموا أن يسلكوا لتحقيق غرضهم طريق الشدة ؛ ودعا أبو طالب بنى هاشم وبنى المطلب إلى حماية محمد ﷺ ، فأجابوه إلى ذلك إلا عمه أبا لهب .

فتوالى الاضطهاد بشدة على المسلمين وعلى النبى ﷺ . فممّا روى من إيذائهم له ما حدّث به عبد الله بن مسعود قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى المسجد وهو يصلى ، وقد نحر بعض الناس جزورا وبقى فرثه وكرشه . فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى هذا القذر يلقيه على محمد ؟ فقام عُقبة بن أبى مُعَيْط ، وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى ﷺ وهو ساجد ، فتضاحكوا وجعل بعضهم يميل إلى بعض . قال ابن مسعود : فخفنا أن نلقيه عن ظهره ، حتى جاءت فاطمة ابنته بعد أن ذهب إليها إنسان وأخبرها الخبر ، واستمر النبى ساجدا حتى ألقته عنه .

وروى البخارى عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ . قال : بينا رسول الله يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكبه ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر وأخذ بمنكبيه ودفع عنه .

وروى أنهم اجتمعوا مرة على رسول الله ﷺ وجذبوا رأسه الشريف ولحيته حتى سقط أكثر شعره ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟

ولما بدا له ﷺ أن يدعو أهل الطائف ، وهى قرية بقرب مكة ، شخص إليها فقابله أهلها بأقبح رد ، وتولاه سفلتهم بالرجم وهو راجع حتى أدموا رجله بحجر .

وكان النبى ﷺ بعد أن أُمر بإعلان الدعوة لا ينى فى دعوة القبائل فى مواسم الحج ، فكان يتتبعهم بمنى والموقف يسأل عنهم وعن منازلهم ، ويأتى إليهم فى أسواق الموسم وهى عكاظ ومجنة وذو المجاز . وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال ، ثم تنتقل إلى سوق مجنة وتقيم به عشرين يوما ، ثم تزايله إلى سوق ذى المجاز فتقيم به أيام الحج ، فكان النبى ﷺ يقصدهم فى هذه الأسواق ويعرض نفسه عليهم طالبا إليهم أن يحموه حتى يبلغ رسالة ربه ، فكان يلازمه رجل من المشركين يصد الناس عنه مدعيا لهم أن به جِنّة ، فيعرض الناس عنه ، ولا يقيمون لما يقوله وزنا ؛ استمر على ذلك نحو عشر سنين .

هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة :

إن ما كان يلحق النبى ﷺ من الأذى والاصطهاد كان يلحق مثله الدين آمنوا به ، حتى أن أبا بكر وهو سيد كبير من ساداتهم صرب مرة حتى احتلط وجهه . فلما طفح الكيل ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، رأى بعضهم أن يهاجر إلى الحبشة ، فارين إلى الله بدينهم ، وتاركين لأموالهم وعشائرهم . فاتّفق عشرة رجال وخمس نسوة على الشخوص إلى الحبشة ، منهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ، وأبو سلمة وأم سلمة ، وأخوه لأمه أبو سبرة وزوجه أم كلثوم ، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهل ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مطعون ، ومصعب بن عمير ، وسهل ابن البيضاء ، والزبير بن العوام ، وأكثرهم من أشراف قريش تحت قيادة عثمان بن مظعون ، ولكن لم يطب لهم المقام هنالك لأن الأحباش كانوا على النصرانية وذوى عصبية دينية لا تعرف التسامح ، فنبت بهم الديار ، فلم يلبثوا إلا ثلاثة أشهر ثم عادوا أدراجهم ، ولما رجعوا لم يتمكن من دخول مكة إلا من وجد له مجيرا ، فدخل أبو سلمة فى جوار خاله أبى طالب ، ودخل عثمان بن مطعون فى جوار الوليد بن المغيرة ، ثم رأى أن يرد عليه جواره عندما بلغه ما صنعه من اضطهاد المسلمين وما لا يزال يصنعه معهم .

إسلام حمزة عم النبى ﷺ وعمر بن الخطاب :

كان من أكبر العوامل فى إسلام حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ ما شعر به من الامتعاض الشديد من إيذاء المشركين لابن أخيه محمد ﷺ . فقد قيل إن مولاة لعبد الله بن جدعان كانت فى دارها ، فرأت بعينها وسمعت بأذنها أن أبا جهل وهو أبو الحكم بن هشام ، لقى رسول الله فشتمه ورماه بالتراب ووطىء برجله عاتقه ، ثم انصرف إلى نادى قومه . فلم تلبث الأمة التى كانت قد تأثرت بما فعله أبو جهل أن مر بها حمزة عائدا من قنصه متوشّحا سيفه ، فقالت له الفتاة : يا أبا عُمارة : لو رأيت ما فعل بابن أخيك الساعة أبو الحكم بن هشام ، تعنى أبا جهل ، وحكت له ما رأت . فقال لها حمزة : أنت رأيت هذا الذى تقوليه ؟ قالت : نعم .

فاستشاط حمزة غضبا وقصد المسجد فصادف أبا جهل جالسا ، فأقبل إليه ورفع قوسه وضرب بها رأسه فشجه قائلا له : أتشتم محمدا وأنا على دينه ؟ فقام رجال من بنى مخزوم ينصرون أبا جهل ، وقالوا لحمزة : ما نراك إلا قد صبأت إلى دين محمد .

فصمد لهم حمزة و لم يبال بتألبهم عليه ، فتركوه . ولما كان اليوم التالى ذهب إلى رسول الله وأسلم . فسر رسول الله ﷺ بإسلامه ، لأنه كان أعزّ فتىً فى قريش ، وأشدهم شكيمة على من يناوئه ، فخفف المشركون أذاهم عن رسول الله ، متحامين بطش حمزة ؛ وكان ذلك فى السنة السادسة من النبوة ، وقيل بل الخامسة منها .

أما عمر بن الخطاب فقد حدَّث عن سبب إسلامه فقال ما مؤداه : كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ ، فلقينى ذات يوم رجل من قريش ، وقال يا ابن الخطاب تزعم أنك هذا ، أى أنك الصلب القوى فى دينك ، وقد دخل هذا الأمر فى بيتك (أى الإسلام) ؟ فتملأت غضبا ثم قصدتُ دار أختى زوجة سعيد ابن زيد وقابلتها بما تكره على أن تركت دين آبائها وصبأت إلى دين محمد ، ثم نظرتُ فإذا صحيفة فى ناحية من البيت فأخذتها ، فإذا فيها : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، فتَلَوْتُها حتى بلغت قوله تعالى : ﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [1] ، فعظمت فى قلبى وصمّمت على الإسلام ، وقلت لهم : دلونى على مكان رسول الله ﷺ ، فجئت إليه فى دار الأرقم وكان مختفيا فيها بمن معه ، وطرقت الباب فلم يجسر أحد أن يفتح لى ، فقال لهم النبى ﷺ : افتحوا له إن يشأ الله به خيرا يهده ، فأدخلونى بين رجلين آخذين بعضدىّ . فقال لهم النبى أرسلوه ، أى اتركوه ، فجلست بين يديه ، فقال لى : ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فو الله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة . فقلت : يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . !

---

(١) سورة الحديد ، الآيات (١ — ٨) .

قال عمر : وكان الرجل إذا أسلم استخفى ، فقلت : يا رسول الله والذى بعثك بالحق نبيا لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان . قال عمر : وأحببت أن يصيبنى ما أصاب من أسلم من الضرر والإهانة .

روى عبد الله بن عمر قال : لما أسلم أبى قال : أىّ قرشىٍّ أَنْقَل للحديث ؟ فقيل له : جميل بن حبيب ، فغدا عليه وغدوت أتبع أثره وأنا غلام أعقل ما أرى ، حتى لقيه فقال له : أعلمت يا جميل أنى أسلمت ؟ فو الله ما راجعه حتى قام يجر رداءه ، واتبعه عمر ، واتبعت أبى حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ألا إن ابن الخطاب قد صبأ ! فأخذ الناس يضربونه ويضربهم حتى قال خالى ما هذا ؟ قالوا ابن الخطاب ، فقام على الحجر وأشار بكمه ألا إنى أجرت ابن أختى ، فانكشف الناس عنه . وخاله هذا هو أبو جهل وهو فى الحقيقة عمه وإنما دعى خاله مجازا .

وروى البخارى عن ابن عمر قال : بينا عمر فى الدار خائفا إذ جاء العاص ابن وائل السهمى أبو عمرو بن العاص ، وعليه حلة حبرة ، وقميص مكفوف بحرير ، فقال له : ما بالك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلوننى لأنى أسلمت . قال : لا سبيل إليك . فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادى . فقال أين تريدون ؟ قالوا ابن الخطاب الذى قد صبأ . قال لا سبيل إليه ، فكر الناس وانصرفوا .

ثم رأى عمر أن يرد على العاص بن وائل جواره . قال : فما زلت أضرب وأضرب حتى أعز الله الإسلام .

إن إخلاص عمر فى إسلامه يستحق أن ينوه به ، فإنه بعد أن آمن وكان من أشد الناس إيذاء للنبى ﷺ ، لم ير ما يكفِّر عنه سالف عدائه للحق إلا أن يعرض نفسه لضروب الإيذاء التى تعرض لها إخوانه الذين سبقوه إلى الإسلام ، فأعلن إيمانه لينال من الاضطهاد مثل ما لقوه . وقد لقى منه الشىء الكثير .

مقاطعة المشركين للمسلمين :

لما رأى قادة الجاهلية أن جميع ضروب الاضطهاد لم تفت فى عضد المسلمين ، ولم تحل جماعتهم ، عمدوا إلى سلاح من أشد الأسلحة على الأقليات العائشة مع أكثرية ساحقة ، وهو سلاح المقاطعة . فاجتمع صناديدهم وقرروا بعد التشاور أن

يتفقوا كتابة على أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى المطلب ، فلا يصاهرونهم ، ولا يبايعونهم ، ولا يرحمونهم حتى يسلموا إليهم رسول الله يقتلونه . وأخذت كل جماعة نسخة من هذا العقد وعلقوا واحدة منها على جدار الكعبة . وكان ذلك سنة سبع من النبوة .

فلم يسع بنى هاشم وبنى المطلب إلا أن يجتمعوا تحت إمرة أبى طالب بن عبد المطلب ويلجأوا معه إلى شِعب بالجبل متحصنين فيه ، وأمر النبى ﷺ من أسلم من غير بنى هاشم وبنى المطلب أن يهاجروا إلى الحبشة حتى لا يهلكوا جوعا . وبقى من دخل الشِعب منهم فى حالة يرثى لها من الجوع والعطش ، وكادوا يهلكون جميعا لولا أن الله سخر لهم رجلين كانا يعطفان عليهم ، ويأتيانهم بشىء من الطعام خفية ، أحدهما هشام بن عمرو العامرى ، كان من أشد الناس معارضة فى إبرام عقد المقاطعة ، وقد أسلم بعد ، فكان يأتيهم بما يقدر عليه من الأغذية ، فأدخل عليهم فى ليلة واحدة ثلاثة أحمال من الأطعمة ، فبلغ قريشا ما صنع فكلموه فى ذلك ، فوعدهم بالإقلاع عن هذا الفعل ، ولكنه لم يف بوعده ، وعاود إمداد المقاطَعين بالأغذية ، وبلغ قريشا أيضا فأغلظت له القول وهمت بقتله .

وثانيهما حكيم بن حزام ، لقيه أبو جهل يوما وقد حمل غلامه قمحا إلى من بالشعب ، فكلمه فى ذلك وشنع عليه ، فأخذ حكيم لحى بعير فضربه به فشجه ، وتدخل بينهما أبو البَخْتَرِىّ فلم يتطور التنابذ إلى ما هو أشد منه .

ولكن ماذا عسى أن تكون قيمة هذه المساعدات الفردية بإزاء حاجة عشرات من الأنفس ؟ فلقد لقوا من الشدة ما لا يصبر عليه إلا الكرام .

وقد روى أنهم جاعوا حتى أكلوا الخَبَط (ورق الشجر) . وكان بعضهم يحضر الحج ويحاول أن يشترى شيئا فلا يستطيع من الرقيب الذى يوكل به حتى يرجع للشِعب .

لبث بنو هاشم وبنو المطلب على هذه الحال سنتين وقيل ثلاث سنين ، وهو الأرجح ، حتى بلغ بهم الجهد ، فاتفق خمسة من رجالات قريش ليلا على أن يعملوا فى غدهم على نقض عهد المقاطعة ، وهم هشام بن عمرو العامرى ، وهو أشدهم

رغبة فى ذلك ومحاولة له ، وزهير بن أبى أمية المخزومى ابن عمة رسول الله ﷺ ، والمطعم ابن عدى النوفلى ، وأبو البخترى بن هشام الأسدى ، وزمعة بن الأسود الأسدى .

فلما كان الغد جاء زهير إلى المسجد وعليه حلة ، فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس وقال : يأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة ! يريد صحيفة العقد المعلقة بالكعبة ، فعارض فى ذلك أبو جهل ، فرد عليه زمعة بن الأسود ، وعاونه أبو البخترى بن هشام الأسدى ، وانضم إليهما المطعم بن عدى ، وقام إلى الصحيفة ومزقها .

فلما بلغ بنى هاشم والمطلب ما حدث خرجوا من الشِعب .

هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة :

قلنا إن النبى ﷺ حين أوى هو وعشيرته الأقربون إلى الشعب ، أمر من أسلم من الناس أن يهاجروا إلى الحبشة ، فاجتمع نحو ثلاثة وثمانين رجلا منهم ، وثمانى عشرة امرأة وخرجوا مهاجرين إليها ، منهم جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء بنت عميس ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن مسعود ، وعبيد الله بن جحش وامرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وانضم إليهم الذين أسلموا باليمن وهم أبو موسى الأشعرى وبنو عمه .

فلما رأت قريش ذلك أرسلت فى أثرهم عمرو بن العاص (قبل أن يسلِم) وعمارة بنِ الوليد بهدايا إلى النجاشى ليسلّم المسلمين لقريش ، فأبى عليهما ذلك ، وقد بقى هؤلاء المسلمون بالحبشة حتى هاجر النبى ﷺ إلى المدينة فعادوا إليه بها .

محاولة الاستعانة ببنى ثقيف بالطائف :

لما آنس النبى ﷺ أن قريشا قد تضافرت على معاكسته بكل وسيلة ، رأى أن يلجأ إلى بنى ثقيف بالطائف ، وهى بلدة فى الجنوب الشرقى من مكة ، طالبا إليهم حمايته حتى يؤدى رسالة ربه ، فقابل رؤساءها وكلمهم فى هذا الشأن ، فأخشنوا له فى الرد ، وأرسلوا غلمانهم ليقطعوا عليه الطريق وهو قافل إلى مكة ،

فلما أقبل عليهم قابلوه بوابل من الحجارة حتى أدموا عقبه ، ولولا أن زيد بن حارثة كان يذودهم عنه للحقه منهم أذى كبير .

ولما قرب من مكة لم يستطع أن يدخلها لما علمه كفار قريش من ذهابه إلى الطائف واستنصاره عليهم بأهلها . فأرسل ﷺ إلى المطعم بن عدى بن نوفل يخبره أنه يريد أن يدخل مكة فى جواره . فأجابه إلى ذلك وحمل هو وبنوه أسلحتهم ، واستعدوا لقتال من يعترضهم ، وذهبوا إلى رسول الله واستقبلوه خارج مكة وقدموا معه حتى بلغوا به المسجد .

عند ذاك سأل المشركون المطعم بن عدى قائلين : أمجير أنت أم تابع ؟ فقال : بل مجير . قالوا : إذا لا نخفر ذمتك .

وفاة خديجة رضى الله عنها :

بعد خروج بنى هاشم وبنى المطلب من الشِعب بقليل توفيت خديجة بنت خويلد ، وهى تستحق صحيفة خالدة فى سيرة النبى ﷺ ، فليس لامرأة فى الإسلام من الفضل ما يعدل فضلها ، فقد كتب لها أن تكون لخاتم المرسلين زوجة ، فتولته وهو فى ميعة صباه بالعطف والرعاية ، حتى بلغ الثالثة والخمسين من عمره المبارك ، فلم تدع وجها من وجوه العناية به ، والإخلاص له ، إلا قامت به على أكمل وجه .

شاطرته الحياة وهو فى ريعان الشبيبة ، فكفته بمالِها الكدَّ المضنى ، فسهلت له التجرد للتفكير والتأمل ، وهما بابا الاهتداء إلى الحق ، وطريقا التهيؤ للنبوة التى كتبها الله له ، وسوغت له الانقطاع عن العمل الدنيوى الأيام والليالى التى كان يقضيها فى غار حراء ، ولم تقف عقبة فى سبيله لقطع هذه المرحلة من حياته الاعتزالية .

ولما انبثق له النور الالهى ، وشافهه الملك بالوحى ، وأدركه ما أدركه من الهلع ، كانت أول من تولته بالتهدئة ، وحاطته من حنانها بما خفف عليه احتمال تلك المفاجأة .

ولما أدرك أن ما جاءه هو الوحى ، وأنه بعث بالدين الحق ، كانت هى أول

من آمن به ، وفى إيمانها سكن لقلبه ، إذ لو كانت كأكثر النساء جامدة على عقائدها الوراثية ، لكانت بموقفها المخالف منه ، وهو بين روعة الوحى ولوعة الشعور بعظم التبعة ، أشد عليه من أكفر الناس به .

فلما شدد عليه قومه النكير ، وتقصدوه بالأذى والاضطهاد ، كانت هى أكبر المشجعين له على المضى فى أمره ، ولو أدركها الذعر ، وحاولت صرفه عن شأنه ، لسببت له من العنت ما لا يوصف بوصفٍ .

كانت خديجة رضى الله عنها ذات مال ، ولذوات المال إدلال ، وملال من اضطراب الأحوال ، وخديجة كانت تعلم أن مضى زوجها فيما هو فيه ، مع عمله فى تجارتها ، يوجب لها الكساد ، فلم يُرْو أنها فاتحته مرة فى الإقلاع عما هو سبيله ، محافظة على مكانتها المالية ، وهذا أندر ما يكون فى أصحاب الهيل والهيلمان .

وتبعته إلى الشِعب تاركة ثروتها بين يدى الجاهليين ، وصبرت معه صبر الأكرمين ، ثم أدركتها الوفاة بعد خروجها ، فكان حزن النبى عليها عظيما ، ناهيك أنه ما نسيها طول حياته ، فحيا الله أم المؤمنين فى علّيين ، وآجرها أجر السابقين المقربين ![*] .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء التاسع ، رمضان سنة ١٣٥٨ هـ .

نظرة فى مناهضة المشركين للدعوة الإسلامية وما تنمّ عنه من العوامل

إن ما لقيه النبى ﷺ فى سبيل الدعوة الإسلامية ، وما لقيه أصحابه بسبب قبولهم لها يدل على أمور لا يجوز لكاتب السيرة المحمدية أن يغفلها ، وخاصة فى هذا العصر الذى ساورت أهله الشبهات فيه ، ليس على صحة الرسالة المحمدية فحسب ، ولكن على صحة جميع الرسالات ، فقد اشتدت وطأة المذهب المادى عليهم حتى أنكروا المحسوسات ، فإن لم يستطيعوا إنكارها أولوها تأويلات شتى ، وذهبوا يتلمسون لها عللا طبيعية ، للتوصل إلى إثبات أنها أمور إنسانية بحتة ، لا أثر لعالم الروح فيها ، إذ ليس لهذا العالم وجود حقيقى فى نظرهم . ولكنهم على الرغم من موقفهم هذا لا يمكنهم أن يتحلصوا من الاعتراف بخمسة أمور وهى :

(أولا) شدة مقاومة الجاهليين للدعوة الإسلامية ، دلت دلالة قاطعة على فساد ما زعمه خصوم هذا الدين من أن العرب كانوا وقت البعثة المحمدية وقبلها بقليل فى دور نهوض اجتماعى وأدبى ودينى .

(ثانيها) تصلب الذين دخلوا فى الإسلام حديثا فى التمسك بعقيدتهم إلى حد صبرهم على الاضطهادات العنيفة ، والاستشهاد فى سبيلها .

(ثالثها) حدوث انقلاب لا نظير له فى النفسية العربية بسبب الإسلام نفسه ، إذ أيقظ فيها العاطفة الدينية بكل ما هى عليه من تجرد وسمو وعظمة .

(رابعها) انتصار الدعوة الإسلامية على أمة برمتها فى حياة صاحبها حادث لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشر .

(خامسها) تحقق كل ما أنبأ به صاحب الدعوة من الحوادث الجسام التى قلبت خريطة العالم ، يدل على اتصاله بالعالم الروحانى الذى يُصَرِّف العالم المادى ويدبّره ، وهو من أقوى الأدلة على نبوته .

ونحن نعالج كل هذه الأمور لإثبات صحتها ، وبذلك نقضى على أمهات الشبهات التى يكثر من ترديدها خصوم الإسلام للإدلال على أنه دين بشرى :

الأمر الأول :

١ – إن شدة مقاومة الجاهليين للدعوة الإسلامية دلت دلالة قاطعة على فساد ما زعمه خصوم الإسلام من أن العرب كانوا قبل البعثة المحمدية فى دور نهوض :

لا أتخيّل أن من كانت عنده مسكة من المنطق يجسُر – مهما بلغت به الخصومة لمذهب – أن يدعى أن نجاح الدعوة الإسلامية فى بلاد العرب كان سببها أن هؤلاء كانوا فى دور نهوض اجتماعى وأدبى . ألا يرى أن النبى ﷺ لبث بين ظهرانىْ قريش ، وهى أنجب القبائل العربية ، ثلاث عشرة سنة يدعوها إلى عقائد تشهد بصحتها أوليات العقل فلم ترفع بدعوته رأسا ، اللهم إلا أفرادا من أهل قرابته ، وآخرين من ذوى العقول الممتازة الذين لا يخلو من أمثالهم أى مجتمع ، مهما كان متغلغلا فى الجاهلية ، وقد كانوا من القلة بحيث خضعوا لجميع صروب الاضطهادات ، فلما لم يجدوا منها مخرجا عمدوا إلى المهاجرة إلى الحبشة ، والهجرة إلى مثلها فى تعصبها لمسيحيتها ، وإسفافها فى جاهليتها ، ليس بالأمر الهين .

فلو كان لدى القرشيين نزوع إلى النهوض لوجدتْ هذه الدعوة إقبالا منهم ، فإن لم يكن إقبالا فتسامحا يهيىء النفوس للتطور الجديد المنتظر . ولكن الذى رأيناه أن ما قوبلت به هذه الدعوة من النفور والاستيحاش ، يقتلع فكرة النهوض من جذورها ويرمى بها إلى مكان سحيق . ألم تر أنهم ﴿ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ؟ (١) مِمَّ عجبوا ؟ ألم يسمعوا قطّ أن الله أرسل فى جميع العصور إلى الأمم منذرين حذروهم مما تورطوا فيه من الآثام ، فأى عجيب فى أن يرسل الله إليهم منذرا منهم ؟ لا جرم أن التعجب من هذا الأمر يدل على أنهم كانوا مطمئنين إلى حالتهم إلى حد أنهم ما كانوا ينتظرون أن يسمعوا من جراء التمادى فيها نذيرا ، ومن جسَر على ذلك منهم اعتبروه ساحرا كذابا !

وقد تمادوا فى وثنيتهم ، وجمدوا عليها إلى حد أنهم حسبوا أن الاعتقاد بالتوحيد أمر يوجب الدهش ، ألم يقولوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَـٰهاً وَاحِداً ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ؟ (٢) فأى عجب فى التوحيد يمكن أن يشتد حتى يصير عجابا ؟

---

(١) سورة ص ، من الآية (٤) .　　(٢) سورة ص ، الآية (٥) .

وهل هذه عقلية شعب فى حالة تطور أو على وشك التطور ؟

وما كفاهم أن يقتصروا على التعجب من التوحيد ، ولكنهم تآمروا على المقاومة ، وتحالفوا على نصرة الوثنية : ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ (١) أى أن كبراءهم انطلقوا قائلين : امشوا أيها الناس واثبتوا على آلهتكم إن هذا لأمرٌ هائل يراد بكم .

والأدل من ذلك على أنهم كانوا مجردين من بواعث النهوض ودواعيه الأولية ، قولهم كما حكاه الكتاب الكريم عنهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلَاقٌ ﴾ (٢) ، يريد بالملة الآخرة الديانة التى كان عليها آباؤهم . وهذا يسجل عليهم أنهم كانوا شديدى المحافظة على تقاليدهم لا يبغون عنها حِوَلا ، حتى إن كل ما جد من الأمور لا يقيمون له وزنا ما دام لم يرد إليهم من طريق ديانة آبائهم .

ويجرى هذا المجرى فى الدلالة على تجردهم من جميع الحوافز للنهوض قولهم كما حكاه القرآن الكريم عنهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٣) ، وقولهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ (٤) . وسجل عليهم الذكر الحكيم هذه الحال فقال : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ (٥) .

الأمر الثانى :

٢ – رسوخ المسلمين فى عقائدهم إلى حد صبرهم على الاضطهاد ، والاستشهاد فى سبيلها .

إن من يتأمل فى مدى الصبر الذى تحلى به المسلمون الأولون إزاء ضروب

---

(١) سورة ص ، الآية (٦) .

(٢) سورة ص ، الآية (٧) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٧٠) .

(٤) سورة الزخرف ، من الآية (٢٣) .

(٥) سورة الصافات ، الآيتان (٦٩ ، ٧٠) .

الاضطهادات الوحشية التى شنّها عليهم المشركون ، فى مدى ثُمن قرن ، يدهش من روح الاحتمال التى سهلت على أهلها مكابدة كل هذه المكاره .

إن تاريخ العالم حافل بصنوف الاضطهادات التى عومل بها المبتدعة والمخالفون ، سواء أكان مثارها خلافات دينية أم سياسية ، تكشف لنا مبلغ ما تستطيع العقيدة أن تمد صاحبها به من الصبر والثبات ، حتى تصل به إلى أقصى حدود البطولة ، ولكنا فى كل ما رأيناه لم نشهده فى طبقة العبدان والإماء ، كما شهدناه إبان الدعوة الإسلامية . فقد أتينا فى المقالين اللذين نشرا فى العددين الثامن والتاسع أن عدداً لا يستهان به من الأرقّاء ، ذكورا وإناثا ، دخلوا فى الإسلام ، فحمل ذلك ساداتهم على تعذيبهم بالحديد والنار ، فلم يرجع منهم واحد أو واحدة إلى ملتها ، فكان أبو بكر رضى الله عنه يشترى ما يعثر عليه منهم ويعتقه ، فيلتحق بالنبى ﷺ . ومنهم من صار من رجالات الإسلام حتى وصل إلى درجة عالية كبلال ، وكان مملوكا حبشيا ، صادفه الصديق يعذب بالنار لإسلامه ، فاشتراه وأعتقه ، ووجدت مواهبه الروحية والعقلية مجالا رحبا فى الديموقراطية الإسلامية الكريمة فوصل إلى دست الإمارة .

وهذه الحالة من الاستهانة بالحياة فى سبيل العقيدة فى أمة كالأمة العربية التى لا يحفظ عنها تاريخها كبير عناية بالدين ، تعتبر ظاهرة عجيبة ، ويزيدها قيمة أنها وقعت فى شعب غير متطور فى الناحية الدينية كغيره من الشعوب الكبيرة ، فلم يسمع فى تاريخ العرب كله أن قبيلتين اقتتلتا لنصر وثن على وثن ، أو لتأييد فهم جديد لأمر من أمور الدين .

الأمر الثالث :

٣ – حدوث انقلاب لا نظير له فى النفسية العربية بسبب الإسلام وحده ، إذ أيقظ فيها العاطفة الدينية :

هذه علة للأمر السابق ، فلولا أن الإسلام أيقظ العاطفة الدينية فى نفس الأمة العربية ، لما كان يعقل أن يتعصب له ناس فيقيمونه فى وسط ملة معادية له ذات كثرة ونخوة جاهلية ، ويقفون به وقفة بطولة راضين بأن ينالهم أشد ضروب الإيذاء

فى سبيله .

نعم إن النفوس البشرية لا تتجرد من العاطفة الدينية ، وكان للعرب الجاهليين قسط منها ، بدليل ما ورد من أخبار أصنامهم وأساطيرهم ، ولكن هذه العاطفة عندهم كانت ضعيفة إلى حَد بعيد جدا . ناهيك بأنه لم يكن ببلاد العرب كلها رجال رسميون للقيام بالخدمة الدينية ، كما كان موجودا ولا يزال موجودا فى كل أمة ، حتى أحط القبائل الافريقية والاسترالية . ليس هذا لأن العرب كان لهم رأى فيما يجب أن يقوم عليه الدين من الحرية ، فحذفوا طبقة رجال الدين ليخلوا السبيل لهذه الحرية ، إذ لو كان الأمر كذلك لما أجمعت عليه جميع قبائلهم ولم يكن بينها ترابط من أية ناحية كانت ، ولكُنَّا عثرنا فى تاريخهم على العهد الذى كانت فيه هذه الطبقة قبل أن تحذف ، ولكُنَّا توصلنا إلى معرفة الأسباب التى حملتهم على هذا الأمر الفذ الذى ليس عليه جماعة من الجماعات الإنسانية . ولمّا لم يكن شيء من ذلك فالعلة فى عدم وجود هذه الطبقة فى الأمة العربية واضح كل الوضوح ، وتؤيده جميع الدلائل ، وهو ضعف العاطفة الدينية لديها .

ومما يصح أن يتخذ دليلا محسوسا على هذا الضعف فى العاطفة الدينية ، عدم وحود كتاب مقدس لدى عرب الجاهلية ، يجمع بين دفتيه ما كانت تدين به من العقائد ، وتتوجه إليه من المقاصد الأدبية والروحية ، بل عدم وجود صحف أو نقوش تجمع هذه العقائد ، ولا يوجد أمة على سطح الأرض أو قبيلة ، مهما انحطت ، تتجرد مں هذا كله . فبعْث هذه العاطفة القوية فى قلوب أمة هى من أعصى أمم الأرض قيادا ، وأشدها عنادا ، يعتبر من الأمور التى لا يعقل حدوثها فى سنين معدودة ، فأى عقل لا يحار عندما يلقى بنظرة على الأمة العربية قبل البعثة المحمدية فلا يجد فيها غير حروب تشب نيرانها ، وغارات يثور عجاجها ؛ وعندما يتسع لما ينبعث من أصوات أهلها ، فلا يطرق أذنه إلا تصايح الأقران يناهد بعضهم بعضا ، وقعقعة اللُّجُم فى أفواه الجياد تجول فى ميادين القتال ، وصليل السيوف مُصْلَتَةً فى أيدى فرسان يصاول بعضهم بعضا ، ونبآت ترتفع بالتهديد والوعيد ، والتمادى فى المشارَّة [1]

(١) المشارّة : المخاصمة .

والانتقام ، وتفاخر بالآباء ، وتكاثر بالضحايا والويلات ؟ فإذا ألقى عليها بنظرة بعد البعثة وجد فيها سلاما ضاربا سرادقه فوق الكافة ، وأخوَّة محقت ما كان من آثار الجاهلية ، فأصبح فيها الناس ينعمون بنعمة المحبة والتكافل للنهوض بأعباء الحياة ؛ وإذا ألقى بسمعه تواردت إليه أصوات التالين والذاكرين ، والمستغفرين بالأسحار والمسبّحين ، وتكبيرات المصلين والطائفين ، والمتوسمين فى ملكوت الله والمتأملين ؛ قلنا : أى عقل لا يحار إذا شهد هذا الانقلاب الذريع وتدبره ، وخاصة إذا أراد تعليله فرأى أن العلل الطبيعة لا تجازف فى محاولته ؟

هذا المنظر وحده يشهد برسالة النبى ﷺ ، ويؤيد أن هذا الدين روح من أمر الله أنزلها على العرب ، كما أنزلها على غيرهم من الأمم ، فقامت تنفذ ما أراد الله أن يتم على يديها من الأحداث العالمية الخطيرة .

فإن قلتُ بعد هذا إن هذا انقلاب لا نظير له فى تاريخ البشرية فلا أعتبر مبالغا ، فقد أحفيت فى مطالعة تواريخ الجماعات ، وخاصة إبان الدعوات الدينية ، فلم أعثر على مثال مما أنا بصدده .

الأمر الرابع :

٤ – غلبة الدعوة الإسلامية على أمة برمتها فى حياة صاحبها حادث لم يعهده الناس فى تاريخ وجودهم :

إن تغلب الدعوة الإسلامية ، بعد كل هذه الاضطهادات الشنيعة ، والمقاومات العنيفة ، على أمة برمتها ، تغلبا (إقناعيا) بدون إجبار ، يعتبر أمرا خارقا للعادة ، وليس له شبيه فى تاريخ أية أمة من الأمم ، ولا أية دعوة من الدعوات الدينية أو السياسية .

هنا يعترض علينا بعضهم فيقولون : كيف تقول لم يكن فيه إجبار ، أنسيت تلك الحروب الطاحنة بين النبى ﷺ وبين قريش ، وبينه وبين القبائل فى مدى عشر سنين ؟ فلولا الإجبار لكان المسلمون فى جزيرة العرب قلة لا تبلغ نصف عشر مجموع أهلها .

نقول : أو نسيت أن النبى ﷺ دعا إلى الإسلام وحيدا ، فأول من لباه زوجته ، ثم أفراد من أسرته ، ثم بعض معارفه ، وكلهم لم يبلغوا أن يحموا أنفسهم ، فسيموا الخسف ، وعوملوا بالعسف ، حتى اضطروا للهرب بدينهم إلى بلاد ليس بيها وبينهم صلة ، تخيلوها أرحم بهم من قومهم ، ثم اضطر النبى نفسه إلى الهجرة مستترا ؟

إن قلتَ لم أنس ذلك كله ، قلنا : فهل بلغك أن النبى ﷺ هاجر إلى قوم لبّوا دعوته سرا فى بعض أيام الحج ، وعاهدوه على أن يحموا دعوته ضد الأبيض والأسود ولو فنوا على بكرة أبيهم فى هذه السبيل ؟

إن قلتَ بلغنى ذلك ، سألتك فأين الإكراه بعد هذا ؟ إن كل دعوة فى الأرض متى تحصلت من طريق الإقناع على أنصار يكفون لحمايتها وإذاعتها ، أمنت أن تتهم أنها انتشرت بالإكراه وإن سلكت طريق الإكراه فى حمل بعض الجماعات على مشايعتها . فقد يكون فى بقاء تلك الجماعات مشاقةً لها خطر على كيانها ، فيكون من حقها الاستيثاق لوجودها . أرأيت إن كانت حكومة ملكية تقوم بإزائها جماعة ترمى إلى قلبها جمهورية ، وقامت هذه الحكومة تأمينا لسلامتها بإجبار خصومها على الخضوع لها ، أيقال فى هذه الحالة إن هذه الحكومة بقيت ملكية بالإجبار ؟ أم يقال إنها عملت ما يجب على كل حكومة أن تعمله فى مثل هذه الحال ؟

إذ لم يكن هذا سائغا فلا يعقل أن تقوم جماعة منتظمة فى الأرض ، لأن الخلافات الدينية والسياسية لا يمكن ملاشاتها ، فيكون من الحق الطبيعى للكثرة التى تتولى الأمر أن تعمل ما يحفظ كيانها فى حدود العدل ، والحرية الشخصية .

وهذا ما فعله الإسلام فإنه بعد أن حصل من طريق الإقناع على جماعة تؤيده ، ودافع عن نفسه بها ضد الغارات التى تواترت عليه من خصومه ، رأى أن وجوده سالما ، وأداءه للرسالة التى شرع من أجلها لا يمكن أن يكون إلا بعد تطهير بيئة الإسلام من الوثنية التى لا تفتأ تهدد بالانتقاض عليه فى كل وقت ترجّى فيه أن تتغلب عليه . وقد حدث ذلك بعد وفاة النبى ﷺ إذا ارتدت قبائل العرب ، ونَدَّت كما تَنِدّ الإبل غَفَل عنها قائدها ، فأعاد أبو بكر رضى الله عنه الأمر إلى نصابه ،

وأجبر هذه العناصر الجاهلية على لزوم الطاعة .

والمعترض حين يفترض أن الأمة العربية برمتها خضعت لدعوة فرد واحد من طريق الإكراه يسجل عليها الذل والاستكانة إلى حد لم يشاهَد له شبيه فى تاريخ الجماعات الإنسانية قاطبة .

فإذا حاول تخفيف هذا الحكم القاسى ، وقال إنه لولا الإكراه لما بلغ عدد الذين دانوا للإسلام نصف عشر الأمة العربية ، فإنه لا يستفيد من هذه المحاولة كبير شيء ، ويتخلف من قوله أمر واحد يوجب الدهش ويسأل عن سببه ، وهو استطاعة نصف العشر التغلب على التسعة الأعشار والنصف ، فإذا صح هذا القول كان معناه أن الإسلام روح إلهية تقلب كيان الآخذ به وتنفث فيه قوة لا تمكن مغالبتها ، حتى أن الأمة لو أخذ به منها نصف عشرها استطاع أن يتغلب على مجموعها . وهذه النتيجة لا يحب أن يصير إليها المعترض ، وهى حقيقة ثابتة أيدتها الحوادث ، فماذا تبلغ قوة قبيلتى الأوس والخزرج إزاء قريش ، بَلْه سائر القبائل العربية ؟ وقد رأيت أنهما تغلبتا على جميع القبائل بفضل الروح التى بثها فيها الإسلام لا بفضل شيء آخر ، فقد كانتا فى الجاهلية ليستا على شيء من التفوق ، ولم يعهد عنهما أعمال بطولة نادرة ، والمعروف عنهما أنهما كانتا فيما بينهما فى حروب مستمرة وهما ولدا عم .

لا جرم أن غلبة الدعوة الإسلامية على أمة برمتها فى حياة صاحبها حادث لم يعهد له نظير فى العالم أجمع ، فى كل أدواره التاريخية . فلو كانت هذه الدعوة قوبلت فى أول ظهورها باستحسان أو بفتور لا يتعدى حد القول والإيماء ، لهان على المعترض تعليل غلبتها على جميع الدعوات . ولكنها قوبلت بعاصفة هوجاء من الاعتراضات ، لم تلبث أن استحالت إلى اضطهادات قاسية توقعها نفوس عاتية ، ثم لم تلبث هذه الاضطهادات أن تطورت إلى حروب طاحنة ، فمثل هذه الدعوة التى تقابل هذه المقابلة ، لا يعقل أن تستسيغها النفوس إلا بعد أدوار كثيرة من التطورات العقلية والنفسية ، أما حصولها بالسرعة التى حصلت بها وفى حياة صاحبها فتعتبر معجزة يقل لها أن تسمى معجزة .

ثم لو نظرت فرأيت أنها بقيت بعد موت صاحبها ، ونمت نموا عظيما ،

وتفرعت شجرتها إلى كل اتجاه ، وأثمرت ثمرات لفتت بها نظر العالم إليها ، ولم تزل تثمر حتى شهد بخصبها جميع أهل الأرض ، كل هذا يدل على أن هذه الدعوة روح إلهية من نوع الأرواح التى يرسلها الحق لإحداث الانقلابات الكبيرة فى الأرض ، ولكنها فى هذه المرة دعيت لإحداث أكبر حدث عرفه البشر تغير له وجه الأرض ، ولمّا تَفْرُغ من مهمتها بعدُ .

الأمر الخامس :

٥ – تحقق كل ما أنبأ به صاحب الدعوة من الحوادث الجسام قبل حدوثها ، يدل على اتصاله بالعالم العلوى ، وهذا من أقوى الأدلة على نبوته :

من أعجب ما لازم الدعوة الإسلامية من علامات النبوة ، والمسلمون واقعون تحت كلا كل الاضطهادات الغاشمة ، وبعضهم كان هاربا بدينه عَبْرَ البحر ، والبعض الآخر لا يكاد يخرج من بيته مخافة أن يتخطف ، تأكيدات الحق جل وعز بأن الله سينصر أهلها على أعدائهم ، ويجعل كلمتهم العليا وكلمة الجاهليين السفلى . فلا مشاحة فى أن هذه التأكيدات تعتبر من أعلام النبوة .

ومما هو مدهش محير للعقل ، ولا يقبل التعليل إلا بالنبوة ، مجىء بعض هذه التأكيدات على حالة يخيل للمتأمل فيها عند نزولها أنه مبالغ فيها ، ذلك مثل تبشير المؤمنين بأنهم سيخوّلون خلافة الله فى الأرض ، نزلت هذه الآية حين كانوا بعد هجرتهم يبيتون ويصبحون فى سلاحهم قائلين : هل يأتى علينا حين من الدهر نؤدى فيه شعائرنا آمنين فى سربنا ، مطمئنين على وجودنا ؟ وهو قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ [١] .

---

(١) سورة النور ، الآية (٥٥) .

وقد تحقق مؤدى هذه الآية ، فآلت إلى الأمة الإسلامية خلافة الله فى الأرض . والمراد بالخلافة كما هى فى الآية الكريمة زعامة العالم ، لا الخلافة فى الحكم ، بدليل قوله تعالى فى تلك الآية : ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ .

ومما ينتظم فى هذا الباب من التنبؤات الدالة على الانقلابات الجسيمة المقدرة للبلاد العربية قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ (١) . لما نزلت هذه الآية لم يكن حدث بين المسلمين والمشركين قتال ، إذ كان نزولها أول وجودهم بالمدينة ، فقال عمر رضى الله عنه لما سمعها : « لم أعلم ما هو ، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يلبس الدرع ويقول : سيهزم الجمع » . وقد اعتبر مفسّرو القرآن الكريم هذه الآية من أعلام النبوة ، وإنها لكذلك ، فقد كان عدد المسلمين فى هذه الموقعة الكبيرة لا يبلغ ثلث عدد الجيش المغير ، ولكنه هزم شر هزيمة بعد ما هلك من قادته من لا يمكن تعويضهم .

ومما ينسلك فى هذا السلك قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

وقد كان النبى ﷺ قد تطوع بعض أصحابه لحراسته من الجاهليين ، فلما نزلت هذه الآية أخرج رأسه من حجرته وقال لحراسه : انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله من الناس . وهذه من أقوى دلائل النبوة كسابقتها . وإلا فمن يستطيع أن يؤكد أن رجلا يتصدى لأمة برمتها ، يطعن فى ديانتها ، ويحقر من آلهتها ، ويسلم بنفسه منها ، على كثرة ما كان يُتقصد بالأذى ، حتى أجمعوا أخيرا على محاصرته فى بيته ، واشتراك جميع القبائل فى قتله . وقد قُصد بالقتل بعد ما هاجر إلى المدينة ، وخاض غمرات الحروب بنفسه ، فسلمه الله من جميع أعدائه .

---

(١) سورة القمر ، الآيات (٤٤ – ٤٦) .

(٢) سورة المائدة ، الآية (٦٧) .

ومما يتفق وهذا الموضوع قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَياةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (١) .

وقد تحقق هذا الوعد وانتصر رسول الله ﷺ على جميع أعدائه أعداء الله وأنفسهم ، وانتشر الإسلام وعم نوره الأرض كما قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) ، وهذه الآية الأخيرة أيضا من أدل دلائل النبوة ، وفى القرآن من هذا كثير .

ومما يعتبر غاية فى تحدى أعداء الإسلام قول الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَّنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ، (أى فليمدد بحبل إلى سقف بيته ثم ليختنق ، فإنّ قَطَع بمعنى اختنق) ، فَلْيَنْظُرْ ، هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (٣) (*) .

★ ★ ★

---

(١) سورة غافر ، الآية (٥١) .

(٢) سورة التوبة ، الآية (٣٢) .

(٣) سورة الحج ، الآية (١٥) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء العاشر ، شوال سنة ١٣٥٨ هـ .

هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة

بدء تألف الأنصار للدعوة الإسلامية :

كانت يثرب ، وهى التى اشتهرت باسم المدينة ، يسكنها قبيلتان : بنو الأوس ، وبنو الخزرج ، وكان الأوس والخزرج أخوين ، وكان بين أولادهما وأحفادهما من التنافس مالا يكون مثله إلا بين الأعداء الألداء ، وكان يجاور هاتين القبيلتين بيثرب قبائل لجاليات يهودية هاجرت من مواطنها ببلاد الدولة الرومانية هربا بدينها من اضطهاد المسيحيين ، فكان بنو الأوس وبنو الخزرج يتفقون مع بعض جماعاتهم لمحاربة بعضهم لبعض . واتفق أن حدثت بينهم حرب ، دعيت يوم بُعاث على عادة العرب من تسمية حروبهم بالأيام ، أتت على أكثر قادتهم . فرأى بنو الأوس أن يحالفوا قريشا على أولاد عمهم الخزرج ، فأرسلوا وفداً منهم تحت قيادة إياس ابن معاذ ، وأبى الحيسر أنس بن رافع ، يفاوضون قريشا فى عقد هذا الحلف .

فلما بلغ النبى ﷺ خبر قدومهم جاءهم وقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ أن تؤمنوا بالله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، وقد أرسلنى الله إلى البشر كافة ، وتلا عليهم آيات من القرآن الحكيم .

فقال إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئنا له ، فعارضه أبو الحيسر وقال له : لقد جئنا لغير هذا ، فسكت إياس .

فلمّا جاء موسم الحج تقدم رسول الله ﷺ لرجال من الخزرج عددهم ستة ، ودعاهم إلى الإسلام ، فشرح الله له صدورهم ، وقبلوه دينا لهم ، وقالوا لرسول الله : إنا تركنا قومنا وبينهم من السخائم ما بينهم ، فإن يروا رأينا فى الإسلام فلا يكون رجل أعز لدينا منك ، ووعدوه باللقاء فى الموسم المقبل .

فلما أقبل الموسم قدم إلى مكة اثنا عشر رجلا للتفاوض مع النبى ﷺ ، منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، واجتمعوا برسول الله عند العقبة ،

واتفقوا معه على الإسلام ، وبايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان ولا يعصوه فى معروف . وقد سمى هذا الاتفاق ببيعة العقبة الأولى .

ولما أزمعوا العود إلى يثرب أصحبهم النبى ﷺ رجلين من خيرة رجاله : مصعب بن عمير العبدرى ، وعبد الله بن أم كلثوم ، ليذيعا الإسلام فى القبيلتين ، ويدعُوَا إليه ، ويعلّما من يدخل فيه .

فنزل مصعب على أحد الذين بايعوا رسول الله وهو أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وأخذ يدعو الناس للإسلام . فلما نمى الخبر إلى سعد بن معاذ رئيس الأوس ، قال لابن عمه أسيد بن حضير : يا ابن عم ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين يفتنان ضعفاءنا لتزجرهما ؟

فنهض أسيد بن حضير يريدهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، مضيف مصعب ، قال له : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدُق الله فيه .

فلما حاذاهما قال لهما : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلا إن كان لكما بنفسيكما حاجة .

فقال له داعية الإسلام مصعب : ألا تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره ؟ فجلس ، فقرأ عليه مصعب آيات من القرآن فيها هدى وبلاغ ، فوقعت من قلبه أرفع موقع ، فلم يقم من مجلسه إلا مسلما .

فلما عاد أسيد بن حضير إلى رئيسه سعد بن معاذ سأله عما فعل ، فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأسا .

فاستشاط سعد غضبا وقام لهما بنفسه ، فقابله مصعب بما قابل به رسوله ، فلم يتمالك نفسه بعد سماعه ما سمع إلا أن أسلم ، وكان إسلامه خيرا وبركة ، فإنه لما عاد لقى رجالا من بنى عبد الأشهل وهم من الأوس وقال لهم : ما تعُدُّوننى فيكم ؟ فأجابوه أنت سيدنا وابن سيدنا ، فقال : كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تسلموا .

فلم يبق بيت من بيوت بنى عبد الأشهل إلا أجابه ، وسُرْعان ما عم الإسلام يثرب كلها و لم يبق لأهلها حديث غيره .

بيعة العقبة الثانية :

لما أقبل العام التالى لعام البيعة الأولى ، قدم مكة كثيرون من أهل يثرب ، فلقى النبى ﷺ مسلميهم ، فواعدوه الاجتماع ليلا عند العقبة ، فأمرهم أن يتلطفوا فى المجيء ، وأن لا يشعروا بهم أحدا ، لكى لا يتنبه لهم القرشيون ، ويعملوا على منع اجتماعهم . فلما مضى ثلث الليل الأول خرجوا من مضاربهم يتسللون تسلل القطا إلى مكان الاجتماع ، وما زالوا يحتشدون حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلا ، منهم اثنان وستون من الخزرج ، وأحد عشر من الأوس ، ومعهم امرأتان ، ووافاهم رسول الله ﷺ ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه وإنما جاء معه ليشد أزره . ولما أنصتوا ليسمعوا ما يلقى إليهم ، قال لهم العباس : إن ابن أخى محمدا فى منعة من عشيرته لم يمكنوا منه أحدا ، وقد تحملوا فى ذلك أعظم العنت ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه به من الحماية ، ومانعوه ممن يتقصده بسوء ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإلا فدعوه بين عشيرته يحمونه بما يصل إليه جهدهم .

فقال كبير القوم البراء بن معرور : والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق ، وبذل أنفسنا دونه .

عند ذاك قال القوم للنبى ﷺ : خذ لربك ولنفسك ما أحببت .

فقال : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم .

فقال له الهيثم بن التَّيِّهان : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال عهودا ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم ﷺ وقال : بل الدم الدم ؛ والهدر الهدر . أى إن طالبتم بدم طالبت

به معكم ، وإن أهدرتموه أهدرته .

ثم بدأت المبايعة على ما طلب . ولما تمت اختار منهم اثنى عشر رجلا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، لكل عشيرة منهم واحد ، والتفت إليهم قائلا : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى

فبلغ قريشا أمر هذا الاجتماع فهالهم ، ولقوا أهل يثرب وقالوا لهم : يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا ، وتبايعونه على حربنا . فأنكر مشركوهم ذلك ، لأنهم لم يشعروا به ، وحلفوا لهم أنه لم يحصل منهم شىء فى ليلتهم ، وقال لهم رئيسهم عبد الله بن أُبَىّ ، ما كان قومى ليفتاتوا علىَّ بشىء من مثل هذا .

يثرب معقل الإسلام :

لما عاد وفد الأوس والخزرج إلى مدينتهم شاع فيها الإسلام ، وتحققت قريش من ذلك أن ما كان بلغها من ممالأة أهلها للنبى ﷺ صحيح ، وأدركت ما يتتى على إغضائها عنه من الأحداث والكوارث ، فشددت الرقابة على رسول الله ، وزادت فى التضييق على أصحابه لتحملهم على الانفضاض من حوله . فأمرهم ﷺ بالفرار بدينهم إلى المدينة ، فأخذوا يتسللون إليها خفية ، حتى لم يبق فى مكة غير أبى بكر وعلى وصهيب الرومى وزيد بن حارثة وقليل من المستضعفين الذين لا يستطيعون الانتقال . وأراد أبو بكر الهجرة ، فقال له النبى ﷺ : على رِسْلك فإنى أرجو أن يؤذن لى . فقال الصديق : وهل ترجو ذلك ؟ قال نعم . فمكث أبو بكر مع رسول الله ليهاجر معه ، وأخذ فى إعداد راحلتين كانتا له وتغذيتهما ورق السَّمُر لتقويا على تحمل مشاق السفر .

مبادرة قريش إلى اتخاذ قرارات خطيرة :

لم تكتف قريش بما اتخذته من رقابة ، وما بالغت فيه من اضطهاد ، ورأت أن أمر رسول الله قد استفحل بما أصبح له من علاقات خارجية تُفضى لا محالة إلى نشوب حروب طاحنة ، ونشوء كوارث ماحقة ، لذلك دعت رجالاتها إلى الاجتماع للمشاورة فى دار ندوتهم ، على عاداتهم فى الشئون الهامة ؛ وكانت هذه

الندوة دار قصى بن كلاب .

فلما التأم جمعهم أخذوا يتآمرون ، فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا كى نستريح منه .

فرد عليه بعضهم بقوله : إذا خرج فيوشك أن تجتمع عليه الجموع فلا نأمن غائلته ، ونجد منه ومن مناصريه عنتا .

وأدلى واحد آخر برأيه فقال : نحبسه حتى يأتيه الموت .

فعارضه بعض المؤتمرين بقوله : إذا فعلنا ذلك فلا نأمن أن يجىء أنصاره بيثرب لتخليصه ، فتقع الحرب بيننا وبينهم .

هنا انبرى شيخ منهم وقال : الرأى عندى أن تشترك جميع بطون قريش وأفخاذها وعشائرها فى قتله ، بأن نندب من كل منها شابا فيجتمع عليه هؤلاء الشبان فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل فلا تقوى عشيرته على حرب قريش كلها ، ويرضون بأخذ ديته . فقبل جميع المؤتمرين هذا الرأى ، وأصروا على تنفيذه .

فأوحى الله إلى رسوله بما بيّته له قومه ، وأمره أن يهاجر إلى يثرب ليلحق بأنصاره هنالك ، ويستقبل من أمر الدعوة عهدا جديدا .

نظرة علمية فى هذه الحوادث :

قبل أن نأتى على تفصيلات الهجرة النبوية ، وما احْتَوَشتْها من محاولات القرشيين فى منعها وتعقبها ، رأينا أن نقف فى هذا الموطن هنيهة للنظر فى التعليلات التى أبديت لتفسير الإسلام الفجائى لقبيلتين لا تمتان بسبب إلى أية دعوة دينية ، ولا يعنيها من أمر النهوض الاجتماعى للأمة العربية ما لا يعنى غيرها . فإننا نرى أن تلك التعليلات ، حتى الإسلامية منها ، لا تقنع الخبيرين بعوامل التطورات النفسية والاجتماعية ، ولا تبين من حقيقة هذا الأمر الجلل ما يجب أن يُعرف ، وخاصة فى هذا العصر الذى لا ينخدع أهله بالخِلابات الكلامية .

إنى أرى فى هذا الأمر حادثا اجتماعيا لم يسجل تاريخ التطورات النفسية

والاجتماعية له مشبها ، فإن كان كل ما لا يمكن تعليله بعلة طبيعية يعتبر آية ، فهو آية يزيدها مر الأيام جلالا وعظما . ولكن المدار على وضع هذه المسألة وضعا علميا تصلح معه لأن تحلل إلى عناصرها الأولية .

وفى نظرى أن بيان هذه الناحية من قوة السَّريان فى الديانة الإسلامية ، وفى سرعة تلقف النفوس لها ، والتأثر بها إلى أقصى حدود التضحية ، يكشف من أسرار هذا الروح الإلهى ، وهو الإسلام ، ومن صحة رسالة الداعى إليه ، وهو محمد ، ما لا تكشفه أية ناحية أخرى .

علل كتاب السيرة المسلمون هذا الأمر الجلل بأن اليهود الذين كانوا مجاورين لأهل يثرب كانوا يتحدونهم بقولهم لهم : إن نبيا يرسل آخر الزمان من بلاد العرب ، فإذا ما ظهر اتبعناه واتفقنا معه عليكم وقهرناكم . فلما بعث النبى ﷺ ودعا للإسلام ، تذكر أهل يثرب ما كان يهددهم به أعداؤهم ، وقال بعضهم لبعض : هلم بنا إليه ، لا يسبقنا الاسرائيليون إلى اتباعه . ثم ما كان منهم إلا أن تسارعوا إلى تلبية ندائه ، واضطلعوا من مهام نصرته بما لا يقدم عليه إلا المتفانون فى ولائه .

هذا التعليل الذى تناقله جميع كتاب السيرة ، ويفرح به الذين لا يرون فى حوادث الدعوة الإسلامية إلا أمورا عادية يمكن تعليلها بعلل طبيعية ، لا يسلم من النقد ، بل لا يقوى على احتماله ، لأن أهل يثرب لم يدخلوا فى الإسلام ، ولم ينتدبوا للاضطلاع بالدفاع عنه ، إلا بعد أن مضى على إعلان النبى ﷺ له نحو ثلاث عشرة سنة ، فأين كانوا من الإسلام طَوال هذه المدة ، وكيف لم يخشوا أن يسبقهم إليه اليهود الذين توعدوهم به ، ولم أحجم هؤلاء اليهود عن المسارعة إلى قبول دعوته ، وقد بلغتهم بمكة وبالمدينة أيضا قبل إسلام الأوس والخزرج بسنين كثيرة ؟

ألا يدل هذا الانصراف الطويل من الجانبين على أنهم كانوا لا يفكرون فى الاستنصار بالنبى الجديد على مناهضيهم ؟

وإذا صح أن اليهود كانوا يعتقدون بوشك ظهور نبى فى بلاد العرب ، وأنهم يعولون على الانضمام إليه ، والاستنجاد به ، أكانوا يصرحون بذلك لأعدائهم غير خاشين أن يسبقوهم إلى الدخول فى دينه ، ولم يعهد فى تاريخ بنى إسرائيل أنهم

كانوا من إفشاء أسرارهم بحيث يطلعون أعداءهم على صميم سرائرهم ؟

وإذا كان هذا مما لا يمكن قبوله ، فهل يمكن قبول أن الأوس والخزرج كانوا من السذاجة بحيث يصدقون كلام اليهود ، ويبادرون إلى الدخول فى دين جديد ، وخاصة إذا كان الداعى إليه مضطَهدا ، وأصحابه مستضعفين لا يغنون عن أنفسهم شيئا ؟

كان ميلهم إلى الدخول فى طاعته ، إذا كان لديه رجال ومال يرجون أن يتقووا بهم على أعدائهم ، مما يمكن أن يعقل ، أما والنبى نفسه كان يطلب إليهم الحماية والنصرة على أعدائه ، وليس لديه مال ولا عتاد يمكن الاعتماد عليهما ، فممّا يستحيل تعقله ، وخاصة لأن الاتفاق معه يوقعهم فى حرب مع قريش ، فكيف يصدر من قوم عقلاء أن يستكثروا من الأعداء فى الوقت الذى كانوا فيه يريدون الاستكثار من الأنصار بطلبهم محالفة قريش ؟

أجمع كتاب السيرة على أن الأوس كانوا أوفدوا رجالا منهم لطلب معونة قريش ، وأن النبى ﷺ قابلهم ودعاهم للإسلام فقبلوه ، فكيف يتفق هذا وما قالوه من أن الأوس والخزرج بادروا إلى الإسلام للاستنصار بالنبى ﷺ على أعدائهم ؟

لم يبق إلا أن يقال إن هؤلاء اليثربيين أسلموا لأنهم تحققوا أن الله ناصر رسوله لا محالة ، وأنهم بالدخول فى طاعته يضمنون التغلب على خصومهم ، وهذا مما لا يسيغه العقل ، ولا يمكن أن يقبله العلم ، وتدل ما جريات الحوادث على خلافه .

فأنى لقبيلتين جاهليتين أن تعتقدا برسالة لم يقم دليل على صحتها ، بل لا تزال مضطهدة ، مغلوبا على أمرها ، ولم يظهر بعدُ ما يدل على أن العاقبة ستكون لها ، وليستا أهل كتابٍ ، ولا تعرفان من أمر النبوات إلا ما يترامى إليهما من أحاديث عامة اليهود فى بلادهما ؟ وأنّى لآحادها أن يحصلوا إيمانا راسخا يسمح لهم أن يبيعوا أنفسهم ، ويبذلوا أموالهم ، فى سبيل نصرة ديانة لم يتم تكونها بعد ؟

بعض هذا لم يعهد فى طبيعة البشر ، فما ظنك به كله طفرة وعلى غير انتظار ؟

لننظر فى تعليلات غير المسلمين :

يقولون : إن الحرب التى كانت قائمة بين الأوس والخزرج كانت قد طال

عهدها وأصبحت علة مزمنة دفعتهما لطلب المخرج منها بأى ثمن ، فلما انتشرت الدعوة الإسلامية رأتا أن خير وسيلة لوضع حد لذلك التناحر ، أن يدخلا فى الدين الجديد ، ويعودا إلى سالف صفائهما بسببه ، فأقدما على ما أقدما عليه .

نقول : فهل كان غاب عن الأوس والخزرج أنهما بالحصول على السلام بينهما بهذا الثمن يستجلبان عداوة قريش وحلفائها ، ومن يهمه ملاشاة الدعوة الإسلامية من سائر العرب ، فتقعا فى شر مما هربت منه ، وتصبحا هدفا لسخط العرب واليهود معا ؟

أما توهّم أن قريشا كانت تغضى عن محمد وعنهما فمستحيل ، لأن العرب كانوا يتقاتلون لأضعف الأسباب كسبق حصان ، أو قتل ناقة ، أو قصيدة هجاء ، فهل كانت تغضى قريش ، وهى القيّمة على دين العرب ، عن إيواء قبيلتين رجلا منها يسب آلهتها ، ويحقر ديانتها ، ويسفه أحلامها ، ويتوعدها بالشر ، ويستهوى الناس لاتباعه ، حتى إذا ما قوى شأنه ، أغار عليها فأزال سلطانها ، وحطم أصنامها ، وأباد خضراءها ؟

اللهم لا ، وكان الأوس والخزرج يعلمون ذلك ولا يتجاهلونه ، فهل كان بلغ بهم اختلال العقل إلى جلب عدد لا يحصى من الشرور على أنفسهم فى سبيل التخلص من شر واحد يمكن أن يُتقى بوسائل كثيرة ؟

الخيال فى هذه المواطن خصب ، فيمكن أن تُنتحل لدخول الأوس والخزرج فى الإسلام فجأة أسباب معاشية ونفسية واجتماعية ، فيقال مثلا : إنهم أرادوا بالانضمام إلى دعوة دينية أن تمهد لهم سبل الغارات والفتوح ، فيغنموا ويثروا تحت ستار إقامة الحق فى الأرض .

أو أن يكونوا قد تهذبت نفوسهم ، وتطورت عقولهم ، فكرهوا أن يقيموا على وثنية منحطة كالتى كان يدين بها العرب ، فلما ظهر دين التوحيد الخالص تسارعوا إلى اتباعه .

أو أن يكونوا قد ترقى شعورهم القومى فكرهوا أن يبقى العرب على الحالة القبيلية إزاء أمم العالم ، وتاقوا لأن ينتقل مواطنوهم درجة أو درجات فى سلم

الاجتماع ، ورأوا أن هذا لا يكون إلا تحت ستار دعوة دينية ، أو نعرة جنسية ، فلما بعث النبى ﷺ ودعا إلى التآلف والتحاب اتبعوه لتحقيق غرضهم الشريف .

كل هذه خيالات لأن الأوس والخزرج لم يكونوا فى حالة يرجون معها أن يوسعوا على أنفسهم دائرة التناحر ، أو ينهضوا للفتوح دون أن يعتمدوا على ركن ركين من مال وجاه .

ولم يعرف عنهم تهذب نفسى ، وتطور عقلى ، يدفعانهم إلى تطلب غذاء روحى أرقى مما لغيرهم من سائر العرب . فإذا كانت قريش على كثرة صِلاتها بالقبائل ، وانتقالاتها إلى الخارج ، لم تبلغ مثل هذه الدرجة ، فيصعب أن يتصور العقل أن تبلغها قبيلتان متناحرتان ، لم تدع لها حالة الحرب فرصة صالحة للتفكير فى الشئون الدينية والاجتماعية . وهذه الأمم المتمدنة أمامنا متى وقعت فى حرب تجردت للنضال ، وتركت هذه الشئون جانبا ، حتى يجىء عهد السلام ، وتتفرغ للتأمل والتفكير هادئة مطمئنة .

بقيت شبهة يمكن أن يتذرع بها متلمس التعليلات الطبيعية ، وهى أن قبيلتى الأوس والخزرج بَرِمتا باليهود إلى حد تلمس المخلص منهم من أى وجه كان ، فترامتا على الإسلام رجاء أن تصادف فيه مخرجا .

هذه الشبهة لا تقوى على النقد ، لأننا رأينا أن الأوس والخزرج كان بعضهم يتفق مع بعض قبائل اليهود على بعض ، فكان البأس الشديد بينهم وبين أنفسهم ، لا بينهم وبين اليهود .

على أننا نقول : من أية النواحى كانوا يرجون المخلص بالدخول فى الإسلام وهو يحملهم أعباء حربية جديدة ، ويدفعهم إلى التورط فى منازعات لا تعتبر منازعات اليهود بجانبها شيئا ، منها عداء قريش ، وعداء جميع قبائل العرب ، ويزيد عليهم اليهود أيضا ؟

فهذه الافتراضات كلها كما ترى خيالية ، ولا يمكن أن يقام لها وزن فى تعليل مثل هذه الانتقالات الفجائية ؟

فلم يبق أمامنا إلا تعليل واحد ، وهو أن قيّم الوجود تعلقت إرادته أن يحدث فى العالم الإنسانى انتقالا جديدا ، بإرسال خاتم للمرسلين اصطفاه من بلاد العرب ، أبعد بيئات العالم عن توليد الانقلابات الاجتماعية ، ليكون أمره كله إعجازا فى إعجاز ، فبث فى رُوع قبيلتين منها هداية إجماعية ، وهو أمر بعيد الحصول فى عالم التطورات العقلية ، فقبلتا أن تضطلعا بعبء حماية الدعوة الإسلامية ضد الأبيض والأسود ، أى ضد العالم كله ، وهى مهمة تعتذر عن قبولها أمة عظيمة ، فما ظنك بقبيلتين صغيرتين لا يتجاوز عدد أهلهما خمسة آلاف نسمة ، ولا تستطيعان أن تلقى فى ساحة الوغى أكثر من ألف رجل على أكبر تقدير ، وليس لهما من المال ما تنفقانه على مثل هذا العسكر سنة واحدة .

ما هذا الإقدام المحير للعقل من جماعة من الناس لو توجهت إليها حفيظة أمة برمتها لخروجها عليها ، لارتعدت فرائص أشجع أبطالها ؟ بل ما هذه التضحية التى لا يقبلها إلا من وصل الإيمان إلى أعماق قلبه ، حتى فنيت فيه شخصيته ، وأين هو من الأوس والخزرج و لم يجتمعا بالنبى ﷺ إلا لحظات مختلسة فى الليالى المظلمة ؟

لو كان لمحمد مال ، أو مدد من الرجال ، أو اتصال بأمة عظيمة تنصره إذا اقتضت الحال ، لقلنا إن الأوس والخزرج إنما مالوا إلى حيث يرجون العز والسؤدد ، ولكنهم حيال رسول عدم الناصر من قومه ، وليس يتوقع له فوز يطمع فى خيره ، فما الذى جمعهم على التطوع لنصرته ، والتضحية بنفوسهم فى سبيل دعوته ؟

اللهم إنى عجزت عن تعليل هذا الأمر الجلل بالعلل الطبيعية ، ولا أراه إلا آية إلهية ، وكم فى الأرض والسموات من آيات يتخيلها الجاهلون أمورا عادية (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الأول ، المحرم سنة ١٣٥٩ هـ .

هجرة النبى ﷺ إلى المدينة

انتهى أمر قريش إلى التآمر على حياة النبى ﷺ على حالة لا تمكّن عشيرته من الثأر له ، فتكتفى بقبول الفدية عنه ، وذلك جريا على رأى أحدهم فى أن يشترك فى ضربه بالسيف شاب من كل بطن من بطون قريش وأفخاذها ، فيتفرق دمه فيهم جميعا ، فلا تقع حرب بسببه . وقرروا البدء فى العمل من فورهم .

فأنبأ الله رسوله بما استقر عليه رأى المشركين ، وأمره باللحاق بأصحابه فى المدينة ، فجاء من ساعته إلى أبى بكر وأخبره أن الله قد أذن له فى الهجرة ، فطلب إليه أبو بكر أن يصحبه ، فقبل طلبه . وأتى الصدّيق براحلتيه اللتين أعدهما ، وبجراب فيه طعام يكفيهما أياما ، واستأجرا هاديا ماهرا اسمه عبد الله بن أرقط ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال .

ثم ترك أبو بكر النبى ﷺ ، مواعدا إياه التقابل فى جنح الظلام خارج مكة ، وكانت تلك الليلة ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقره مؤتمرهم ، فأمر النبى عليا أن يرقد فى سريره ، موهما أنه هو حتى يشغلهم عنه بعض الوقت ، وخرج هو متخفيا حتى لحق بصاحبه خارج مكة ، وأخذا يسيران جادّين حتى انتهيا إلى غار مهجور يقال له غار ثور ، فدخلا فيه .

أما المشركون فكانوا قد حاصروا الدار ، واستعدوا لاقتحامها متى مضى هزيع من الليل ، وكانوا فى أثناء ذلك ينظرون من خِصاص الباب (أى فُرَجه) فيرون رجلا على سرير النبى ﷺ وهو نائم مسجًّى ، فيظنونه هو فيطمئنون على وجوده . فلما جاء الوقت اقتحموا السور ودخلوا البيت ، فتنبه النائم وإذا هو على بن أبى طالب ، فسألوه : أين محمد ؟ فقال : لا أدرى ، فأوجعوه ضربا ، ثم رأوا أن يتعقبوا رسول الله ، فخرجوا خلفه ومعهم قائف يعرف مواقع الأقدام ، فما زالوا يسيرون حتى انتهى القائف إلى الغار وقال : ها هنا انقطعت آثار الأقدام . فلما نظروا إلى الغار وما هو عليه من الظلام والوحشة ، وما أوى إليه من الهوام والحشرات ، كبر عليهم أن يصدقوا أن رجلا يجازف بنفسه فيدخل فيه ، وكان فى أثناء ترددهم على

الغار يرى أبو بكر أرجلهم ، فأدركه من ذلك فزع عظيم بكى منه ، فنظر إليه النبى ﷺ وهدّأ روعه ، وبشره بأن الله منقذه ، وقد جاء ذلك فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) . وقد صدّقه الله وعده ، فصرف الكفار عن اقتحام ذلك الغار استبعادا منهم أن يكون قد أوى إليه .

فأقام رسول الله وصاحبه فى الغار ثلاث ليال ليتحققا من انقطاع الطلب ، وكان يبيت معهما عبد الله بن أبى بكر وهو شاب ثقِف لقِن (أى حاذق سريع الفهم) ، فكان يُدلج من عندهما سحرا فيصبح بمكة كبائت فيها ، فيتسمّع الأخبار ثم يعود إليهما ليلا متسللا ، فيخبرهما بما وعاه . وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها ويغدو بها عليهما .

ولما انقطع عنهما الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل بالراحلتين ، وسارا متبعين الساحل لا يلوون على شيء ، وكان أهل المدينة قد أخبروا بسفره إليهم ، فكانوا ينتظرونه كل يوم ، حتى أقبل فاحتفوا به فرحين مغتبطين وساروا معه ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بقباء حيث بنو عمرو بن عوف ، وكان ذلك فى ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ .

فأقام ﷺ بقباء ليالى أسس فيها مسجدا ، وصلى فيه بمن معه من أصحابه المكيين واليثربيين ، وقد دُعى الأولون بالمهاجرين ، والآخرون بالأنصار .

ثم تحول النبى ﷺ إلى المدينة فاستقبله أهلها نساءً ورجالاً بما يستقبل به كبار الفاتحين ، وكان الناس يسيرون خلفه مشاةً وركباناً يتنازعون زمام ناقته كل منهم يريد أن ينزل عنده .

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٤٠) .

وأدركته صلاة الجمعة وهو فى ديار بنى سالم بن عوف ، فنزل وصلّاها ؛ وهذه أول جمعة صلّاها جماعة ، وخطب فيها ، ﷺ .

ثم سار وكلما مر على ديار للأنصار دعوه للنزول عندهم ، ولكنه فضل أن ينزل بدار خالد بن زيد ، وهو الذى عُرف بعد بأبى أيوب الأنصارى ، وكان من بنى عدى بن النجار أخواله الذين تزوج منهم هاشم جده .

وفى المحل الذى أناخ فيه رسول الله ناقته ، بنى مسجده ، وجعل بجواره حجرات لسكنه ، وبعد أن تم السكن انتقل إليه بعد أن لبث فى دار أبى أيوب الأنصارى سبعة أشهر .

وتنافس أهل يثرب فى إيواء المهاجرين حتى حكّموا بينهم القرعة .

ولما استقر برسول الله المقام بالمدينة ، أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله ، فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتيه ، وسودة زوجته .

نظرة علمية تحليلية فيما سبق :

إن صبر النبى ﷺ ثلاث عشرة سنة على هذا الاضطهاد البالغ أقصى حدود الوحشية ، إذا لم يكن فوق الطاقة البشرية ، فإنه يشف عن عقيدة راسخة فى رسالته . ولو كان هذا الصبر منه وهو فى ميعة السن ، وريِّق الصبا ، لأمكن تعليله بأنه من فتوة الشبيبة ، ومجازفاتها فى سبيل الشهرة ، ولكنه كان فى عشرة الخمسين ثم آلت إلى عشرة الستين حيث تهدأ ثوائر النفس ، وتسكن جيشات الأهواء ، وتهيب الطبيعة بصاحبها إلى الهدوء والسكينة .

ولو كانت مجرد مشادّات كلامية ، ومناظرات مذهبية ، لهان أمرها على التعليل ، فإن من الناس من يأنسون إلى مثل هذه الحياة الحافلة بالمجادلات ؛ ولكنها مشادات عدوانية امتدت معها أيدى المشركين على أصحابه وعليه بالأذى حتى اضطر عدد كبير منهم إلى المهاجرة مرّتين ، ضنًّا بأنفسهم على الهلاك ، وليس الاضطهاد الذى يحمل الأسر برمّتها على الهجرة إلى البلاد القاصية ، بالأمر الذى يستهان به . ناهيك بالمخاوف التى تحمل أصحاب النبى على تركه يدفع أذاهم وحده ، بل التى تحمل مثل عمر فى شدته على النجاة

بنفسه والمهاجرة إلى يثرب ، وتدفع بأبى بكر فى تفانيه فى حب نبيّه على أن يستأذنه فى أن يهاجر كغيره ، وما أخّره إلا منع رسول الله له ليهاجر فى صحبته .

فالداعية الذى يرى أخلص أصحابه وأشجعهم يتفرقون من حوله ، ويدعونه وحده إزاء أعدائه ، ولا تتزعزع ثقته بفوزه ، لا يعقل أن يكون مفتريا فى نبوته ، ولا متكلفا لما هو بصدده ، ولكن الذى يعقل هو أنه كان يعتقد بأن أعداءه لن يصلوا إليه بسوء ، اعتمادا على ما وعده ربه به عند أول عهده بالنبوة فى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

وهذه الثقة من النبى ﷺ فى وعد ربه له بالعصمة ، تتجلى على أتم وجه فى بقائه بمكة إلى الليلة التى تآمر فيها المشركون على قتله ؛ وكان فى وسعه أن ينجو بنفسه قبل ذلك بأيام بل بأسابيع ، حين لم يبق أمل فى كسر شِرَّة خصومه ؛ وهل كان مثل عمر يضن بنفسه عن هذا الموقف ، وأبو بكر يستأذن النبى ليلحق به ، إلاّ والخطر مُحْدق ولا يمكن دفعه ؟

وأعظم ما تجلت ثقة النبى ﷺ بربّه كان فى غار ثور ، وقد احْتَوَشه من أرسلتهم قريش للّحاق به ، وأبو بكر يرى أرجلهم تحوم حوله ، ويسمع أصواتهم وهم يتآمرون على اقتحامه ، فكان من أثر ذلك على الصدّيق أن بكى من هول ما رأى وما سمع ، فالتفت إليه رسول الله وهدأ روعه قائلا له : لا تحزن إن الله معنا ؛ وقد جاء ذكر ذلك فى القرآن الكريم كما رآه قراؤنا فى الآية المذكورة فى هذا الفصل .

فهذا الثبات المحير للعقل فى وسط هذه المخاوف الموجبة لليأس ، لا يمكن أن يعزى لفضيلة الشجاعة فحسب ، لأنها جاءت مصاحبة لثقة تامة بالخلاص والفُلْج ، وهذا لا يكون بغير وحى .

ومن يتأمل فى انصراف المشركين عن الغار وقد انتهى إليه الأثر ، يأخذه

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٦٧) .

العجب ولا يستطيع أن يعلل ذلك بعلة يثلج عليها الصدر . فلقد كان القرشيون أحرص الناس على أن يقبضوا على رسول الله ويقتلوه تخلصا مما عسى أن يجره عليهم من الحروب والمنازعات القبيلية ، وقد دلهم قائفهم على أن آثار الأقدام انتهت عند ذلك الغار ، وكان للعرب ثقة مطلقة فى قافتهم [1] ، فيكون عدم تعويلهم على قوله مع وجود الغار فاغراً فاه ، ومع عدم استحالة الولوج فيه ، من أعجب ما يروى عن قوم كالعرب شديدى الكَلَب على أعدائهم !

رضينا أن نظن أن يكونوا قد تهيبوا النزول إلى الغار لتفتيشه ، وأن يكونوا قد تخيلوا أن من ينزله تنوشه أفاعيه وترديه ، ولكنا لا نرضى ولا نقبل أن نتخيل أنهم يتركونه ويرجعون أدراجهم دون أن يحاصروه أياما وليالى حتى يتحققوا من خلوه ، وإلا اضطررنا أن نتهمهم بالإهمال فى أمر خطير فى نظرهم إلى أبعد حدود الخطورة .

ولسنا نكتفى بهذا ، ولكنا نقول : كان يجب عليهم أن يقيموا فى كل الطرق التى يمكن أن يتسرب منها إلى يثرب كَبْكَبة [2] من الفرسان ، تقطع الطرق على خصمهم كما هى عادة من يهمهم القبض على خصم . فإذ لم يفعلوا مع تحليهم بأرفع صفات الحيطة الحربية ، فإن إغفالهم له قد فُسّر بأن الله قد صرفهم عنه ، ولو كان لدىّ دليل على هذا الصرف لقلت به ، ولكنى التزمت فى هذه السيرة أن لا أتجاوز أصول الدستورُ العلمى ، فلا ألجأ إلى الظن فى موطن يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية ، وحياة النبى ﷺ حافلة بالآيات الدامغة ، فلا حاجة بها إلى ما يمكّن الخصوم من تجريحه . لذلك فأنا أفسره بأنه تغابٍ من قريش عما هم بصدده ، كما تغابوا عن هجرة كبار الصحابة إلى يثرب ، كأنهم اكتفوا بأن يبعد عنهم النبى إلى حيث لا يراه العرب فى مواسم الحج فيفتتن بعضهم ببيانه وشدة عارضته .

---

(١) القائف : من يتتبع آثار الأقدام لمعرفة أين انتهت . وهو يستعمل فى تعقب الهاربين ، جمعه قافة . وقيَّف وتقيُّف مثله .

(٢) الكبكبة : الجماعة من الناس المتضام بعضها إلى بعض .

بقى علينا أن ننظر فى النظام الذى أقامه النبى ﷺ لجماعته ، وفى الأصول التى وضعها للقيام بمهمته ، وفى المنازعات التى ابتنت على دعوته ، والحروب التى أثارتها الوثنية لمعاكسته ، وفى الأسلوب الذى جرى عليه ﷺ فى بناء دولته . كل هذه المناحى ستؤدينا إلى خوض دراسات إسلامية نرجو أن تكون موجبة لوضع السيرة المحمدية على نحو يناسب عقلية معاصرينا ودرجة ثقافتهم ، إن شاء الله (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الثانى ، صفر سنة ١٣٥٩ هـ .

نشوء الدولة الإسلامية
بين العوامل المختلفة

لما وصل النبى ﷺ إلى المدينة ، احتفل به أهلها أيما احتفال ، وانتشر بينهم الإسلام أيما انتشار ، حتى لم يبق بيت إلا دخله نوره الساطع ، فكان انقلاب فى عشية وضحاها لم تشهده مدينة قبلها فى الأرض ؛ وأى مدينة جاهلية فى أية بيئة من بيئات المعمور ، يجلو عنها دين رسخت أصوله فى عقول أبنائها منذ ألوف من السنين ، ويحل محله دين جديد ، ليس الداعى إليه بملك عظيم يرجى أن تعمهم عطاياه ، وتحميهم من أعدائهم جيوشه وسراياه ، ولكنه صاحب دعوة نبتْ به دياره ، وعاداه قومه ، ولحق به من شيعته رجال لا يملكون شروى نقير ، حاملا إليهم معه الجهاد الفادح ، والنضال العنيف ؟ فلو كان سألهم سائل : بأى شيء تفرحون ، وأنتم بقايا سيوف لا تزال تنطف دما ، وجَزَر معارك لا يفتأ صداها يملأ الجواء ؟ لقد جئتم إلى قريش لتستنصروا بها ، أفتعودون وقد استجلبتم سخطها ، واستهدفتم حربها ؟ وكنتم تستنجدون البعيدين عنكم ، على عدو كان يساويكم عددا وعدة ، أفتنقلبون وقد أثرتم عليكم العرب كلهم ، فماذا ترجون من وراء هذه المغامرة التى لم تندفع فى تيارها جماعة قبلكم إلا باءت بالويل الوائل ، والهول الهائل ؛ قلنا لو كان سألهم سائل هذه المسألة ، ولعلهم لم يعدموا من سألهم إياها ، لكان جوابهم أنهم يرجون إحدى الحسنيين : إما إقامة دولة الحق فى الأرض ، وإما الشهادة فى سبيلها .

إيمان راسخ يعجز علم النفس عن تعليله لو حدث لرجل واحد ، فما ظنك وقد حدث لقبيلتين متحاقدتين ؟ فى هذه البيئة من الإيمان المتين ، والتسليم المطلق ، أسس النبى ﷺ حكومته (النبوية) ، وهى طراز من الحكومات لا تقوم إلا فى عهد الرسالات الدينية ، أساسها الوحى الإلهى والشورى ؛ الوحى فى الأمور الكلية التى تتأصل فيها الأصول ، وتتدعم المبادىء الأولية للدين والدولة المستقبلين ، والشورى فى الأمور الجزئية التى تترك لتصرف العقل . فالجانب المطلق من هذه الحكومة كان لله وحده ، والجانب الشورى كان للجماعة على نظام الحكومات

الدستورية . فكان إذا حدث أمر سأل النبىُّ ﷺ أصحابه عن وجه السداد فيه ، فكانوا يقولون له : أنزل فيه قرآن يا رسول الله ؟ فكان يقول لهم : لو نزل فيه قرآن ما سألتكم . فكانوا يتباحثون فيه . وربما خالف رأيهم رأيه فيعدل عن رأيه إلى رأيهم .

على موجب هذا النظام تألفت جماعة المسلمين ، وتم فيها نزول القرآن على حسب الحوادث التى يقتضيها قيام جماعة من أول تكوُّنها إلى أن تصل إلى درجة أمة ، ولا يخفى أن بين هذين الطرفين تتعاقب أحداث ، وتطرأ مشاكل ، تارة تصادف حلولا ، وطورا تؤدى إلى مآزق تصطهر فيها النفوس ، وتبلى السرائر ، وتبلغ الروح الحناجر ، لذلك جاء هذا القرآن الكريم حاويا كل ما تحتاج إليه كل نفس بشرية فى تكملها ، وكل هيئة اجتماعية فى تطورها ، فكان كما وصفه جل وعز : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [١] .

فالباحث الاجتماعى يستطيع بتتبع أطوار جماعة المسلمين ، وما اقتضت نزوله من الآيات القرآنية ، أن يشرف على نشوء نواةِ أكبر أمة عالمية نالت من زعامة الأرض مكانة لم تنلها أمة قبلها ولا بعدها ، ووضعت من صرح المدنية الفاضلة أصولا لا تزال أثبت وأقوى قواعدها إلى اليوم . وهذا ما سنقوم به فى هذه السيرة متبعين أصول الدستور العلمى ، وفاء بما شرطناه فى مقدمتها على أنفسنا ، فنقول :

استقر النبى ﷺ من يثرب فى جماعة قبلت الإسلام دينا ، وسلمت له مقادتها يقودها إلى حيث يشير به عليه الوحى من سلم وحرب ، لا ينازعه منهم منازع ، ولا يعقِّب على حكمه معقب ، وهى قيادة لم ينلها فى قبيلة أجنبى عنها . فقد جرت العادة عند العرب وغيرهم أن الذى يسود القبيلة ويقودها واحد منها ، فكان يستحيل أن يسود قريشاً غطفانىّ ، ولا غطفانَ تميمىٌّ . هذا كان بين القبائل التى تنتمى إلى أصل واحد ، كالقبائل التى يتصل نسبها بعدنان ، فما ظنك بمن تنتمى إلى أصلين مختلفين ؟ لا جرم كان هذا من أشد المحالات .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية (٣٨) .

كان فى بلاد العرب نوعان من القبائل : عدنانية ، ويمانية ، نزحت هذه الأخيرة من اليمن عقب كارثة سَيْل العَرِم إلى جهات كثيرة من الشمال ، فحافظت على لهجتها وعاداتها وتقاليدها ، منها قبيلتا الأوس والخزرج اللتان عمرتا يثرب ، فقد كانتا يمانيتين قحطانيتين ، وكان من المحال عليهما أن تضعا على رأسيهما زعيما عدنانيا ، تلك كانتا تعدانها مسبة لا تزول عنهما وَصْمَتها ما بقى الفرقدان . فكان قبولهما لزعامة محمد ﷺ وهو من صميم قريش ، غير آبهتين بعاداتهما التقليدية ، انقلابا عجيبا فى نفسية أولئك القوم ، لا يمكن عَزْوه إلا إلى عظم سلطان الإسلام على قلوبهم ، حتى جعلهم لا يبالون بأقدس تقاليدهم الاجتماعية .

ولكن الإسلام لم يكن قد عم جميع آحاد تينك القبيلتين ، فبقى منهم قوم على كفرهم باطناً ، وإن كانوا التحفوا الإسلام ظاهرا ، وأولئك كانوا يدعون بالمنافقين ، وكان أمرهم لا يخفى على النبى ﷺ وبعض أخصائه ، ولكنه كان يقبل منهم ظاهرهم ، واكلاً سرائرهم إلى الله ، ما داموا خاضعين لحكومته ، ومتظاهرين بالاعتقاد برسالته . فكن ضررهم ينحصر فى حل عزائم المؤمنين ، إذا دعاهم الرسول للجهاد ، بنفث الذعر فى قلوبهم ، وبث اليأس فى نفوسهم ، بالتهويل فى قوى أعدائهم ، والمبالغة فى عددهم . فإذا لم تفلح وسائلهم فى صرفهم ، عمدوا إلى ما هو أفعل فى إفشالهم ، فخرجوا معهم ، حتى إذا تلاقى الجمعان فى ساحة الوغى تبادروا إلى الهزيمة ليجرُّوا المؤمنين معهم ؛ وهو تدبير خطير يؤثر فى القوى المعنوية للمقاتلة أسوأ تأثير ؛ فكان النبى ﷺ يغض الطرف عن فعلهم ، ويقبل واهن أعذارهم .

فإذا وضعت الحرب أوزارها ، وعاد المسلمون إلى بلدهم ، عادوا إلى سابق إرجافهم ، وتظاهروا بالإشفاق على إخوانهم ، وروجوا من سيء المبادئ، وسقيم الآراء ، ما تتسمم به النفوس ، وترتبك العقول ، فكانوا أشد على النبى وصحبه من أعدائه المصارحين بعداوته ، المتوعديه بحل جماعته . كل هذا ولا يأذن ﷺ فى اصطلامهم لاتقاء شرهم ، لمخالفة ذلك للمبدأ الإسلامى العظيم من قبول الظاهر ، وترك الباطن لعلاّم السرائر ، وهذا مبدأ جليل القدر ، بعيد الأثر فى تربية الأمم على احترام الحياة البشرية ، وعدم الإسراف فى سفك الدماء جريا وراء الظِنن الحزبية . والأمة التى تربى على هذا المبدأ من لدن تأسيسها الأول ، تمضى فى تطبيقه فى جميع

أدوارها ، كتقليد من تقاليدها الاجتماعية ، فتتقى شرور التناحر فى حياتها المدنية ، حيث تختلف المبادئ ، وتتباين المذاهب ، فلا تتصدع وحدتها لمجرد الخلاف فيها لاختلاف وجهات النظر . وهذا الضبط للنفس من أجلّ ما تتصف به الأمم الرشيدة ، وقد اعتبر اليوم وليد الثورة الفرنسية ، وهو كما ترى وليد الديانة الإسلامية .

ومما يوجب الدهش فى أمر الاحتمال الذى أمر به الإسلام حيال المنافقين ، أن ما وصفهم به القرآن من المخادعة والمراوغة ، وبذر بذور الفتن بين الفئام ، واستغلال الحوادث لحل جماعة المؤمنين ، مما لا تطيقه إلا أمة بلغت من ضبط النفس ، وكبح الهوى ، درجة ليس بعدها مرتقى . ونحن نورد لك بعض ما جاء عنهم فى الكتاب الكريم إدلالاً على ما نقول :

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ ، قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ (أى إلى إخوانهم فى الكفر) قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١) .

﴿ إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . آتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَآحْذَرْهُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة ، الآيات (٨ – ١٤) .

(٢) سورة المنافقون ، الآيات (١ – ٤) .

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا ، وَلِلهِ خَزَآئِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

استمر المنافقون يدأبون على حل جماعة المسلمين وهم فى صميمها ، والنبى غير مبال بهم ، حتى تفاقهم شرهم ، فنزل فى حقهم قرآن يهددهم بأخذهم بالعنف ، فقال تعالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً . مَّلْعُونِينَ ، أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ (١) ، أى لئن لم يقلع المنافقون عما هم بسبيله من المفاسد ، لنسلطنك عليهم ، فيضطرون للجلاء عن المدينة ، وعدم مجاورتك فيها ، ويصبحون بعد ذلك ملعونين ، وتهدر دماؤهم أينما صودفوا . ومع هذا استمر الإسلام على مطاولتهم حتى لم يبق فى جزيرة العرب من يصغى إلى إفْكهم ، ففنوا فى جماعة المسلمين ، وطهرها الله منهم . وهذا ما لم يسمع بمثله فى تاريخ الانقلابات الاجتماعية ، حيث تراق الدماء ، وترتكب الإفراطات ، وتروج الظِنن والاتهامات ، حتى تتغلب الآراء الجديدة ، فتثوب الجماعة إلى رشدها ، وتستقر الأمور فى نصابها (راجع تواريخ الثورات الكبرى) .

* * *

لم تكن عوامل الفساد فى جماعة المسلمين الأولين مقصورة على المنافقين ، فقد كانت تجاور المدينة ثلاث قبائل يهودية : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وقد ساءها أن تتأسس فى يثرب ديانة يُتوقع أن يكون أشياعها أشد عليهم من قبيلتى الأوس والخزرج ، فتجليهم عن البيئة التى اتخذوها دار هجرة لهم ، وتعيد لهم عهد الاضطهاد الذى ذاقوا مرارته تحت سلطان الدولة الرومانية ، فاتفقوا مع المنافقين على مناوأتها العداء ما استطاعوا إليه سبيلا . فكان أولئك بما تظاهروا به من الإسلام يخالطون المسلمين ، ويسعون بينهم بالنمائم والإرجافات ، وينقلون إلى الآخرين ما يقفون عليه من الأخبار ، وما يترامى إليهم من الأسرار .

---

(١) سورة المنافقون ، الآية (٧) .

(٢) سورة الأحزاب ، الآيتان (٦٠ - ٦١) .

ولكن نظرا لأن هؤلاء كانوا أهل دين سماوى ، وكان فيهم أحبار متضلعون فى الثقافة الدينية ، وعارفون بالأساليب الجدلية ، كانوا من هذه الناحية أشد على جماعة المسلمين من جميع أعدائهم . لأن قوام الدعوة الإسلامية كان يتوقف على تأثيرها فى العقول والقلوب ، وهؤلاء الأحبار كانوا لا يَنُون فى مهاجمة عقائد الإسلام وأصول شريعته ، بقصد بذر الشبهات ضدهما ، فكانوا بهذا العمل مثيرين على الإسلام حربا أدبية ، أفعل فى الصد عنه من الحرب المادية ؛ فلو كان فى مكان النبى ﷺ الأمة العربية بأسرها فى أميتها وجاهليتها وبعدها عن العلم ، لما نهضت لها حجة إزاء هؤلاء الأحبار ، الذين كانوا من أخبار النبوات وتواريخ الأمم القديمة والمعاصرة ، وشئون الحياة المدنية ، فى مستوى أمثالهم من رجال الدين فى البيئات المتحضرة . واليهودية أقدم الأديان الساميَّة بعد دين إبراهيم ، وأهلها يدّعون أن ما جاء بعدها قد استمد وجوده منها ، وهم لا يزالون يروّجون هذه الدعوى إلى اليوم ؛ فأراد الحق سبحانه وتعالى أن ينزل الإسلام فى هذه البيئة من النضال الدينى ليثبت للعالم بدليل محسوس أنه لم يستمد وجوده من دين سابق عليه ، ولكنه هو نفسه الدين الأول الذى استمد كل دين مادته منه ، كما قرر ذلك بقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١) .

لهذا السبب جاءت فى القرآن آيات كثيرة جداً فى مجادلة اليهود وإلزامهم الحجة ، فسردت ما كانوا عليه من الاستعصاء على عهد أنبيائهم الأولين قبل موسى عليه السلام ، وما كانوا يقابلونهم به من الالتواء والمراوغة ، وما استحقوه بسبب ذلك من تسلط الوثنيين عليهم ، ثم عقبت ذلك بما كانوا عليه على عهد موسى من الشقاق ، وما أظهروه فى مواطن شتى من العصيان والخلاف ، وما جناه ذلك عليهم من الوقوع فى أسر الأمم الفاتحة ، حتى أدى ذلك إلى هدم هيكلهم المقدس مرات ، وتشتيتهم فى الأرض ، وضياع استقلالهم فى عقر دارهم ، يتخلل ذلك ما عمدوا إليه من مسايرة أهوائهم ، ومتابعة شهواتهم ، وما جنوه على أصولهم بالتأويل

---

(١) سورة الشورى ، من الآية (١٣) .

والتحريف حتى حللوا كثيرا مما كان محرما عليهم .

فهذه الناحية من القرآن الكريم كشفت عن أصالته فى سمو المبادئ ، واستقامة الأصول ، وعن تحلّيه بضروب المناعات حيال كل شبهة تثار عليه ، فإن المقابلة التى اقتضاها الجدل بين الدينين أبانت بدليل محسوس عن الفرق البعيد بينهما ؛ فقد دل الأول على أنه دين أسرة واحدة ، مرتبطة بأرضٍ معينة ، لا يصحّ لها وجود بدونها ، وأنه خلاصة عقلية تلك الأسرة فى أطوارها المختلفة ، فلا يصلح لغيرها ؛ ودل الثانى على أنه دين البشرية بأسرها ، وأنه جامع لكل ما بلغنه من خير فى جميع أطوارها ، وأنه بما طبع عليه من صفة العمومية ، وما تحلى به من مزية الإطلاقية ، وما وقف عنده من المثل العليا ، يصلح لكل زمان ومكان .

فى هذه البيئة وما حوته من العوامل الأدبية والمادية المختلفة ، ناضل الإسلام عن وجوده وأقام دولته ، ومنها امتد إلى أقطار الأرض ، ولما يبلغ مداه بعد (*) .

★ ★ ★

(★) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الثالث ، شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ .

الحرب فى شِرْعة الإسلام

لما استقر النبى ﷺ بالمدينة ، وأسس بها حكومته النبوية على ما وصفناها فى الفصل المتقدم ، كان مقصودا بالقتل من قريش . وليس يُعقل أن تغمض قريش عينيها ، ومصلحتها الحيوية قائمة على زعامة الدين فى البلاد العربية ، عن قيام زعامة أخرى فى بلد كيثرب يصبح منافسا لأم القرى ، وربما بزّها سلطانا على العقول ، وكر على قريش فأباد خضراءها ، وسلبها حقها الموروث .

ولا يسع الإسلام من جانبه مهما كانت ميوله سلمية ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ [1] ، أن يستمر فى منع القائمين به عن الدفاع عن أنفسهم ، وعن الدين الذى أنزل للإنسانية كافة ، فى عالم يضيع الحق فيه إن لم تكن وراءه قوة تؤيده . فكان لا مناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذى يشهره خصومهم فى وجوههم ، فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ ، وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ، وللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ .وإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ، وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ، وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ، فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ! أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ . وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ، وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ،

---

(١) سورة الزخرف ، من الآية (٨٩) .

ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ . قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ، وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (١) .

هذا ولم يغفل الإسلام حتى فى هذا الموطن ، موطن الدفاع عن النفس والدين ، أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان ، لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور . وهذا من مميزات الحكومة النبوية ، فإن القائم عليها من نبى يكون كالجرّاح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لاستئصاله ، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة ، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله . والعالم كله فى نظر الحكومة النبوية شخص مريض تعمل لاستدامة وجوده سليما قويا ، خالصا من الأمراض العضالة . والإسلام باعتبار أنه دين عام للناس كافة ، يعد العالم كله أمة واحدة ، غير معتدٌ بما أحدثته البيئات والتقاسيم الجغرافية بينهم من الفروق فى الألوان واللغات والأديان . لهذا السبب ولأن موحيه هو رب العالمين الذى وسعت رحمته كل شىء ، أحيطت جميع آيات الجهاد فيه بأوامر مشددة فى مراعاة العدل مع المحاربين ، وعدم الإسراف فى سفك دمائهم ، والاعتداد بالظاهر من أعذارهم ، مما يعد مُثُلا عليا لم تصل المدنية بعد جهادها الطويل ألوفا من السنين إلى خيال منها ، ناهيك أنه يحرم على أهله أن يقتلوا خدم المحاربين الذين يمدونهم بالطعام والشراب ، ويعينونهم على حمل عتادهم ، وخدمة دوابهم ، وهذا غير ما أمر من احترام حياة شيوخهم وولدانهم ونسائهم ورجال أديانهم ، وعدم الإجهاز على جرحاهم ، وعدم تعقب مهزوميهم للفتك بهم من خلفهم . فقال الله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ (أى ولا يحملنكم بغضكم لقوم) ، أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى

---

(١) سورة الحج ، الآيات (٣٩ - ٥١) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٩٠) .

(٣) سورة المائدة ، من الآية (٢) .

أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

بهذه القيود الرحيمة ، وفى هذه الحدود العادلة ، أذن الله للمسلمين أن ينبذوا لأعدائهم على سواء ، وأن يقابلوا قوتهم بمثلها حتى يحق الله الحق ، ويزهق الباطل ، ويظهر دين الله على جميع ما حاكته الأوهام من عقائد باطلة ، وخيالات عاطلة . ولما كان القرشيون قد صارحوا النبى ﷺ وأصحابه بالحرب ، ولو كان تركهم وشأنهم بعد شخوصه إلى المدينة لما تركوه وشأنه ، فقد اعتبرهم فى حالة حرب ، وعاملهم على موجب هذا الاعتبار .

هنا لابدّ لنا من نفى شبهة كثيرا ما أثارها خصوم الإسلام ضده ، إذ قالوا : إن الإسلام دين شرعت فيه الحرب ، والدين الحق يجب أن يتنزه عن ذلك فلا يدعو إلا إلى السلام ، لأن الحرب من بقايا الوحشية الأولى ولا يجوز أن يعتمد عليها دين إلهى أنزل ليكون رحمة للعاملين .

لا جرم أن الذين يُدْلون بهذه الشبهة لا يعرفون من طبيعة العالم الأرضى ومن عوامل الاجتماع الإنسانى ، ولا من تاريخ الأديان السماوية ، ما يجب أن يُعرف ليجىء حكمهم عادلا ، ورأيهم مسددا .

إن طبيعة هذا العالم مبنية على التدافع والتغالب ، ليس فيما بين الناس فحسب ، ولكن فيما بينهم وبين الوجود المحيط بهم ، وفيما بين كل فرد والعوامل المتسلطة عليه من نفسه . ولا تشذ عن هذه القاعدة العامة الحيوانات ولا النباتات أيضا . وقد بنى علماء النباتات والحيوانات وعلماء الإنسان على هذا التدافع كل تَرَقٍّ طرأ على هذه العوالم الثلاثة ، ولا أظن أن قارئا من قرائنا يجهل الناموس الذى اكتشفه دارون وروسل ولاس ودَعَوَاهُ ناموس تنازع البقاء ، وبنيا عليه كل تطور أصاب الأنواع النباتية والحيوانية والإنسان أيضا . وقد أشار الله إلى خطر هذا الأصل العظيم بقوله تعالى فيما يتصل بالإنسان : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) . وإنما تفسد الأرض بتغلب

---

(١) سورة المائدة ، من الآية (٨) .

(٢) سورة البقرة ، من الآية (٢٥١) .

الأشرار ، وتقاعس الأخيار عن التنكيل بهم . وفضلا عن تغلغل الأشرار فى شرورهم ، فإنهم لا يدعون الأخيار أحرارا فى ممارسة فضائلهم . وقد صرح الكتاب الكريم بهذا فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ﴾ [(١)] . ألم تر كيف تصدى خصوم الدين النصرانى للمسيح وما كان يدعو إلا للصلاح والسلام ، حتى أنهم استصدروا أمرا بصلبه فنجاه الله منهم ، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مضت ثلاثة قرون وهم مشردون فى الأرض لا تجمعهم جامعة ، إلى أن حماهم من أعدائهم السيف على يد الأمبراطور قنسطنطين الرومانى ، واتفق أنه كان يدين بالنصرانية ، فلما ولى الملك أعمل السيف فى الوثنيين ، وهدم هياكلهم ، وأجبرهم على قبول المسيحية دينا لهم . ومن ذلك العهد أمكن المسحيين أن يجاهروا بدينهم ، وأن يتخذوا لهم زعامة دينية . وأفادهم هذا الدرس القاسى فى ضرورة استخدام السيف لنشر الدعوة ، ولقمع الوثنيين ، حتى دانت لهم أوروبا كلها . ولا يمكن أن ينسى أحد ما حدث بين البروتستانتية والكاثوليكية من الحروب الماحقة حتى استقر كل فريق منهم فى الحيز الذى هو فيه .

أَوَ لم تر أيضا كيف تصدى الجاهليون لمحمد ﷺ فمنعوه عن نشر الدين الذى أوحاه الله إليه ، وانتهى أمرهم بالتألب عليه لقتله ، والفراغ من أمره ؟ ثم ما حدث منهم بعد أن هاجر إلى المدينة حيث تقصدوه بها ، مؤلبين عليه القبائل الجاهلية لإبطال أمره ، والتعفية على أثره ؟

أفيريد مثيرو هذه الشبهة أن يقوم دين على غير السنن الطبيعية فى عالم مبنى على مبدأ التدافع والتنازع ، واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحق ، ودك صروح العدل ؟

يقولون المعترضون : وماذا أعددتم من حجة حين تجمع الأمم على إبطال الحروب ، وحسم منازعاتها من طريق التحكيم ، وهذا قرآنكم يدعوكم للجهاد ، ويحثكم على الاستبسال فيه ؟

---

(١) سورة الحج ، من الآية (٤٠) .

نقول : أعددنا لهذا العهد قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) .

هذه حكمة بالغة من القرآن ، بل هذه معجزة من معجزاته الخالدة ، وهى أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها ، ولكن لأنها من عوامل الاجتماع التى لابد منها ما دام الإنسان فى عقليته ونفسيته المأثورتين عنه . غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمى يُتّفق فيه على إبطال الحرب ، فصرح بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حجة لأهله من ناحية ، وليدل على أنه لا يريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى . ولو كان يريدها لذاتها لما نوّه بهذا الحكم . ولو كان ذُكر له إمكان جنوح الأمم للسلم ، لكرّ على هذا القول بالدَّحْض ، ولحضّ أهله على عدم الإصغاء إليه ، وعلى اعتباره من عوامل التثبيط لهم .

ومما يجب لفت النظر إليه ، أن الإسلام قد أشاد من ذكر كلمة السلام بما لم يفعله مذهب اجتماعى قبله . ناهيك أن الله قد سمى نفسه السلام ، وجعل السلام تحية الإسلام يتبادلها المسلمون فى اليوم ملايين المرات ، ونوه القرآن فى آيات كثيرة بكلمة السلام ، ودعا الجنّة التى وعد بها المؤمنون بدار السلام ، وذكر أن تحية أهلها فيها سلام ، فجواء البلاد الإسلامية مشبعة بهذه الكلمة يتنفسها المسلمون ممتزجة بأوكسيجين الهواء ، وليست هذه سيرة الأمم التى تجعل شعارها الحرب فى الحياة ، ولكنها سيرة الذين يحبون السلام ويعملون على رفع لوائه بين الناس .

ويزيد هذا الأمر اتضاحا أن الإسلام إنما سمح بالحرب لإيجاد السلام ، لا لتأييد مبدأ التناحر بين الأنام ، فقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ ﴾ (٢) . ومن العجيب أن الأمم المؤيدة للسلام هى فى مثل هذه الضرورة اليوم ، فقد تجردت لحرب طاحنة مكرهة عليها ، لا همّ لها إلا إيجاد السلام ، فعلى من يتهم الإسلام بإقرار مذهب التناحر أن يعتبر بما سيقت إليه الأمم الديموقراطية اليوم من مجزرة بشرية هائلة دُفعت إليها دفعا فى سبيل تحطيم مبدأ التناحر

---

(١) سورة الأنفال ، الآية (٦١) .

(٢) سورة الأنفال ، من الآية (٣٩) .

لا فى سبيل شيء آخر . فإذا كانت هذه الأمم التى وصلت من المدنية إلى درجة رفيعة ، تضطر إلى الدخول فى مثل هذه الحرب الماحقة ، فى القرن العشرين ، أفلا تكون أمثال تلك الضرورة تنشأ فى الجماعات التى فى دور التكوُّن لتحمى وجودها ، فى عالم كان كل ما فيه موجها إليها لحلها ، وملاشاة كل ما حُمِّلته من عوامل الهدم والبناء لتأسيس عهد جديد يخرج بالإنسانية من الظلمات إلى النور ؟

يتضح مما مر كله أن اعتراف الإسلام بالحرب ، كضرورة لا محيد عنها ، كان لحكمة بالغة ، لو أغفلت لكان تلاشى كل ما حُمِّله الإسلام من عوامل إنهاض الأمم ، ووسائل نقلها من عهد كانت فيه ترزح تحت كِسَف من الضلالات ، وتنوء تحت آصار من الأوهام ، إلى عهد حرية التعقل والنظر ، والبحث والتدليل ، والمسئولية الشخصية ، وهى الثلاثة الأركان التى ابتنى عليها صرح التطور الأخير للإنسانية المتجهة إلى كمالها المنشود (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الرابع ، شهر ربيع الثانى سنة ١٣٥٩ هـ .

بدء الصراع بين الحق والباطل
وقعة بدر وما سبقها من المناوشات

قلنا إنه بعد أن تمت هجرة النبى ﷺ إلى المدينة ، كانت حالة الحرب موجودة بين المسلمين والجاهليين . ولم يكن من الكياسة أن يتجاهلها الأولون فيتركوا لخصومهم الوقت الكافى للاستعداد لسحقهم فى دار هجرتهم ، هم ومن قبلوا دعوتهم من أهل معقلهم الجديد ، فكان من أوجب واجباتهم أن لا يغفلوا طرفة عين عن العمل لإضعاف عدوهم بكل ما يستطيعون من الوسائل . ومن أفعلها بهم أن يحاصروهم من الناحية الاقتصادية ليقطعوا عنهم المدد الذى يتمكنون به من الثبات فى مكافحتهم ، وليضطروهم إلى التعجيل بمنازلتهم حتى لا يتخذوا من مطاولتهم عوناً لهم على حل جماعتهم .

فكان أول ما ارتآه النبى ﷺ من وسائل مناهدة الجاهليين ، إيصاد طريق التجارة الخارجية فى وجوههم من ناحية الشمال . وكان من عادتهم أن يتبادلوا وسورية المحصولات والمصنوعات والمواد الأولية . ولما كان لا يمكن الوصول إلى الشام إلا من طريق يثرب ، ندب رسول الله عمه حمزة بن عبد المطلب أن يقوم على رأس ثلاثين مقاتلا ليستولوا على تجارة لقريش وهى آيبة من سورية ، وكان يحرسها ثلاثمائة من رجال قريش تحت قيادة أبى جهل من كبار أعداء الدعوة الإسلامية . فصادف حمزة تجارة قريش عند ساحل البحر الأحمر من ناحية العيص ، وهى قرية من قرى المدينة ، فتصدى لقتال حماتها ، وتصافَّ الفريقان فحجز بينهم أحد رجالات تلك الناحية : مَجْدِىّ بن عَمرو الجُهَنِّى ، ومرت القافلة بسلام . فشكر النبى ﷺ مجديًّا على ما عمل ، لقلة عدد المسلمين بالنسبة لعدد عدوهم .

ثم بلغ النبى أن تجارة لقريش فى طريقها إلى الشام ، فندب عُبيدة بن الحارث على رأس ثمانين مقاتلا لاعتراض تلك التجارة . فصادفها ببَطْن رَابغ ، وهو وادٍ قريب من البحر بين مكة والمدينة ، فترامى الفريقان بالنَّبل ، ثم انهزم القرشيون خشية أن يكون هؤلاء الثمانون طليعة لجيش من المسلمين كَمن لهم هنالك .

وخرج النبى ﷺ نفسه فى السنة الثانية من الهجرة قاصدا أن يستولى على تجارة قريش فوجد القافلة قد أفلتت . وانتهز بنو ضَمْرة هذه الفرصة فاتفقوا مع رسول الله على التعاون فى الحرب ، ينجدهم وينجدونه وهم باقون على شِرْكهم .

ثم خرج النبى ﷺ بمائتى مقاتل عندما بلغه أن تجارة لقريش راجعة من الشام مؤلفة من ألفين وخمسمائة بعير ، يحرسها مائة مقاتل ، تحت قيادة أمية بن خلف . فلما بلغ بُوَاط ، وهى جبال جهة يَنْبُع ، وجد القافلة قد مرّت .

ثم خرج مرة ثالثة على رأس مائة وخمسين رجلا ، وقد بلغه أن تجارة لقريش فى طريقها إلى الشام يحرسها بضعة وعشرون رجلا تحت قيادة أبى سفيان بن حرب ، فوجد القافلة قد مرت سالمة ، فعاد إلى المدينة يترقب رجوعها . وقد بلغه أن فى هذه القافلة معظم أموال قريش .

فى هذه الأثناء أغار رجل من أصحاب الغارات اسمه كُرْز بن جابر الفِهْرِىّ على سَرْح المدينة [١] واستاق عددا منها وهرب ، فخرج النبى ﷺ يتأثره [٢] حتى بلغ سَفَوان ، وهو واد من بدر ، فوجد أن كرزاً قد أفلت . وتسمى هذه غزوة بدر الأولى .

وفى رجب من هذه السنة الثانية ، أرسل رسول الله فصيلة مؤلفة من ثمانية رجال تحت قيادة عبد الله بن جحش ، وسلم إليه كتابا مختوما وأمره أن لا يفضه إلا بعد أن يبعد عن المدينة مسيرة يومين . ففعل ما أمره به ، ووجد فى الكتاب هذه العبارة : « إذا نظرت كتابى هذا فامْضِ حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم » .

لا مشاحة فى أن ما فعله النبى ﷺ من استخدام طريقة الأوامر المختومة كان منه عملا لم يسبقه إليه قائد حربى فى جزيرة العرب ، حيث الأمية كانت ملقية بجِرَانها لديهم ، وربما كان عملا لم يسبق إليه فى العالم كله ، وهو يدل لأول وهلة

---

(١) السرح : المال السائم من إبل وغنم وبقر إلخ .
(٢) يتأثره أى يتتبع أثره .

على مبدأ التجديد الذى جعله الإسلام شعار أهله فى جميع محاولاتهم ، سواء أكانت فى حركاتهم الحربية أم فى محاولاتهم المدنية ، حتى بلغوا فى سنين معدودة إلى ما لم تبلغه الأمم فى قرون كثيرة ، كما سنبينه فى مواطنه من هذه السيرة .

سار عبد الله بن جحش على رأس رجاله متوخّياً تنفيذ ما أُمر به ، وقد تخلّف منهم اثنان لإضلالها بعيرا كانا يَعْتَقِبانه . فلما وصل إلى مكان يقال له نَخْلة ، مرت به قافلة لقريش يحرسها أربعة رجال ، فحمل عليها برجاله فقتلوا واحداً وأسروا اثنين ، واسْتاقوا الإبل وما حملت ، ورجعوا بهم إلى المدينة . فعابهم المسلمون على ما فعلوا لأن قتالهم وقع فى شهر رجب ، وهو شهر كان يحرم فيه القتال عند العرب ، وقال لهم النبى ﷺ : أنا ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم . وعابهم اليهود ، وسلقتهم قريش بألسنة حداد . فندموا على ما فعلوا ، فأنزل الله على رسوله فى هذه الحادثة قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ ، وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (1) فسُرّى عنهم .

ومعنى هذه الآية : يسألونك يا محمد عن الشهر الحرام أيجوز القتال فيه ، فقل لهم : القتال فى الشهر الحرام ذنب كبير ، ولكن الصدّ عن سبيل الله ، والكفر به ، والصدّ عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه يعتبر عند الله ذنبا أكبر من ذنب القتال فى الشهر الحرام ؛ وما فيه الكافرون من الجاهلية الجهلاء أكبر هولاً من القتل الذى ارتكبته السَّرِيَّة التى يرأسها عبد الله بن جحش فى الشهر الحرام .

هنا لا نرى بدأ من لفت الأنظار إلى انتقال خطير فى فهم علاقة الحياة البشرية بالتقاليد الدينية ، افتتح به الإسلام عهدا للإصلاح الجَلَل الذى حمّله للإنسانية ، وحمى وجوده الخالد به من صدمات فادحة تقتضيها الانتقالات العقلية والاجتماعية فى خلال الأطوار المتعاقبة التى لا تبقى من الأوضاع القديمة إلاّ أطلالا دارسة لا يكون لها وجود إلاّ فى ذكريات أهلها دون أن يكون لها تأثير فى حياتهم الدنيوية .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية (٢١٧) .

ونحن لأجل بيان هذا الإجمال نقول :

إن الذى عابته قريش على قائد السرّية من خَرْقِه حُرْمة الشهر الحرام ، كان يرتكبه الجاهليون على وجه يسجل عليهم الجمود والتلاعب معا . فقد كانوا إذا اضطروا للقتال فى شهر حرام ، ارتكبوه ، ولكن تحت ستار حيلة صبيانية ، وهى أنهم كانوا يتقاتلون فى أى شهر حرام أياما ويحرمون القتال على عددها من شهر غير حرام . كما يضطر مريض للفطر أياما من رمضان ويصوم بعددها أياما من أى شهر آخر ، أداء لما فاته من الأيام المفروضة . وقد فضح الله أمر الجاهليين فى هذه الناحية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ ، زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [١] . وهذا الذى كان يسميه الجاهليون بالنسىء هو إبدالهم أياما عادية بأيام من الأشهر الحرم كما قدمنا ، ليستمروا فى القتال والتناحر ، وهذا العمل زيادة فى الكفر يضِل به الشيطان الذين كفروا ، يجعلونه حلالا عاما ، وحراما عاما آخر ، وقد زُينت لهم أعمالهم السيئة ، والله لا يهدى الكافرين .

والفرق بين الذى كان يأتيه الجاهليون وبين ما رخص فيه الله ، كبير . فالأول مبنى على الحيلة التى لا تجوز على الجاهلين ، وتنطوى على معنى التلاعب والاستخفاف ، ومثل هذا التحايل فى حياة الأمم الأدبية ، يفضى إلى إباحات لا تحصى لا تبقى معها شريعة ، ولا يصان معها من العبث أصل .

ولكن الثانى وهو الترخيص فى القتال فى الشهر الحرام ، فقائم على أصول قيمة يبتنى عليها انتقال بعيد المدى لعقلية الشعوب ، ويضع حدا للجمود على الأوضاع ، ويقضى على صفة خسيسة فى النفوس ، وهى التحلل من الواجبات بحيل صبيانية .

أما الأصول التى يقوم عليها هذا الترخيص ، ولها هذا الأثر الضخم فى حياة الجماعات أدبيا واجتماعيا ، فهى :

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٣٧) .

(أولها) أن كل تحليل أو تحريم فى الدين إنما قصد به مصلحة الإنسانية ، ولم يقصد به تسخيرها أو تعطيل تقدمها ، فلا يجوز التحايل لتحريم حلالٍ أو تحليل حرامٍ جرياً مع الهوى . فإذا حدث ما يوجب إعادة النظر فى حِلّية ما هو حلال ، أو حرمة ما هو حرام ، ففى الدين الحق نفسه ما يغنى عن هذا التحايل . والدين فى هذا كعلم الصحة ، فإن فيه حلالا وحراما لا يجوز تعدى حدودهما بالتحايل ، فإن احتيج للتحلل من أحدهما فلا يجوز أن يعمد إلى ذلك إلا بالاستهداء بمبادئ ذلك العلم نفسه . فإن لم يوجد فيه ما يسوّغ ذلك التحلل ، وجب الوقوف عند حده ، وإلا أصبح لا فائدة من وجوده .

(ثانيها) وجوب الاعتداد بالأحوال ، فإن الشيء قد يكون ضروريا أو نافعا أو حسنا فى حال ، ونافلة أو ضارا أو قبيحا فى حال آخر . وأصحاب الأديان قبل الإسلام كانوا يمنعون النظر فى الأحوال فيلجأ الناس للاحتيال ، ويلجأ قادتهم إليه ، حتى أصبح الدين فى نظر الناس مع تقلب ضروب التحايلات عليه رسما لا حياة فيه .

(ثالثها) وجوب تقدير الأمور ، ومعرفة حدودها ، وتطبيقها على الأمر الذى تقضى به المصلحة الحقيقية ، لا الرغبة الخيالية ، وبنائه على الأصول المقررة ذات الأثر الذى يعم الكافة ، لا على الشهوات الشخصية التى تقوم على الأثرة أو الوحشية أو الانتقام ، بصرف النظر عن المصلحة الاجتماعية .

هذا التقدير للأمور فى الإسلام يجرى على مبادئ ، ويقوم على أصول لم تُمْلها الأهواء الشخصية ولا القومية ، ولكن أملتها مصلحة العالم الإنسانى كله ؛ يشهد بهذا ما احتواه الكتاب جملةً من الوصايا بوجوب تحرى الحق مجرداً من كل صبغة ، وتطلُّب المصلحة العامة وإن ناقضت المصلحة الخاصة .

(رابعها) تقديم المنفعة العالمية على الأوضاع التقليدية ، لأن الذى يتفق والمنطق هو أن كل وضع تقليدى إنما وضع فى الإسلام للمصلحة العالمية باعتبار أنه دين عام للبشر كافة ، لا أنه وضع باعتبار آخر أيا كان نوعه ، فإن الله غنىّ عن العالمين ، وقد جاء فى الكتاب : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [1] ، وقوله :

---

(١) سورة البقرة ، من الآية (١٨٥) .

﴿ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) .

فكل وضع دينى أو عمل تقليدى إنما أريد به فائدة العالم نفسه . وقد جرى الإسلام على هذا الأصل فى كل ما أمر به ونهى عنه ؛ فإنه فرض الفرائض واستثنى منها المرضى ومن كانوا على سفر ، وحرم أشياء وأباحها للمضطرين إليها ، فقد قال : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ (٢) ، حتى أباح للمسلم أن يتظاهر بالصبوء عن الإسلام تفاديا من هلاك نفسه ، فقال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ (٣) .

ولكن الأمر على عكس هذا لدى الأمم التى سبقت الإسلام ، فكان الأمر التقليدى لابد من القيام به ولو أتى على نفس الإنسان . فوقع لهذا السبب من أهل تلك الأديان من التحايلات والمحللات ما يخجل أن يرتكبه عاقل . ولهذا السبب أيضا اعتبرت أكثر ما فى الأديان السابقة من تقاليد ، آثارا قديمة لا تقبل التطبيق على أهل هذا العصر فتُركت جملة .

ولكن الإسلام دين أنزل ليُعمل به ، ويُسار على هديه ، فكان لابد له من هذه القواعد التى تؤتى أوامره ونواهيه من المرونة ما تسمح له أن يوصى بها فى كل زمان ومكان ، وأن يطالب بها الناس ، ويهيب بهم إليها ، فى الحدود التى قررها لهم فى كتاب الله وسنة رسوله .

هذا الفهم الجديد للدين وللأوضاع المقررة فى الدين ، نقلت المسلمين من عداد الأمم التقليدية إلى مصاف أمم خالصة من القيود لم توجد إلا فى القرون المتأخرة ، ولكن مع هذا الفارق العظيم ، وهو أن المسلمين على أى حال كانوا حيال التقاليد الدينية خضعوا لسلطان المبادىء الأدبية الخالدة ، مهدرين فى هذا السبيل

---

(١) سورة المائدة ، من الآية (٦) .
(٢) سورة البقرة ، من الآية (١٧٣) .
(٣) سورة النحل ، من الآية (١٠٦) .

الفوارق القومية ، والخصوصيات المحلية . فهم فى الوقت الذى يعلنون فيه أنهم يعتدُّون بالأحوال ، ويقدرون الأمور ، ويقدمون المصلحة الإنسانية على الأوضاع التقليدية ، يصرحون فيه بأنهم أشد الأمم تقيداً بالمبادئ الأدبية الخالدة ، والأصول العمرانية الحقة ، ويتشددون فى ذلك تشدداً كله خير وبركة على المجموعة البشرية .

والإسلام لم يقرر هذه المبادئ ليتحلل أهله من التقاليد المرعية فى الناحية الإيجابية فحسب ، ولكن فى الناحية السلبية أيضا ، فإنه كما انتصر لعبد الله بن جحش قائد السرية فيما فعل من قتال المشركين فى الشهر الحرام ، أنكر على من لم يأخذ بالظاهر من أعمال الخصوم . فقد قتل صحابى فى الحرب رجلا نطق بكلمة الشهادة ، عندما أحيط به وأدرك أنه هالك ، فأخذه النبى ﷺ على ذلك وتبرأ من عمله ، ونزل فى ذلك قرآن ينهى عن مثل فعله . فقال الصحابى فى دفاعه عن نفسه : يا رسول الله إنما قالها والسيف هاوٍ على رأسه ، ليتقى بها التلف عن نفسه . فرد عليه النبى ﷺ شبهته بقوله : إننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر والله يتولى السرائر .

فهذا الأصل الدالّ على أسمى ما يعرف عن العاطفة الإنسانية ، يجب أن يسجل للإسلام فى أوجَهِ صحف الدعوة الدينية . وإذا أضاف القارئ إلى ذلك ما يعلمه عن الوحشيات التى استخدمها متحمسة الدينيين غيرالمسلمين فى مقاتلة خصومهم ، والتنكيل بمن لا يدين يدينهم ، حتى أبادوا فى فورة هذه الحماسة الجاهلية أمما برمتها ، أدرك مبلغ سمو هذا الأصل فى الإسلام ، وتنوّر مصدره الإلهى البحت .

وهذا الفهم الجديد للتصرف حيال التقاليد الدينية فى أمر هذه الحادثة البسيطة ، لازمَ المسلمين فى جميع تصرفاتهم الاجتماعية ، فلم يجمدوا حيال الأمور ويمضوا فيها على ما توجبه التعاليم المقررة ، بدون فهم ، ولكنهم أعملوا أفهامهم - بأمر من كتابهم وبسنة من رسولهم - فلم يتكاءدهم أمر مهما أعضل ، ولا حيَّرهم خطب مهما أشكل ، بل واجهوا الأهوال بصدور رحبة ، ووجوه طلقة ، وعقول عمرت بأرفع المبادئ ، وقلوب استنارت بأسمى الأصول ، جاعلين غرضهم الأول جعْل كلمة الله هى العليا ، وكلمة الكفر هى السفلى ، ولكن فى غير عنف يوصم

صاحبه بالجهل ، ولا عسف يقف براكبه دون الغاية ، ولا وهمٍ يفتح أمام الخاضع له أبوابا من التخيلات تورطه فيما كان فى غنى عن التورط فيه . وكذلك تفعل المبادىء القويمة إن فهمت على وجهها ، وأُخذت على حقيقتها ، وقام بتلقينها رسول جمع من عقائل الصفات الإنسانية ، وخصوصيات النفسية النبوية ما جمعه النبى صلّى الله عليه وسلم (*) .

★ ★ ★

(★) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الخامس ، جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ هـ .

وقعة بدر
النظام والشورى والاستبسال وتربية الوحى

ظل النبى ﷺ مرتقبا عَوْد تجارة قريش من الشام حتى بلغه خبر رجوعها ، فندب صحابته للخروج معه إليها ، فلبى دعوته ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وهو عدد يكفى لما هو بسبيله ، فاكتفى بهم ، وكان عدد مطاياهم اثنين وسبعين يعتقبونها ، منها فرسان وسبعون بعيرا .

فلما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر خروج رسول الله ﷺ للاستيلاء على أموالهم ، وكان قائدا لحامية القافلة ، أرسل إلى قريش رسولا يعلمهم بالخبر ، واتبع هو طريقا غير طريق القوافل ، رجاء أن يفلت ممن يترصدونه . وتسارعت رجالات قريش إلى نجدته فخرجوا تحت قيادة كبرائهم فى تسعمائة وخمسين مقاتلا ، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير . ولم يعلم رسول الله بكل هذا ، وقد عسكر خارج المدينة وأرسل رجلين يتعرفان له الأخبار ، ثم سار حتى بلغ الرَّوْحاء ، وهى على بعد نحو أربعين ميلا من الجنوب الغربى للمدينة ، وهنالك جاءه الخبر بأن قريشا قد هبت تدافع عن أموالها ، وأن تجارة قريش تمر من بدر غدا أو بعد غد . فاستدعى النبى ﷺ كبراء جنوده وأخبرهم بأن الله أوحى إليه ووعده إحدى الطائفتين : قافلة التجارة ، أو جيش قريش ، فتبين أن الرأى الغالب يميل إلى الاستيلاء على القافلة ، واحتجوا بأنه لما استنفرهم لم يذكر لهم أنه بسبيل قتال ، ليأخذوا له عدته ، فأنزل الله فى ذلك قرآنا يعاتبهم وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [1] ، أى أنكم طلبتم الأيسر عليكم وكرهتم ما فيه عز وشوكة لكم .

عند ذلك قام المِقْداد بن الأَسْود وتكلم ، وكان مما قاله : « يا رسول الله

---

(١) سورة الأنفال ، من الآية (٧) .

امض لما أمرك الله ، والله لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد [١] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » . فدعا له بخير . ثم التفت إلى رجاله وقال : أشيروا علّى أيها الناس ، وهو يريد أهل المدينة ، لأن البَيْعة التى أخذها عليهم قد يفهم منها أنه لا تجب عليهم نصرته إلا ما دام مدافعا وهو بين أظهرهم .

فقال له سعد بن مُعاذ سيد بنى الأوس : كأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فقال : أجل .

فقال سعد بن معاذ : « قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا ، فامض لما أمرك الله ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنّه معك ، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غدا ؛ إنا لصُبُر عند الحرب ، صُدُق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسِرْ على بركة الله » .

فأشرق وجه النبى ﷺ لهذا الكلام وسُرَّ به . وعند ذاك التفت إلى أصحابه وقال : « أبشروا والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » .

فأدرك القوم من هذا الكلام أن الحرب واقعة لا محالة .

قلنا إن أبا سفيان بن حرب قائد حامية القافلة اتبع طريقا غير طريق بدر ونجا بالتجارة ، وما كاد يأمن عليها حتى أرسل من يبلغ الجيش الذى سار لخلاصها أنه لا حاجة إلى الحرب فقد أفلت هو ورجاله وما معهم .

فقال أبو جهل بن هشام وهو من رؤساء ذلك الجيش : لا نرجع حتى نصل إلى بدر ونقيم بها ثلاثا ، ليسمع العرب بما فعلنا ، فيهابوننا أبد الدهر .

فلم يرق هذا الرأى الأَخْنَس بن شَرِيق الثقفىّ فأمر قومه وحلفاءه أن يرجعوا فرجعوا . وسار جيش قريش حتى وصلوا إلى وادى بدر فنزلوا شاطئه الأقصى فى أرض سهلة .

فلما بلغ النبى ﷺ ذلك ، سار حتى نزل من وادى بدر عند شاطئه الأدنى

---

(١) اسم موضع بعيد من بلاد العرب . ويطلق ويراد به أقصى المعمورة .

بعيدا عن الماء فى أرض سبخة ، فأصبح المسلمون ولا ماء لديهم ، فكادت تتثبط عزائمهم وهم قريبو عهد الإسلام ، فاتفق أن جادتهم السماء بمطر مِدْرار حتى امتلأ الوادى وفاض ، فشربوا واتخذوا الحياض ، وملأوا أسقيتهم ، وتلبدت الأرض التى تحت أرجلهم . وكان أثر هذا الغيث وبيلا على المشركين ، فإن المياه أوحلت أرضهم وجعلتهم لا يستطيعون الانتقال . وقد أشار الله إلى هذه المعونة غير المتوقعة بقوله تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ، وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (١) .

ثم سار النبى ﷺ على رأس جيشه حتى نزل أدنى ماء من بدر . فقال له الحُباب بن المنذر الأنصارى وكان مشهوراً بأصالة الرأى : يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أو هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال رسول الله : بل هذا هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال الحباب : يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فإنى أعرف غزارة مائة وكثرته ، فتنزله ونغوّر ما عداه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء فنشرب ولا يشربون .

فقال له النبى ﷺ : لقد أشرت بالرأى . ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ، ثم أمر بالآبار التى خلفهم فغُوِّرت ، وبنى حوضا على البئر التى نزلوا إليها .

وبعد ذلك بُنى له عريش (٢) فوق تل ليشرف منه على المعركة ، ولما اجتمع المسلمون واستعدوا للحرب نهض رسول الله وقوّم صفوفهم ، وجعل مناكبهم متلاصقة كأنهم بنيان مرصوص . ثم نظر إلى قريش وقال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادُّك وتكذّب رسولك ، اللهم فنصرَك الذى وعدتنى به » . ثم نظر إلى أصحابه وأخذ يحثهم على الثبات فى مجالدة أعداء الحق ، وكان مما قاله : « إن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم » .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية (١١) .

(٢) العريش ، البيت يستظل به . وما عرش للكرم . وشبه الخيمة من خشب وثمام جمعه عرش بضمتين .

ثم حدثت مبارزة بين رجال من المشركين ورجال من المسلمين ، وبعدها التفت النبى ﷺ لأصحابه وهم وقوف وقال : « لا تحملوا حتى آمركم ، وإن اكتنفتم القوم فانضحوهم بالنبل ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » .

ثم قال ﷺ : « سيهزم الجمع ويولون الدبر ، والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، ومن قَتل قتيلا فله سَلَبه » .

وأمر النبى بالحملة على المشركين ، فما هى إلا ساعة من نهار حتى تزلزلت أقدامهم ، وخارت قواهم ، وأخذوا يولون الأدبار ، ثم أفضى بهم التراجع إلى هزيمة منكرة .

ولما أحصى القتلى وُجدوا سبعين فيهم رجال يعتبرون من كبار سادات قريش ، منهم : عُتْبة وشَيْبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبو البَخْترى بن هشام ، والجراح والد أبى عبيدة ، وأمية بن خلف وابنه على ، وحنظلة بن أبى سفيان ، وأبو جهل ابن هشام ، ونوفل بن خويلد ، وعبيدة والعاصى ولدا أحيحة سعيد بن العاص بن أمية .

وعُدّ الأسرى فكانوا سبعين رجلا أمر النبى ﷺ أن يقتل منهم عقبة بن أبى مُعَيط والنضر بن الحارث ، وكانا من أشد خصوم المسلمين ، والمؤلبين عليهم ، والمستهزئين بهم .

ثم أمر ﷺ أن يدفن قتلى المشركين فى قليب بدر ، فلما تم دفنهم ذهب إلى شفة ذلك القليب وجعل يناديهم بأسمائهم ويقول : أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله ، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟

فقال له عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟

فقال له رسول الله : والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

وكان عدد من قتل من المسلمين فى وقعة بدر أربعة عشر رجلا .

الخلاف على مصير أسرى بدر :

استشار النبى ﷺ أصحابه فيما يفعل بالأسرى ، فرأى عمر أن يقتلوا ، محتجا بأنهم صناديد قريش ، وأئمة الكفر فيهم ، وقادتهم إلى الضلالة ؛ ووافقه سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة .

ورأى أبو بكر أن يأخذ منهم الفداء قائلا : إن ما نأخذه منهم يكون لنا قوة على الكافرين ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام فيكونوا له عضدا .

فمال النبى ﷺ إلى رأى أبى بكر ، فكان منهم من يفتدى نفسه بأربعة آلاف درهم ، ومنهم بأقل من ذلك إلى ألف على قدر طاقتهم . ومن لم يكن معه فداء وكان يحسن القراءة والكتابة جُعل فداؤه أن يعلم عشرة من غلمان المدينة .

وكان من الأسرى سهيل بن عمرو ، وهو من خطباء قريش ، وقد طال ما آذى المسلمين بلسانه ، فخاطب عمر فى شأنه النبى ﷺ قائلا : دعنى يا رسول الله أنزع ثَنِيَّتَىْ سهيل ليندلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبدا .

فقال له النبى ﷺ : لا أمثِّل فيمثل الله بى وإن كنت نبيا ، وعسى أن يقوم مقاما لا تذمه . وقد حقق الله ما أنبأ به النبى ، وذلك أنه لما توفى ﷺ وأراد أهل مكة أن يرتدوا ، كما ارتدت قبائل العرب ، قام فيهم خطيبا ونصحهم بمراجعة عقولهم ، وعدم الإصغاء لمن يريدون تضليلهم ، فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه .

عتاب الله للمسلمين فى أمر الفداء :

قرر النبى ﷺ بعد أخذ رأى أصحابه أن يقبل الفداء من المشركين الذين أسروا ، فلما تم هذا الأمر نزل قرآن يعاتب المسلمين على ما فعلوا ، ويشير إلى أن الأولى بالعمل كان أن يقتلوا ، لأنهم وهم سادة قريش كانوا سببا فى الصد عن دين الله ثلاث عشرة سنة ، وأنهم أسرفوا فى إيذاء المؤمنين واضطهادهم ، وأذاقوهم مر العذاب أيام كانوا بين أظهرهم ، وأنهم لا يزالون يصرون على معاكسته ومكافحته ، رجاء أنِ يتمكنوا من حل جماعته ، والتعفية على أثره ، فقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ

أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ ، يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

معنى هذا أنه ليس لنبى أن يكون له أسرى حرب إلا بعد أن يكثر من قتل أئمة الكفر ، لا أن يتركهم بعد أن يمكنه الله منهم ، ليعودوا إلى شرٍّ مما كانوا عليه ، فيبذلوا جهدهم للثأر من المؤمنين ، ولتعطيل نشر الدين .

هنا يمكن أن يقول معترض : إن الذى عرف عن الإسلام أنه دين رحمة وسماحة وصفح ، وأنه فيما سنه للحرب قد فاق فى تسامحه وسعة صدره كل ما عرف من أوضاع المدنية الراهنة ، وهذا من أقوى الأدلة على إلهيته ، فما باله فى هذا الموطن يعتب على المسلمين أخذهم بمبدأ الرحمة فى معاملة رجالات قريش الذين أُسروا فى معركة بدر ؟

نقول : إننا نخالف المعترض ونرى فى هذا التشديد أروع مظهر لإلهية هذا الدين . وسنجلى هذا الفهم بقليل من البيان :

ذلك أن الأصول الإسلامية التى يذكرها المعترض لم تكن قد نزلت بعد ، وما نزل فيها قرآن إلا بعد أن اشتد ساعد الإسلام ، وتوالت المعارك بينه وبين خصومه ، فلا تناقض هنا بين ما أوحى من وجوب قتل الأسرى قبل الإثخان فى الأرض ، وبين الأصول التى يذكرها المعترض .

للمعترض هنا أن يقول إن هذا الأصل ينافى الرحمة التى يجب أن يتصف بها شرع إلهى .

وعلينا أن ندعوه ليتأمل معنا فى أن قتال المسلمين لمشركى العرب كان الداعى إليه كسر شرتهم فى معاكسة الإصلاح العالمى الذى هبوا لنصرته ، وقد ارتكبوا ضده من ضروب الاضطهاد ما ينافى كل رحمة ، ويسجل عليهم كل وحشية ، فلا يكون

---

(١) سورة الأنفال ، الآيتان (٦٧ – ٦٨) .

موافقا للمنطق أن يقبضوا عليهم ويتركوهم فى مقابل فدية يؤدونها إليهم ، ليعودوا إلى أشد مما كانوا عليه ، فيضطروا للعود إلى قتالهم وإزهاق أرواح كثيرة فى تدويخهم .

فاللوم جاء مترتبا على أن المسلمين ، وقد قبضوا على هؤلاء الطغاة الذين تلوثت أيديهم بدماء رجال من المؤمنين الأولين ، كان لا يجوز لهم أن يطلقوا سراحهم ولم يذيقوهم وبال وحشيتهم .

وأما من ناحية أن فى العتاب القرآنى أروع مظهر لإلهية هذا الدين ، فذلك لأن مدعى النبوة يحتاج عادة إلى ضروب من التسامح يكسر بها حدة خصومه ، ويفل ما استطاع من غَرْبهم . فإذا ظفر ببعضهم فى إبان ضعفه ، فلا يبالغ فى النكاية بهم تفاديا من أن يظهر بمظر المتجبر ، فيُضْغِن عليه نفوسا كثيرة ، ويحملها على الاستماتة فى قمعه وإبطال أمره .

ومما لا يحتاج لتدليل أن قتل سبعين أسيرا من رجالات أشهر قبيلة فى البلاد العربية كان يقع من باقى أفرادها موقعا مؤلما للدرجة القصوى ، ويحملهم على تلمس الأنصار والأحلاف للأخذ بالثأر ممن قتلوهم .

فتجد مدعى النبوة يفكر فى هذا الأمر جيدا ، ويتقى حصوله جهده ، فإذا ما جرى على شاكلته من هذه المصانعة ، حاول أن يستغلها لمصلحته ، متطلبا فرصة أخرى من مثلها لبلوغ مراده من السلطان والغلبة .

ولكن مجىء هذا العتاب يقلب هذه المدارأة رأسا على عقب ، ويتركها كأن لم تكن ، ويجعل المسلمين كأنهم ارتكبوا ما تحاشوه جهده استطاعتهم ، لأنه يؤذن بأنهم لن يكونوا بعد هذه المرة على شىء من التسامح قبل أن يثخنوا فى أعدائهم . وهذه صراحة تجافى ما عليه الجماعات بعضها إزاء بعض من المخاتلات والمداورات ، وتنشىء حالة لا تقوى على التظاهر بها إلا جماعة واثقة من مصيرها ، متحققة من مآلها ، لا يقفها دون بلوغ غايتها أن يتألب العالم كله عليها .

وفى كل هذا دليل ضمنى على أن الاجتماع الإسلامى كان يتولاه ويربه الوحى الإلهى فوق العقل البشرى ، لأن العقل فى مثل هذه الحالة يأبى أن يقف هذا الموقف من الصراحة ، ويكبر عليه أن يصم نفسه على رءوس الأشهاد بأنه فيما تسامح به

قد آثره عرض الحياة الدنيا على ما وُعد به من ثواب الآخرة .

فإنْ قيل : إذا كان الأمر كما تقول فلم لم يتول الوحي الإلهي المسألة من أول أدوارها ، ولم لم يتداركها قبل تنفيذ القرار الذى اتخذ فى شأنها ؟

نقول : إن ولاية الوحى لجماعة المسلمين كانت على طراز التربية العملية الاستقلالية ، لا التربية النظرية الاتكالية . وكان القصد منها أن يتألف المجتمع الإسلامى قادرا على القيام بنفسه ، ومتمرسا على مكافحة الحوادث ، ومعالجة الكوارث بتدبيره ، حتى إذا تخلف عنه الوحى لم يضطرب فى سيره ، ولم يحتر فى تصريف أمره .

وقد عرف أخيرا أن خير التربية هى أن لا تبالغ فى حياطة ولدك ، وحمايته من الأخطاء وما تجر إليه من النتائج ، ولكن أن تتركه لتصريف نفسه مع مراقبته ، فإن طاش وأصابه خدش ، أو أخطأ فى تقديره وعراه جرح ، فإن ذلك يفيده فى إكسابه الحزم والتثبت ما لا يفيده ملء ذهنه من نظريات العلم .

كذلك الجماعات الإسلامية قد تولاها الوحى على هذا الأسلوب من التربية ، فتركها لعقول آحادها بعد أن أمدها بكل ما يُسمح به للبشر من نور الحكمة ، حتى إذا أحسنت وجدت مصداق ما وعدها به كتابها من استقامة الأمور ، وانتظام الأحوال ، وإن أساءت ذاقت وبال أمرها ، وأدركت حكمة ما أمرت باتباعه من الأصول القيمة .

هذه كانت سيرة الوحى فى ولايتها ، وقد نجح هذا الأسلوب نجاحا لا يعرف فى تاريخ البشرية له مشبه ، ألم تتأد الأمة الإسلامية فى سنين معدودة إلى ما لم تبلغه الأمم التى سبقتها فى قرون كثيرة ؟ (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء السادس ، جمادى الآخرة سنة ١٣٥٩ هـ .

الأمور الخارقة للنّواميس الطبيعية
فى وقعة بــدر

تمتاز العصور النبوية ، بالخوارق للنواميس الطبيعية ، فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل ، كان لها أقوى تأثير فى حمل الشعوب التى شهدتها على الإذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم . وقد حدثت أمور من هذا القبيل فى العصر المحمدى ، صاحبت الدعوى فى جميع أدوارها ، وكانت أعظم شأنا وأجل أثرا ، من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ما تناقله الناس من شق الصدر ، وتظليل الغمامة ، وانشقاق القمر ، وما إليها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس ، أو مما يتأتى توجيهه إلى غير ما فُهم منه ؛ ولكنى أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يد محمد ﷺ فى أقل من ربع قرن . وقد أعوز أمثالها فى الأمم القرون العديدة ، والآماد الطويلة .

وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرص فيما نكتبه فى هذه السيرة ، على أن لا نسرف فى صرف كل حادثة إلى ناحية الإعجاز ، ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العَادية ، حتى ولو بشىء من التكلف ، مسايرة لمذهب المبالغين فى التثبت ، والمحافظين على إقامة الدستور العلمى ، ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة ، ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى فى عرض المسائل وتحليلها ، لا يمكن أن يؤدى إلى ما قصد منه من الخدمة العامة .

وقد أتيت بتاريخ وقعة بدر التى كان لها شأن عظيم فى كسر شرة أنصار الجاهلية ، والطَّأمنة من خيلائهم وكبريائهم ، ولم أُلِمّ بما صحب هذه المعركة من الأمور الخارقة للطبيعة ، فأحببت أن لا يفوتنى التنويه بها ، لأنها من قبيل الحوادث المحسوسة . ولأجل أن نعرضها على وجهها الكامل لنتبين وجه إعجازها ، نأتى على الآيات التى وردت فى شأنها من الكتاب الكريم . قال الله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ . لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ

شَيْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [١] . يذكّر الله المؤمنين بما أمدهم به من عنايته إذ نصرهم فى موقعة بدر ، وهم قليلو العدد لا يغنون عن أنفسهم شيئا . ومراده من ذلك أن يبيد طائفة من الذين كفروا ، أو يخزيهم ويغيظهم ، فينقلبوا خائبين . ثم وجه الحق سبحانه القولَ إلى رسوله فقال : ليس لك من أمر تدبير العباد شىء ، فامض لما يوجهك الله إليه ، فإنه هو الذى يدبر أمر خلقه ، فإما أن يتوب عليهم وإما أن يعذبهم على أعمالهم فإنهم ظالمون .

وقال تعالى فى سورة الأنفال مشيرا إلى وقعة بدر : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ (قافلة التجارة أو جيش المشركين) ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ . إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى ، وَلِيُبْلِىَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . ذَلِكُمْ ، وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ . إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ ، وَلَنْ تُغْنِىَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرتْ ، وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢] .

معنى هذه الآيات : اذكروا إذ وعدكم الله النصر على إحدى الطائفتين : قافلة التجارة أو جيش المشركين ، فوددتم أن يكون نصيبكم غير ذات القوة منهما ، ولكن الله يريد أن يظهر الحق بكلماته ، أى بكتابه ، وأن يستأصل الكافرين . لينصر الحق ، ويزيل الباطل ، ولو كره ذلك المجرمون . واذكروا إذ تطلبون الإغاثة من ربكم بسبب

---

(١) سورة آل عمران ، الآيات (١٢٣ – ١٢٨) .

(٢) سورة الأنفال ، الآيات (٧ – ١٩) .

كثرة عدوكم ، فاستجاب لكم ووعدكم بأن يمدكم بألف من الملائكة متتابعين . وما جعل الله هذا المدد إلا بشرى لكم ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، لا بقوتكم ولا حيلكم . واذكروا إذ جعل الله النعاس يغشاكم وأنتم وسط ذلك الخوف ، ليذيقكم نعمة الأمن ، وأنزل لكم من السماء ماء ليروى ظمأكم ويطهركم به ، وليذهب عنكم وسوسة الشيطان ، ويحليكم برباطة القلب ، ويثبت أقدامكم حين تلتقون بأعدائكم . واذكروا إذ أوحى ربكم إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا المؤمنين فى الحرب ، سألقى فى قلوب الكافرين الرعب ، إلخ . وقد عدتم من وقعة بدر تفتخرون بعدد من قتلتموهم ، والحقيقة أنكم لم تقتلوهم ، ولكن الله هو الذى قتلهم ، وما رميتَ يا محمد حين رميتهم بحفنة من الحصباء قائلا شاهت الوجوه ، ولكن الله هو الذى رمى ، وقد امتحن الله المؤمنين بهذه النعمة ، ذلكم كان القصد ، والله مضعف كيد الكافرين . إن تستفحوا أيها المشركون ، أى إن تطلبوا النصر على المؤمنين ، فقد جاءكم النصر (الكلام مسوق على سبيل التهكم) ، وإن تقلعوا عن شرككم فهو خير لكم ، وإن تعودوا لمحاربة المؤمنين نعد لنصرتهم عليكم ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ، وإن الله مع المؤمنين .

الذى يتأمل فى هذه الآيات يدرك منها أمورا لا يمكن التردد فيها :

(أولها) أن المسلمين فى وقعة بدر كانوا قليلين وناقصى العتاد ، بحيث كانوا لا يأملون الانتصار على عدوهم فى كثرة عَدده واكتمال عُدده ، وقد عبر الله عن حالتهم ذلك اليوم بأنهم كانوا (أذلة) ، والإنسان لا يشعر بالذل إلا فى حالة العجز واليأس . فإذا لم يكونوا يشعرون بأنهم كانوا ذلك اليوم أذلة ، ساء ظنهم فى الوحى ودخلهم الشك فى مصدره .

(ثانيها) أنهم كانوا ، وهم رجال حرب وجلاد ، لا يتوقعون النصر يوم بدر إلا إذا جاءهم من طريق الإعجاز ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم إنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ . ولو كان الأمر ذلك اليوم عاديا لا يتطلب العون الإلهى المباشر ، لكان فى ذكر المدد الملكى هنا ، توهين للدعوة الإسلامية عند أهلها وعند خصومهم .

(ثالثها) أنهم انتصروا على أعدائهم نصرا مؤزرا ، وهم يعتقدون أنهم مُنحوه منحا ، ولم يستحقوه بقوتهم استحقاقا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ . ذلك أن رجالا منهم عادوا من المعركة يذكرون أسماء من قتلوهم ، وكان النبى ﷺ عند بدء المعركة تناول حثوة من الحصباء ورمى المشركين بها قائلا : (شاهت الوجوه) ، فردعهم الله عن إسناد هذا النصر وما اقتضاه إلى أنفسهم ، وأمرهم بإسناده إلى الله وحده . ومراده أن يعرفوا أنهم لو كانوا تُركوا وشأنهم بدون تأييد سماوى ، لما تمكنوا من قتلهم والتغلب على من بقى منهم . وهذا إذا لم يكن صحيحا فى تقدير رجال الحرب المحنكين ، وناهيك بعرب الجاهلية ، لكان تأثيره فى قلوب سامعيه عكسيا ، أى أنه كان يصد عن الإيمان بصحة الإسلام ، ويوقر فى صدور الناس أنه يعتمد على الإيهام ، وتجسيم الحوادث ، لكسب الأعوان والأنصار لأغراض دنيوية باحتة .

وإذا كان الأمر على ما رأيت فإن هذه الموقعة جديرة بأن يكون لها من الأثر فى تثبيت إيمان المؤمنين ، وتوثيق ارتباطهم بالإسلام ، ما عُزى إليها . وقد أشاد المسلمون بذكرها ، ونوّهوا بشأنها ، ما لم يفعلوه بجميع ما تلاها من الوقائع ، حتى إنهم دونوا أسماء من شهدها من المسلمين الأولين ، وذكرها الشعراء فى أشعارهم . قال أبو تمام الطائىّ فى بائيته المشهورة التى مدح بها المعتصم ابن الرشيد عقب انتصاره العظيم على امبراطور الرومان تيوفيل سنة (٢٢٣) للهجرة :

ما بين أيامك اللائى نُصرت بها   وبين أيام بدر أقربُ النسب

* * *

وإذا قلبنا هذه المسألة على وجه ثان وجدنا أن جانب الإعجاز فى هذه الموقعة يتجلى بمرجحات من نوع آخر . ذلك أن النبى ﷺ لما ندب أصحابه لملاقاة قافلة التجارة التى لقريش ، لم يأخذوا أهبتهم لقتال ، ولكن لمنازلة عصابة من الحراس . والتأهب لمثل هذا الشأن غير التأهب لملاقاة جيش محارب . فإذا كان منازلة العصابة لا تقتضى أكثر من الهجوم عليها بالأسلحة الخفيفة واغتصاب ما بيدها ، ثم تشريدها وأسر من يقع فى اليد منها ، فإن مكافحة جيش يستدعى التذرع له بجميع ما للحروب

من أُهَب آلية ، كالأسلحة والتروس والدروع ، وأدوات للقطع والحفر والتحطيم ، وأُهَب للتموين والزحف والحصار والمواصلات .

وقد ظهر هذا الفرق على أشد حالاته عندما أخبر النبى ﷺ أن الله قد وعده إحدى الطائفتين ، إما التجارة وإما جيش قريش ، فاختاروا أن يتحقق وعد الله فى التجارة ، محتجين بأنهم لم يتخذوا للحرب عدتها ، ولم يقل لهم النبى حين ندبهم أنهم قد يُدعون لملاقاة جيش مقاتل .

فلما أفلتت التجارة تعين عليهم أن ينازلوا الجيش المقاتل ، وكيف يتأتى ذلك وهم مع قلة عددهم لم يتخذوا للحرب عدتها ؟ وقد أدى ذلك إلى موقف من التردد أدركه النبى ﷺ وعمل على ملافاته ، وهذا الإقدام لا يكون مع وجود هذا العامل الخطر من التردد فى جيش محارب إلا إذا كانت ثقة قائده بالنصر مطلقة ، وكيف لا تكون كذلك وهو رسول وقد وعده الله إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداهما فلا بد أن يكون مصداق وعد الله الأخرى .

فإذا لم يكن قائد هذه الفصيلة من المحاربين نبيا ، واثقا كل الثقة من صدق ما ينزل عليه من الوحى ، لما أقدم على الزج بمن تحت إمرته فى الحرب ، وهم على ما هم عليه من الاختلاف والتهيب ، لأنه كان يتحقق أن هزيمتهم لابد منها لأسباب فنية وجبهة :

(أولها) تفوق العدو فى العدد بحيث كان على نسبة ٣ على ١ ، وهذا يعتبر فى عرف الحربيين تفوقا ساحقا ، لا يكون فيه للقلة أمل فى الظفر إلا إذا كان لديها من العتاد ما ليس عند الأخرى ، أو من المناعة الطبيعة ما ليس مثله لخصيمتها .

(ثانيا) تفوق العدو فى الأسلحة ، وهى العوامل الفاصلة فى الحروب كما لا يخفى .

(ثالثها) تحقق الجيش المحارب من تفوق عدوه عليه فى عوامل الغلَب .

فالقائد الذى يدفع بجيشه فى أتون الحرب مع تحققه من تأثير كل هذه العوامل ، ويقول كما قال النبى ﷺ : « أبشروا والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » ،

وقوله : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى به » ، قلنا إن القائد الذى يدفع بجيشه للحرب ، مع توافر أسباب الضعف فى جنوده ، وهو واثق بالفوز هذه الثقة ، لا يعقل أن يكون صادرا فيها عن مغامرة ، إلا إذا كان يريد المجازفة بكل ما يملك من نفس ومال وأهل ، وما الذى كان يدفع محمدا لذلك و لم يكن مضطرا إليه بحال من الأحوال ؟ فلا قومه كانوا يقولون له قد غررت بنا وادعيت أنك فائز و لم تفز ، لأنهم هم الذين كانوا يطلبون إليه الرجعى بدون حرب ؛ ولا مشروعه كان يتعرض للفشل لو رجع بدون قتال ، لأن العدو لم يكن ينوى أن يهاجمه فى عقر داره ، ولو فعل لاستهدف للهزيمة لأن القوة التى كانت معه لا تسمح له بالشروع فى حرب استئصال ؛ ولو هو كان يخشى أن يتفرق أصحابه عنه إذا عاد ولم يلق فُلجا ، فقد خرج مرارا للاستيلاء على تجارة قريش وعاد دون أن يعمل شيئا لإفلاتها منه ، فلم يؤثر ذلك فى إيمان أصحابه به . فلم يبق إلا أنه دفع قومه فى هذه المعركة التى لم يستعدوا لها ، ثقة منه بما وعده الله من الفوز على إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداهما فلا بد أن يصدق وعد ربه فى الأخرى ، فدفع أصحابه إلى منازلتها واثقا بالنصر ثقة لا حد لها ، لأن الله لا يخلف وعده كما قال فى كتابه الكريم : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ [1] . فحقق الله ظنه فيه ، وآتاه نصرا أيد به حجته ، وقوى عزيمته ، وجعله فاتحة لانتصارات أخرى سيكون من آثارها ما ابتنى عليها من الحوادث الخطيرة .

رد شبهة فى هذا الموطن :

قد يقول معترض : ليس فى انتصار محمد فى وقعة بدر ما يصح أن يجعل فى عداد المعجزات النبوية . فإذا كانت جميع عوامل الغلب تنقص المسلمين فى تلك الموقعة ، فهنالك عامل خطير جدا كان متوافرا لديهم ، وهو الثقة المطلقة فى نبوة قائدهم ، وأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يُوحى . فإذا اتفق لقائد أن

---

(١) سورة إبراهيم ، من الآية (٤٧) .

يكون تحت إمرته رجال يثقون بكلامه ، ويصدقونه كما يصدق أصحاب محمد محمدا ، لاقى بهم الأهوال و لم يُبَلْ ، لأنّ عقيدتهم تضاعف من قوتهم ، وتكسبهم روحا تدفعهم فى الكريهة بغير مبالاة بما يصيب أجسادهم ، وتجعلهم لا يشعرون بما يشعر به الرجال المجردون من مثل هذه الروح من التعب والنصب ، وخاصة إذا كانوا يعتقدون أنهم إذا ماتوا انتهوا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، أُعد لهم فيها من ضروب المتَع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فهل تعجب بعد ذلك أن يكسب محمد معركة بدر ولديه من أمثال هؤلاء الرجال ثلاثمائة إزاء ألف ؟ إن العجب كان أن لا تفوز هذه الشرذمة بالغلَب على عدو لا يملك من وسائل الكفاح إلا ما لديه من العُتُد العادية .

نقول : إن هذه الشبهة فى ظاهرها قوية ، لاستنادها إلى أصول بسيكولوجية ، ولكنها فى الواقع شعرية خيالية ، وقائمة على افتراضات تحكمية ، فإن الأصول النفسانية التى تقوم عليها لو صدقت على عشرة رجال أو عشرين بل خمسين ، فلا تصدق على المِئين ، لا سيما وقد كان معظمهم قريبى عهد بالإسلام ، و لم تظهر لهم بعد من مظاهر تأييد الله لرسوله فى المآزم ، ما يتخذونه مثالا لهم فيما هم بسبيله من منازلة جيش يفوقهم عددا وعدة ، وفيه من الأبطال المعدودين عدد ليس بالقليل . فعناصر الاستماتة فى القتال التى يَفترض المشتبه وجودها فى جيش الصحابة إن وجدت فيه ، فلا توجد بالقدر الذى يوجب لهم التغلب على عدو لا ينقصه من عوامل التغلب شيء ، حتى عامل النعرة القومية ، فإن الجاهليين كان قد أمضّهم تسفيه أحلامهم ، وتحقير آبائهم .

ولو أضفت إلى هذا عامل تنازع البقاء ، وهو ما لا بد من أن يكون قد تيقظ فيهم بسبب قيام المسلمين على طريق تجارتهم ، يتصدون لها كلما مرت بهم ، فيضطروا إما إلى زيادة عدد حاماياتها ، وإما إلى الإقلاع عن إرسالها ، وكلا الأمرين غير محتمل . فكان من أمس الأمور بمعاشهم أن يستبسلوا فى إبادة هذه الطائفة التى قامت عقبة فى سبيل مبادلاتهم ، وهم ما آثروا الحياة الحضرية ، فى مدينة مبنية ، ليموتوا فى حجرات دورها جياعا عارين ، ولكنهم تخيروها ليعيشوا عيشة المدنيين ، مع كل ما تقتضيه حياة الاستقرار من المبادلات والمعاوضات ، وهذه لا تكون إلا

بتأمين الطرق ومسالمة الجماعات التى تقوم على جانبيها ، أو إخضاعها لسلطانهم .

إذا اعتبرت كل هذا وجدت أن جيش الجاهليين لم تكن تنقصه عوامل الاستبسال والاستماتة فى القتال ، وإذا أضفت إلى ذلك تفوقه فى العَدد والعُدد ، أدركت أن التغلب عليه بشرذمة لم تتخذ كل عدتها لحرب زبون ، يعتبر آية من الآيات فى تلك البيئة التى كان أهم ما يحرك الهمم فيها إلى حدود التضحية ، عامل الحاجات الأولية لحفظ الذات ، لا عامل الدفاع عن العقائد ، والذياد عن المبادئ . ناهيك أن تلك البيئة التى كانت لا تنقطع سلسلة الغارات فيها بسبب تنازع البقاء ، لم تنشأ فيها حرب واحدة فى مدى تاريخها الطويل ، لنصرة دين على دين ، أو مذهب على مذهب . فكانت وقعة بدر أول ما حدث من نوعها فى هذا الركن المنعزل من الأرض .

فإن أصر المعترض على شبهته ، قلنا له : إن نضج العاطفة الدينية طفرة إلى حد تضحية النفس فى سبيلها ، لدى قوم كعرب الجاهلية لم تؤثر عنهم حماسة دينية طوال عهدهم بالوجود ، يعتبر أكبر من المعجزة الحربية التى نحن بصددها ، وأدل على المدد الإلهى منها . فعلى أى أساس صحيح يستطيع البسيكولوجى أن يعلل انتصار المسلمين على عدوهم فى بدر بأسباب طبيعية محضة لا أثر للإعجاز فيها (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء السابع ، رجب سنة ١٣٥٩ هـ .

الحالة النفسية والاجتماعية للمسلمين بعد انتصارهم على قريش ببدر

قد تمر على المجتمعات فى بدء حياتها حوادث تؤثر فى وجودها من ناحية ترابط آحادها وتماسك أجزائها ، ولكنها لا تبلغ ، مهما عظم شأنها ، ما يحدثه النضج الاجتماعى الذى يتم بعد مكابدتها للأطوار التى يستدعيها الاجتماع فى أدواره المقررة فى قرون عديدة .

فهذه الجماعة من مهاجرى مكة ، ومؤمنى قبيلتى الأوس والخزرج اللتين ألف بين آحادهما دين لم يكن للعرب فى وثنيتهم العتيقة ، وتقاليدهم الموروثة ، عهد بمثله ، كانت بحاجة لأجل أن تحيا حياة اجتماعية أن تتأثر بعوامل الاجتماع ، وأن تخضع لأفاعيلها ، ولا يكون ذلك إلا إذا وُجدت تلك العوامل واستعد الآحاد للتأثر بها ؛ وهى لا توجد بالصناعة ، وإن أمكن إيجاد بعضها فيتعذر إيجاد بعضها الآخر ، لأنها تتعلق بالبيئة الطبيعية ، وبقابلية الآحاد للتطور ، وبالأحوال الاقتصادية ، وبالجماعات المجاورة ، وكل هذه الشئون ليس فى اليد إيجادها .

أما مجرد العقيدة الدينية فلا تكفى فى تكوين وحدة اجتماعية ، لأن العقيدة عمل قلبى لا يتوقف على الاندماج فى جماعة . وقد عاش المسيحيون بعد عيسى عليه السلام نحو ثلاثة قرون لا تجمعهم جامعة ، متفرقين فى بلاد متباعدة ، وبقى اليهود أكثر من ألفى سنة مشتتين فى الأرض ليس لهم دولة . فكان لا بد لأجل قيام دولة إسلامية من توافر عناصر الاجتماع فى الطائفة التى اتخذته دينا لها ، ومن خضوعها لأفاعيلها آمادا طويلة .

فإذا كان على محمد ﷺ ، لأجل أن يصل إلى تأليف جماعة ، أن يوجد العوامل الأدبية والمادية التى تتكاتف على إيجادها على الأسلوب نفسه الذى تتبعه الطبيعة فى تأليف الجماعات ، فأنَّى له أن يوجد لها الزمان الكافى لترسيخ نتائجها فى نفسية الجماعة ، وهو شرط لا بد من توافره فى حياة الجماعات ؟

اللهم إن هذا من المحالات العلمية ، وهو فى البلاد العربية التى لا يوجد فيها

من عوامل الاجتماع إلا ما يكفى لتوليد القبائل ، يعتبر مما لا يجوز أن يفكر فيه إنسان ، وكيف يجوز التفكير فيه والطبيعة نفسها عجزت عن إحداثه ، فبقيت الجماعات العربية على الحالة القبيلية من يوم وُجدت إلى مبعث النبى ﷺ ؛ لا لنقص فى قواها المعنوية ، ولكن لعدم توافر عوامل تآلفها . فانتداب محمد ﷺ للإتيان بمحال فى تاريخ البشر ، أمر لم يقدم عليه فرد من أفراده ، ولم يطف فى رأس عبقرى من عباقرته من يوم وُجد العالم إلى يومنا هذا .

لا جرم أن الانتداب لمثل هذا العمل يعتبر غريبا إلى أبعد حدود الغرابة ، ولكن غرابته وخروجه عن دائرة الأمور العادية لا يجوز أن يثنينا عن النظر فى الوسائل التى تذرع بها محمد ﷺ ، تحت إرشاد الوحى ، للوصول إلى هذه الغاية البعيدة .

أول ما وَجّه النبى همته إليه ، أن جعل للطائفة التى اتبعته غاية سامية تسعى للوصول إليها ، لأن كل جماعة لا يكون لها غاية ، تركد حيث هى ، وتكتفى من الحياة بما يحفظ وجودها الشخصى وكيانها القومى ، وقد تلبث على هذا عشرات القرون حتى تبيد أو تفنى فى جماعات أقوى منها . فكانت الغاية التى عينها النبى للجماعة التى يرأسها أن تكون نواة الدين الذى شُرع لإصلاح جميع الأديان ، وأن تُحمى الدعوة إليه ضد كل من يحاول أن يحول بينها وبين الانتشار .

وهذا لا يكفى فى تكوين أمة ، ولا فى إقامة دولة ، فالأمة لا يتحقق لها وجود إلا بتوافر عدد أفرادها ، وشغلهم حيزا معروف الحدود بين الأمم المجاورة لها ، والدولة فى حاجة إلى مقومات اقتصادية وأدبية وسياسية . وهل يمكن الوصول إلى هذا كله إلا بانشاء العلاقات بينها وبين الجماعات القريبة منها والبعيدة عنها ؟

ولكن هل هذه العلاقات مما يمكن إيجاده من غير طريق العوامل التى توجبه ؟

هذه العوامل تقتضى فيما تقتضيه التبادل الاقتصادى ، والتبادل الثقافى ، وكل هذا يقتضى الإنتاج الزراعى والصناعى ، والإنتاج الفكرى . فهل كانت يثرب بالبيئة التى تولد كل هذه العوامل ؟

هذا هو الأسلوب الطبيعى فى توليد الأمم وإقامة الدول ، ولو صادفها محمد فى البيئة التى ظهر فيها لما كان فى عمله إعجاز ، ولكان أمكن الخصم تعليل نجاحه

بالعلل الاجتماعية ولو من طريق التلاعب بالألفاظ ، غير مقدِّرِكَمْ كان يقتضى تنبيه هذه العوامل من الآماد المتعاقبة فى شروط ملائمة ؟ ولكن النبى لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى بعد إحدى عشرة سنة من يوم انتقاله إلى يثرب حتى كانت للإسلام أمة ، وكانت له دولة .

إن ميزة الأوامر الإلهية أن تنفذ ولو قامت دونها جميع الحوائل الطبيعية والإنسانية . وقد أراد الله أن تكون للإسلام أمة ودولة قبل أن يفارق رسوله العالم الأرضى فكانتا ، كانتا فتيّتين قويتين حاصلتين على جميع عوامل النماء والتطور ، نقلتا العالم كله من حال إلى حال آخر ، لا صورتين وهميتين لم تلبثا أن انحلتا بعد وفاة موجدهما ولم تتركا أثرا .

فإذا كان فى تكوينهما على خلاف السنن المعروفة إعجاز يقف العلم الاجتماعى أمامه حائرا ، فإن فى بقائهما واستمرارهما وعظمة آثارهما إعجازاً ثانيا ليس بأقل من الأول .

يستخف بعض الناس بتأليف الأمم ، فيخيل إليهم أن الآحاد كأحجار البناء يضعها البنّاء حيث أراد ، لاحماً بعضها ببعض بالمِلاَط ، فيشيد منها قصراً على النظام الذى وضعه من قبل . هذا النظر يدل على فاقة علمية توجب المرحمة . والحقيقة أن الآحاد الذين تتألف منهم الأمم كائنات عاقلة لا يمكن تشبيهها بالأحجار ، والمِساك الذى يجمع بينها مؤلف من رُبُط معنوية تشترك فى تكوينها ضرورات طبيعية ، ومقتضيات بيئية ، وحاجات عقلية وروحية ، فإذا لم تنتظم جميع هذه العوامل مئات الألوف من الآحاد فى وحدة لا انفصام لها ، اعترى هذه الفئام التفكك ، فلم يتم ترابطها بحيث إذا تحركت تحرك جميع آحادها اضطرارا لا اختيارا فى آن واحد ، كما يتحرك الجسم فتنفعل جميع أعضائه فى اتجاه واحد ، وعلى غرار واحد ، لا يسأل عضو عضوا لِمَ تَحَرك .

فتخيلْ كيف تصل أمة مؤلفة من عدة ملايين أو عشرات الملايين إلى هذا الضرب من التكافل مع تخالف آحادها فى أخلاقهم وعقلياتهم ونفسياتهم وآمالهم وأهوائهم ؟ فإذا رأيت أمما قائمة ولم يصادف قادتها أثرا من الحوائل ، فما ذلك إلا

لأن هذه الأمم كانت من عمل الطبيعة لا من عمل القادة . والعمل الطبيعى يجرى على أدوار متعاقبة ، فى آماد طويلة ، تنفقها الطبيعة فى التوفيق بين هذه المتناقضات ، لا بصبّها فى قالب واحد ، فهذا محال ، ولكن بإخضاعها لنظام تعاونى يحول تصادمها الضار إلى تكافل مفيد للجماعة كما هو مشاهد فى كل جماعة قائمة .

فهذا العمل الطبيعى البطىء لا يمكن محاكاته بالصناعة ، بمعنى أنه لا يمكن إقامة أمة من مجموعة آحاد من بيئات مختلفة ، بل لا يمكن تحويل الجماعات الصغيرة القائمة على مبدأ التناحر إلى وحدة اجتماعية يسودها التكافل والترافد من غير الطريق التدريجى التى تسلكها الطبيعة فى إيجادها بالعوامل الخاصة بها ، وهى لا توجد بالصناعة كما قدمنا . وهذا الأمر من الوضوح بحيث أن الله نبه العقول إلى إعجازه ، ونوه عنه بعبارة تشف عن عظم شأنه ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

تأمل فى قوله تعالى : ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ﴾ ، تجد فيه إشارة صريحة يدركها أولو العلم اليوم على النحو الذ ذكرناه هنا . فإن الذى يؤلف القلوب ، ويوحد ين مطالبها ، ويوجهها وجهة واحدة ، هى العوامل الطبيعية الموجبة لذلك ، لا المغريات المادية التى تزول آثارها بزوال تأثيرها .

بعد أن أصبح أمر الإعجاز فى عمل النبى ﷺ واضحا كل الوضوح ، يؤيده الكتاب الكريم نفسه ، ويؤيده العلم ، وجب علينا أن نتحسس من ذلك العامل الخفى الذى قام مقام جميع عوامل الاجتماع والتآلف إلى أبعد حد ، فتأثرت الجماعة بجميع مقومات الاجتماع على أوسع وأكمل وجه ، دون أن تدخل فى الأدوار التى تحصلها للنفس . ودخولها فى تلك الأدوار فى سنين معدودة لا يكفى لإيجابها ، فلا بد من مرور آماد طويلة عليها ، وتكرر حدوثها لتتهيأ النفس لقبول آثارها ، والقيام على

---

(١) سورة الأنفال ، الآيتان (٦٢ - ٦٣) .

آساسها [١] . فأى حدث فى العالم أغرب من قيام أمة متعاقدة الخناصر ، محكمة الأواصر ، متكافلة الطبقات ، منزهة من جميع عيوب الأمم السابقة والمعاصرة لها ، ومن أشيعها غشمرة المتغلب ، وسيطرة المتحكم ، وعُجب القوى المنتصر ، وبغى الجاهل المقتدر ؟

هذا غريب حقا ، وهو من أكبر دلائل نبوة القائم به محمد ﷺ . فإذا ألانت النبوة الحديد ، وفجرت الماء من الصَّيَاخِيد [٢] ، وأحيت الموتى بعد أن اخترمتهم المنون ، فإن إلآنة النفوس الجاهلية ، وتفجير ماء الحياة الروحية ، وبث أصول البطولة الصحيحة فى القلوب ، أشد إعجازا ، وأبعد أثرا من هذه الآيات الجزئية . فهذه الآيات تَشكك فيها الباحثون ، وأنكرها الماديون ، ولكن الآيات المحمدية لا يمكن إنكارها ، فهى ماثلة أمام الأعين ، مثولها فى تاريخ الأجيال السابقة ، تشهد بأن روحا ربانيا حل بهذه الجماعة ، فدفعها لإحداث أكبر الأحداث العالمية ، وتنبيه الأمم كافة من سباتها الذى كان طال عليها الأمد فيه .

ذلك العامل الخفى الذى أحْفَينا فى البحث عنه ، هو (الإيمان) الذى نفثه محمد ﷺ فى روُع جماعته [٣] ، فجعلهم يتلقفون ما يلقى إليهم بلهف عظيم ، فتتكيف به نفسياتهم ، ويصبح حالا لها كأنها ولدت مفطورة عليه .

هذا التعليل قد يجد فيه بعض الخصوم فرجة يتقحمون منها للغض من درجة إعجازه ، فيقولون : ما دامت المسألة استحالت إلى الإيمان ، فقد أمكن تعليلها بعلة طبيعية ، لأن الإيمان يفعل بالنفوس ما تفعله الوراثات المتأصلة ، فيسوقها إلى الأغراض التى تُوَجَّه إليها من طريق الانسياق الذاتى ، مضطرة غير مختارة ، فلا عجب أن يطبعها المستولى عليها من هذه الناحية على أى الصور شاء ، وأن يدفعها إلى أى الوجهات أراد .

---

(١) آساس جمع أسس (بفتحتين) وهى بمعنى الأس (مثلثة) والأساس . وجمع الأس إساس (بكسر الأول) وجمع الأساس أسس (بضمتين) .

(٢) الصخرة الصيخود هى التى لا تعمل فيها المعاول .

(٣) الروع (بضم الراء) : القلب والذهن والعقل . والروع (بفتحها) : الفزع .

نقول : مهلاً مهلاً ، فإن فى طىّ هذه المسألة أمرا يعتبر فى أرفع درجات الإعجاز ، ألا وهو إيجاد هذا (الإيمان) ؛ فعلى الخصم قبل أن يمضى قُدُما فى التعليل به ، أن يفسر لنا كيف أمكن للنبى أن يبثه فى قلوب ألوف مؤلفة من الناس على حال يستولى معها على جميع مشاعرهم ، فيسقط كل ما ورثوه من عقائدهم ، وما جمدوا عليه من وساوسهم ، وأن ينفرد بالسلطان على قلوبهم فيُخضعها لكل ما يقدمه إليهم من مختلف التعاليم والوصايا خضوعا مطلقا ، بحيث يصبح منقوشا فى سويداء قلوبهم ؛ ولا تنس أن هذه التعاليم والوصايا لا تشايع ما كانوا عليه من ناحية من النواحى ، فلا يمكن أن يقال هنا إنهم أخذوا بها لأنها ناسبت ما كانوا عليه ، ولاءمت ما توارثوه من قبل ، ولكنها كانت تناقض ما كانوا قائمين عليه من كل وجه :

كانوا معدّدين للآلهة ، فجاءهم بالتوحيد .

كانوا يخضعون لحكم القوة ، فأخضعهم لسلطان الحق .

كانوا يأخذون بالتقليد ، فحولهم إلى حكم العقل .

كانوا يحكمون بالعادات ، فجعلهم يحكمون بالقانون .

كانوا قانعين بما كانوا عليه ، فأهاب بهم لطلب الأحسن .

كانوا واقفين مع عالم المادة ، فحفزهم لتنوّر عالم الروح .

كانوا مكتفين بالأمر الواقع ، فدفعهم لتحرى المثل الأعلى .

كانوا يأخذون بالظنون ، فأمرهم أن لا يأخذوا إلا بالدليل .

كانوا راضين بالجهل ، فحضهم على طلب العلم .

كانوا يحرصون على الامتيازات ، فقرر لهم مبدأ المساواة .

فالإيمان الذى يستولى على النفسية ، ويجردها من كل ما لابسها من الأصول التى صارت بتوالى توارثها فى الآماد المتتالية ملكات راسخة فيها ، ويحل محلها أصولا تناقضها من كل وجه ، ويجعل منها كيانا جديدا لشخصيتها ، لا يجوز أن ننظر إليه نظرنا إلى الأمور العادية ، فنعلل به ما نريد أن نتعقله ، ونمضى غير مكترثين له . لأن مثل هذا (الإيمان) الذى يقلب كيان النفس ويحولها من حال إلى حال ، لا يعقل أن يكون ثمرة دعوة كلامية ، وإلا أمكن إصلاح أية جماعة بإيجاد إيمان لها من طريق

الدعوة ، فلا يكون على الأرض أمة منحرفة عن الصراط السوى فى أية بقعة من بقاع الأرض ، وتصبح مهمة المصلحين من أيسر المهام الاجتماعية ؛ وما نشاهده فى الواقع يخالف ذلك كل المخالفة ، فقد بح صوت الهداة والمرشدين فى كل زمان ومكان من الدعوة إلى الفضائل ، والتنفير من الرذائل ، فلم يزدد الناس إلا مضيا فيما هم فيه ، كأن كل هذه الإهابات بهم لا تعنيهم .

يقول المعترضون : نعم لأن المدعوين لا (إيمان) لهم بهؤلاء الدعاة .

نقول : هذا حق ، ولكنكم أرجعتمونا من طريق الدور إلى مسألتنا الأولى وهى الإيمان . فما الذى قام به محمد غير مجرد الدعوة فأوجد لنفسه فى القلوب هذا الإيمان الراسخ الذى تمكن به من صب نفسية أمة برمتها فى قالب جديد لم تكن تعرفه ، ولا تسمع بمثله من قبل ؟

قلنا مجرد الدعوة ، لأنكم تنكرون المعجزات ، فعليكم أن تفسروا لنا كيف وصل محمد إلى بث (الإيمان) بنبوته فى هذه النفوس كلها ، وتوصل بذلك إلى التحكم فى تكييفها ، حتى حولها من حال إلى حال آخر ، صلحت معه لأن تصل إلى زعامة العالم كله فى سنين معدودة ؟

المسألة خطيرة ، خطيرة إلى أبعد حدود اليأس . وهى فى هذا المأزق تصبح أقرب إلى الحل منها وهى على بساط البحث . فإن الدليل على صحة النبوة نفسها ، والفارق بين صحيحها وكاذبها ليس من الدقة بحيث لا تدركه إلا العقول القوية . فالنبوة الكاذبة فرية خسيسة لا تحل إلا بقلوب خوت من كل خير ، ونفوس تجردت من كل فضيلة ، وصارت مباءة لكل دناءة ورجس . والذى يستسيغ الكذب على الله بادعاء أن بينه وبينه اتصالا ، لا يعقل أن يكون إلا فى الدرك الأسفل من فساد الأخلاق ؛ ويستحيل أن يتولد من هذه النفس المنحلة عمل صالح تتألف منه أمة كريمة ، ذات أصول قويمة ، تتأدى فى سنين قليلة إلى سيادة الأرض ، ناشرة حولها سمعة زكية ، وصيتا مُدَوِّيا ، اعتبرت منقذة للعالم مما كان يرسف فيه من قيود العبودية ، ويرزح تحته من آصار الجاهلية .

النبوة الحقة تثمر ثمراتها فى الجماعات التى تحل بها ، دون أن تستطيع أية قوة

صدها عن بلوغ مداها ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١) .

نعم إن النبوات تلاقى عقبات كأداء فى طريقها ، ولكنها تتغلب عليها فى النهاية كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢) .

الخلاصة :

الخلاصة أن الله قد أمد جماعة المسلمين الأولين من طريق الإعجاز (بإيمان) راسخ بنبوة محمد ﷺ ، بعد أن طهر نفوسهم من جميع أدران الجاهلية ، ونقش فى صميم روعهم من الأصول الأدبية ، والمبادىء الاجتماعية ، والمثل العليا ، ما لا سبيل إليه عادة إلا بعد تطورات متعاقبة فى آماد طويلة ، ليتم بواسطة هذه الأمة ما سبق فى علمه من الانقلابات العالمية التى كان العالم فى أشد الحاجة إليها . بقى علينا الآن أن ننظر كيف تقلبت فى الأدوار التى سيقت إليها تحت هداية الوحى ، وقوامة خاتم المرسلين محمد ﷺ ، والله ولى التوفيق (*) .

★ ★ ★

(١) سورة المجادلة ، الآية (٢١) .

(٢) سورة الأنعام ، الآية (٣٤) .

(★) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الثامن ، شعبان سنة ١٣٥٩ هـ .

وقعة أُحُـد

درسٌ عمليّ فى وجوب إطاعة القيادة العليا

لقد أصاب الجاهليين من اندحارهم ببدر شر عظيم ، فقد قتل سبعون من أشرافهم ، ووسموا بعار لا يمحوه إلا انتصار عظيم الشأن ينالونه من المسلمين ، ليستردوا به مكانتهم من قلوب العرب ، باعتبار أنهم القائمون على تمثيل الدين الذى يقدسونه ، وحماية البيت الذى يحجونه .

وكان أشد ما يحفزهم للتفكير فى حل جماعة المسلمين ، والاستبسال فى مقاتلتهم ، أنهم بقيامهم فى طريق تجارتهم إلى الشام ، يوصدون فى وجوههم بابا من الرزق ، لو ظل موصدا أصبح مُقامهم فى مكة من المحال ، واضطروا إلى أن يعيشوا معيشة البدو الرُّحَّل ، ييممون منابت الكلأ حيث كان ، كما يفعل البدو الذين يعيشون على ما يقتنونه من الأنعام ، وهى حياة لم يألفوها ، بَلْهَ أنها تضطرهم لترك البيت وشأنه يتولى أمره من يستطيعه ، فيسرع إليه المسلمون ، ويكون فى ذلك القضاء الأخير عليهم وعلى ملتهم .

والذى جعلهم يلمسون هذا المصير الحتم ، أنهم لما أدركوا استحالة وصولهم إلى الشام من طريق يثرب ، عولوا على اتخاذ طريق آخر إليها من ناحية العراق ، فأرسلوا قافلة تجارية من ذلك الطريق يحميها فريق من أشداء قريش ، معهم سفيان ابن حرب ، وصفوان بن أمية ، وحُوَيْطب بن عبد العُزّى ، وهم من صناديد [1] قريش ، فبلغ خبرهم النبى ﷺ ، فأرسل لملاقاتهم كتيبة من مائة راكب تحت إمرة زيد بن حارثة ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة ، فالتقوا بالقافلة عند ماء اسمه القَرَدة بنجد ، فتقاتل الفريقان ، وانتصر المسلمون وغنموا التجارة ، وهرب حماتها قانعين من الغنيمة بالإياب . فأدرك المشركون أن لا منجاة من المسلمين إلا بإبادتهم ؛ فأسرعوا للعمل على ذلك قبل أن يخرج الأمر من يدهم . فلندعهم قليلا لنرى ماذا حدث فى جماعة المسلمين بعد وقعة بدر .

---

(١) الصِّنْديد من الناس الشريف الشجاع ، الجمع صناديد .

الأعمال الإسلامية بعد وقعة بدر :

(**غزوة بنى قَيْنُقاع**) – لما حلّ النبى ﷺ بالمدينة ، كان بجوارها قوم من اليهود يقال لهم بنو قينقاع كانوا قد عقدوا بينهم وبين المسلمين معاهدة عدم اعتداء . ولكنهم لما آنسوا انتصار المسلمين ببدر ، أمضّهم هذا الأمر وأخذوا فى معاكسة المسلمين ، فاعتدوا على سيدة من نساء الأنصار . فدعا النبى رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغى . فقالوا له : « يا محمد لا يغرنّك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب ، ولو لقيتنا لتعلمن أنّا نحن الناس » . فأمره الله أن يبلغهم قوله تعالى : ﴿ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا (يريد المسلمين وجيش المشركين ببدر) ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ، يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصَارِ ﴾ [1] . فلم يرفعوا بهذا القول رأسا ومضوا فى بغيهم . فحاصرهم النبى ﷺ ، فأدركهم الرعب ، فطلبوا الخروج بأنفسهم دون أموالهم . فقبِل رسول الله طلبهم ، وجَلَوا قاصدين الشام .

(**غزوة السَّوِيق**) – لما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر قتل ابنه فى معركة بدر ، هاج هائجهُ وأقسم أن لا يمس رأسه ماء حتى يغزو محمدا ، وسوّلت له حمية الجاهلية أن يخرج فى مائتين من رجاله ، وقصد أن يقابل رئيس بنى النضير من اليهود ليستنصر بقومه ، فلم يسمح بمقابلته ، فأرسل بعض رجاله فحرقوا نخلا بجوار المدينة ، وصادفوا أحد الأنصار فقتلوه . فخرج إليه النبى ﷺ فى مائتين من المسلمين ، فلما بلغه ذلك أدركه الرعب ، فهرب هو ورجاله ، وأخذوا يخففون أثقالهم بإلقاء ما لديهم من الدقيق المتخذ من الحنطة والشعير ، ويسمونه السويق . فسميت هذه الغزوة لهذا السبب بغزوة السويق .

(**زواج على بن أبى طالب بفاطمة الزهراء**) – فى هذه السنة وهى الثانية ، تزوج علىّ ، وعمره إحدى وعشرون سنة ، بفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وسنها

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان (١٢ – ١٣) .

خمس عشرة سنة . وفيها دخل رسول الله بعائشة بنت أبى بكر أم المؤمنين .

(**غزوة بنى غَطَفان**) – دخلت السنة الثالثة بعد الهجرة ، وفى ربيع الأول منها أجمع بنو ثَعْلبة ومحارب من غطفان على الإغارة على المدينة ، فخرج إليهم رسول الله فى أربعمائة وخمسين رجلا . فلقيه رجل منهم يقال له دُعْثور ، فلما وعى منه الإسلام ، عاد إلى قومه وحضهم على الدخول فيه ، فأسلموا جميعا .

(**غزوة بُحْران**) – نمى إلى النبى ﷺ أن جمعا من بنى سُلَيم يريدون الإغارة على المدينة ، فخرج إليهم فى ثلاثمائة من أصحابه ، فهرب المغيرون .

(**سد طريق العراق على تجارة قريش**) – لما لم يطق المشركون من أهل مكة صبرا على انقطاع تجارتهم ، حاولوا الاتصال بالشام من طريق العراق تحت قيادة أبى سفيان بن حرب وغيره من صناديدهم ، فأرسل النبى ﷺ كتيبة من جنوده فاستولوا على قافلة التجارة وهرب حماتها .

(**غزوة أحد**) :

عود على بدء – درس عملى فى وجوب إطاعة القيادة العليا :

قلنا لما آنس القرشيون أن طرق التجارة استدت فى وجوههم ، لم يبق لهم إلا أحد أمرين : إما الاستماتة فى التغلب على المسلمين ، أو الهجرة من مدينتهم والتفرق فى الأرض لطلب الرزق ، فآثروا الوجه الأول ، واجتمع نحو ثلاثة آلاف رجل منهم تحت قيادة أبى سفيان بن حرب ، ومعهم الأحابيش حلفاؤهم [1] ، وأبو عامر الراهب ومعه عدد ممن على شاكلته . وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وتهامة ، وساروا حتى نزلوا مقابل المدينة بذى الحليفة .

فلما بلغ النبى ﷺ خبرهم ، استشار أصحابه فى البقاء بالمدينة والدفاع فيها ، أو فى الخروج إليهم ؛ فرأى أكثرهم أن الخروج إليهم أمثل ؛ فسار سحرا على رأس

---

(١) الأحابيش : قوم من قريش وكنانة وخزيمة وخزاعة اجتمعوا فى الحبشى (بضم فسكون فكسر) وهو جبل بأسفل مكة ، وتحالفوا على التناصر والتعاون .

ألف رجل حتى إذا بلغ (الشَّوْط) ، وهو بستان بين أحد والمدينة ، نكص عبد الله ابن أُبَىّ شيخ المنافقين على عقبيه ، ونكص معه ثلاثمائة ممن هم على شاكلته .

فلما رأت طائفتان من المؤمنين ممن كانوا قريبى عهد الإسلام تخاذُل هذه الجماعة ، تولاهما الخَوَر ، وكادتا أن تنحوا نحوهما ، فعصمهما الله من ذلك . وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

وتحدث بعض المسلمين فى وجوب قتال المنخذلين ، فأنزل الله فى ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ (أى ما لكم افترقتم فى أمرهم إلى رأيين) ، وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ (٢) فتركوهم .

ثم ساروا حتى نزلوا الشِّعْب من أُحُد ، وهو جبل فى الشمال الشرق من المدينة ، جاعلين ظهورهم إلى الجبل ووجوههم إلى المدينة ، ونزل المشركون ببطن الوادى ، وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد (وكان لم يسلم بعد) ، وعلى ميسرتهم عِكْرمة بن أبى جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية . واستحضر الرماة وكان عددهم خمسين فجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل ، وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم سواء أكان المسلمون منتصرين أم منهزمين . فابتدأ القتال بالمبارزات الفردية على عادة العرب ، ثم حملت خيّالة المشركين ثلاث مرات وفى كل مرة يرتدون على أعقابهم ، بسبب ما يصيبهم من النبال ، ثم التقت المشاة وحمى الوطيس ، وكان نساء المشركين ينشدن الأناشيد يحمّس الرجال ، فلم تجدهم حماستهم نفعا ، لأن المسلمين على قلة عددهم صبروا لهم صبر الكرام ، وما هى إلا ساعة حتى شعر المشركون بالخور وولوا الأدبار ، ونساؤهم يبكين ويولولن ، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٢٢) .

(٢) سورة النساء ، الآية (٨٨) .

فلما رأى الرماة الذين وضعهم النبى ﷺ لحماية ظهور المسلمين ما آلت إليه الحال من النصر ، مالوا إلى النزول ، فقال لهم رئيسهم عبد الله بن جبير : إن فى ذلك مخالفة لأمر الرسول ؛ فعصوه ونزل أكثرهم ، وبقى هو وقليل من المتثبتين . فلما آنس خالد بن الوليد زوال هذه العقبة أسرع إلى الذين بقوا فوق الجبل فقتلهم جميعا وأتى المسلمين من ورائهم ، فلما رأوا ذلك اختل نظامهم ودهشوا حتى صار بعضهم يضرب بعضا ؛ وقتل رجل حامل لواء المسلمين وأشاع أن محمدا قتل ، فتسرب الفشل عند ذاك إلى قلوب المؤمنين ، وانقسموا إلى طائفتين .

قالت أولاهما : إذا كان محمد قد قتل فعلام نقاتل ؟ فلنرجع إلى أهلنا .

وقالت ثانيتهما : إذا كان محمد قد قتل فلا خير بعده فلنقاتل فى سبيل ديننا حتى نقتل .

أما النبى ﷺ فقد ثبت مكانه ، وكان بين يديه أبو طلحة الأنصارى ، وكان مناضلا مسدد الرماية ، فنثر كنانته وهو يقول : وجهى لوجهك فداء ! وكان كلما مر برسول الله رجل قال له انثر كنانتك لأبى طلحة . وعاونه سعد بن أبى وقاص وسهل بن حنيف ، وقام أمام النبى أبو دُجانة سِماَك بن خَرَشة جاعلا نفسه مِتْراساً له وهو مُنْحَنٍ عليه ، فكان نبل المشركين يقع على ظهره ، وكان يدفع الناس عنه زيادة بن الحارث حتى وقع صريعا دونه . وقصد رسول الله أُبَىّ بن خلف من المشركين يريد قتله ، فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه .

وكان أبو عامر الراهب قد حفر حُفَراً وغطاها ليقع فيها المسلمون ، فوقع النبى فى واحدة منها فأغمى عليه ، وخدشت ركبتاه ، فأخذ علىّ بيده ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ، فرماه عتبة بن أبى وقاص بحجر كسر رَبَاعِيته (وهى السن التى بين الثنية والناب) ، فهجم على عتبة حاطب بن أبى بَلْتَعة فقتله ؛ وتصدى له عبد الله بن شهاب من المشركين فشجّ وجهه ؛ وجرحت وجنتاه بسبب دخول حَلْقتى المِغْفَر فيهما من ضربة وجهها إليه ابن قَمِئَة من الجاهليين . وجاء أبو عبيدة فعالجهما ليخرجهما فكسرت بسبب ذلك ثنيتاه . وسار النبى وبين يديه بعض أصحابه يريد الشِّعب ، فلما انتهى إليه أقبلت إليه ابنته فاطمة وأخذت تغسل وجهه وتضمده .

قتل فى هذه الوقعة من المسلمين نيّف وسبعون ، منهم عم النبى حمزة . وكان أكثرهم جراحة المنافحون عن النبى ﷺ ، فأصاب طلحة أكثر من سبعين جرحا ، وشلت يده .

ومثّل المشركون بقتلى المسلمين ، حتى إن هندا زوج أبى سفيان شقت بطن حمزة وأخرجت كبده لتأكلها فلم تستطع ازدراد شىء منها بعد أن لاكت قطعة منها بين أسنانها .

ثم إن أبا سفيان قائد جيش المشركين صعد الجبل ونادى بأعلى صوته : نعمت فَعَالِ ، يومٌ بيوم بدر ، وموعدكم بدر العامَ المقبل . ثم قال : إنكم ستجدون فى قتلاكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى .

ثم قفل المشركون راجعين إلى مكة .

ما يجب أن يستخرج من العبر من هذه الوقعة :

إن هذه الوقعة فى عرف رجال الحرب تعتبر أنها أفضت إلى هزيمة المسلمين ، ولكن المتأمل فيها لا يجدها تشبه الهزائم فى شىء . فإن المعهود فى الهزائم أنها تقتضى أن يولى المهزوم الأدبار ، وأن يتعقبه خصمه الظافر يقتل بعض جنوده ويأسر بعضا آخر ، ويستولى على جميع معسكره . فإذا كان يريد أن يفرغ من خصمه نهائيا ، كما كانت نية المشركين من قبل ، تبع العدو المنتصر المنهزمين إلى مقر تجمعهم ، سواء أكان ذلك معقلا أم مدينة ، واستولى عليه وأقام فيه حامية ليمنع عودهم إلى معاكسته .

ولكن الذى آنسناه عقب هذه الوقعة ، أن المشركين بعد أن انتصروا على المسلمين لم يتعقبوا فلولهم ، ولم يحتلوا مدينتهم ، بل لم يعملوا على أسر النبى وهو رأس هذه الحركة القائمة ضدهم ، وعاد من ميدان المعركة على مهل ، ثم لم يعجله شىء عن إصلاح شأنه وغسل جراحه . ومن أغرب ما يُلاحظ أن قائد المشركين صعد الجبل وخاطب المسلمين وهم على مسمع منه ، وواعدهم العام المقبل ، كأن الفريقين كانوا فى مباراة رياضية ، لا فى وقعة حربية ! ولم يعهد مثل هذا قط فى تاريخ الحروب وخاصة القديمة ، إذ كانت إلى التفانى الحيوانى أقرب منها إلى التنازع الإنسانى .

ولا يمكن أن يقال إن جيش المشركين كان خلوا من وسائل المطاردة ، فقد كان فيهم مائتا خيال تحت إمرة أمهر قادة الحرب فى الجاهلية ، خالد بن الوليد ، وقد كان فى وسعه على الأقل أن يحيط النبى ﷺ بخيالته فيمنعه الرجوع إلى المدينة . وقد ثبت أن النبى لم يعد من ساحة القتال فى أكثر من بضعة عشر رجلا وأربع عشرة امرأة ! فأى عون من الله لنبيه أظهر من هذا فى مثل هذه المحنة ؟

وقد تبين المشركون بعد أن بعدوا عن المدينة ، أنهم ارتكبوا خطأً فاحشا فى ترك المسلمين وشأنهم ، إذ قال بعضهم لبعض : أى شىء فعلتم ، لا محمدا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئس ما صنعتم ! ارجعوا .

فبلغ النبى ﷺ ذلك ، فخرج إليهم فى عسكره ولحق بهم . فلما رأى المشركون ذلك ، وقد ذاقوا استبسالهم فى الحرب ، خشوا أن تدور الدائرة عليهم ، فانصرفوا .

لا جرم أن هذا من أعجب ما يحفظه تاريخ التنازع بين الحق والباطل . وقد رأينا أن سبب هذه الهزيمة كان عصيان الرماة للأمر الذى صدر إليهم من رسول الله ﷺ . وقد ذكر الله ذلك فى كتابه فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ (أى تقتلونهم) ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ ، وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ (جواب الشرط محذوف هنا تقديره : عاقبكم بالهزيمة) ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) (*) .

★ ★ ★

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٥٢) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء التاسع ، رمضان سنة ١٣٥٩ هـ .

مُناوشات غير خطيرة
قبل المعركة الفاصلة ؛ وقعة الأحزاب

سريّة أبى سلمة :

أهلت السنة الرابعة فبلغ النبى ﷺ أن طليحة وسلمة ابنىْ خويلد الأسديين ، يؤلّبان قومهما لحربه ، فاستدعى رسول الله أحد أصحابه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وأمره أن يسير حتى يطأ أرض بنى أسد بن خزيمة ويغير عليهم ، وأمر أن تسير معه كتيبة ، فسار فى المحرم حتى بلغ جبلا لهؤلاء القوم يقال له قَطَن ، فشن عليهم الغارة فهربوا من بيوتهم ، واستاق أبو سلمة ما صادفه من إبل وغنم .

سرية عاصم بن ثابت :

فى صفر من السنة الرابعة قدم على رسول الله ﷺ رجال من بنى عَضَل والقَارَة ، وهما قبيلتان من بنى الهُون ، وطلبوا إليه أن يرسل معهم من يفقه قومهم فى الدين ، فأرسل معهم ستة من أصحابه تحت إمرة عاصم بن ثابت . وكان هؤلاء الرجال غير صادقين فى دعواهم ، بل مأجورين لبنى لحِيْان الذين قتل المسلمون منهم أحد رجالهم ، سفيان بن خالد ، فأرادوا أن يرزءوا المسلمين بقتل رجال منهم أخذا بالثأر .

فلما بلغت السرية الرَّجيع ، وهى ماء بين مكة والمدينة ، أحسّوا بالغدر ، وخرج نحو مائتين من بنى هُذَيل فى طلبهم ، فاضطر رجال السرية للجوء إلى جبل هناك والاستعداد للمقاومة . فطلب إليهم بنو هديل أن ينزلوا ولهم الأمان ، فاغتر بعهدهم ثلاثة رجال ، فلما صاروا فى أيديهم قتلوا أحدهم لمقاومته لهم بعد أن شعر منهم بالغدر ، وباعوا الاثنين بمكة لمن يريد أن يثأر لقتلاه من أهل مكة ، وهنالك قتلا .

سرية بئر مَعُونة :

فى صفر من السنة الرابعة وفد على النبى ﷺ أبو عامر بن مالك من صناديد

بنى عامر ، وكان يدعى لبطولته مُلاعب الأسنّة ، فدعاه رسول الله للإسلام ، فلم يذعن ولكنه لم يبعد . وقال للنبى : إنى أرى أمرك هذا حسنا ، فلو بعثت معى رجالا إلى أهل نجد فإنى أتوقع أن يستجيبوا لهم .

فقال له النبى ﷺ : إنى أخشى عليهم أهل نجد .

فقال ملاعب الأسنة : أنا لهم جارٌ .

فأرسل رسول الله لهم المنذر بن عمرو فى سبعين من أصحابه اشتهروا بالإكثار من حفظ القرآن حتى أطلق الناس عليهم لقب القُرّاء ، فساروا جميعا حتى نزلوا بئر معونة ، ومنها بعثوا أحدهم ، حَرَام بن مِلْحان ، بكتابٍ إلى عامر بن الطُّفَيْل سيد بنى عامر . فلما وصل إليه لم يلتفت إلى الكتاب ، ولكنه ثار على مقدِّمه وقتله ، ثم استثار قومه على بقية إخوانه ، فلم يقبل بنو عامر أن يخفروا ذمة ملاعب الأسنّة ، فاستصرخ عامر بن الطفيل عليهم بنى رَعْل وذَكْوان وعُصَيَّة ، وهى قبائل من بنى سليم ، فأجابوه وذهبوا معه حتى التقوا بأصحاب رسول الله فقاتلوهم قتالا عنيفا حتى أتوا عليهم جميعا إلا رجلين ، أحدهما كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن أنه منهم فنجا ، وعمرو بن أمية وكان على سرح للقوم ، أى مع حيوانات سائمة لهم ، فخلص من القتل .

فلما بلغ النبى ﷺ أمر هذه المجزرة الشنيعة حزن حزناً شديداً .

عزوة بنى النضير :

بنو النَّضِير يهود كبنى قينقاع الذين قلبوا ظهر المجنّ للمسلمين فاضطروهم للجلاء عن حصونهم والهجرة إلى الشام . وهؤلاء جروا على سنة سابقيهم فحدثتهم أنفسهم أن يغتالوا النبى ﷺ . وذلك أنه بينما كان مع بعض صحابته فى ديار بنى النضير ، تآمر رجال منهم إلى إلقاء صخرة عليه من مكان عال ، رغما عما كان بينه وبين هؤلاء القوم من عهد عدم الاعتداء ، فلما تبين رسول الله قصدهم رجع إلى المدينة وأرسل محمد بن مَسْلَمة يكلفهم الجلاء عن بلاد العرب إلى حيث يشاءون .

فتهيأ القوم للرحيل علما منهم أنهم لا يقوون على حرب المسلمين ، فارسل إليهم منافقو المدينة من يخبرهم بأنهم يساعدوبهم لو وقع عليهم عدوان ، وأنهم وإياهم متكافلون ى الحياة ، وقد حكى القرآن الكريم ما قالوه فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِنَ اللهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ . كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ، فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

ولكن بنى النضير اطمأنوا إلى هذا الوعد ، وتلكأوا عن الجلاء ، فأمر النبى ﷺ بالتعبئة ، فلما اجتمع العدد المطلوب خرج بهم . فلما بلغ بنى النضير خبر خروجه دخلوا إلى حصونهم وامتنعوا فيها ، منتظرين ما يقوم به المنافقون الذين غرروا بهم تحت إمرة زعيمهم عبد الله بن أُبّى ، فلم يمدوا إليهم يدا بمساعدة كما لم يفعل مع بنى قينقاع من قبلهم .

فطلبوا إلى رسول الله أن يقوموا بما تعهدوا به من الجلاء ، آخذين معهم ما تحمله الإبل من الأموال إلا آلة الحرب . فقبل ما اقترحوه وخرجوا . فمنهم من نزلوا بخيبر ، ومنهم من هاجروا إلى الشام ، وأسلم منهم اثنان .

غزوة ذات الرِّقاع :

بلغ النبى ﷺ أن قبيلتين من قبائل نجد ، وهما بنو مُحارب وبنو ثَعْلبة ، تتهيآن لحربه . فجرد من صحابته سبعمائة مقاتل وخرج بهم لملاقاة عدوهم . وما زالوا

---

(١) سورة الحشر ، الآيات (١١ - ١٧) .

سائرين حتى وصلوا ديار القوم ، فلم يجدوا بها رجالا . ذلك أنهم لما بلغهم قدوم جيش المسلمين لاذوا بقنن الجبال ، ثم تشجع بعضهم ونزلوا للقتال . فلما اقترب الجمعان اعتراهم الرعب وولوا الأدبار .

غزوة بدر التى أوعد بها أبو سفيان :

قلنا عندما انتهينا من إيراد تفصيلات وقعة أُحُد أن أبا سفيان واعد المسلمين اللقاء فى بدر من العام المقبل ، وقبل النبى ﷺ تحديه . ولكن أبا سفيان لم يستطع أن يوفى بوعده ، وخشى أن يُتهم بالنكول فعمد إلى الحيلة . فكان ما حاكه منها أنه استأجر رجلا يقال له نُعَيم بن مسعود الأشجعى ليأتى المدينة ويرجف بما جمعه أبو سفيان من الجنود الكثيرة ، ليكسر من حدة المسلمين ، وينال من قواهم النفسية . فلم يبالوا بأقوال نعيم ، وخرجوا ألفا وخمسمائة تحت قيادة النبى ﷺ ، وما زالوا يسيرون حتى أتوا بدرا فلم يجدوا بها أحدا . لأن أبا سفيان بعد أن وصل بمن معه إلى بدر وأرسل الرجل الذى استأجره للإرجاف ، ظن أن إرجافه سيفيد الفائدة المرجوة منه . فقال لقومه إن هذا عام محدب ، ولا يصلح للقتال غير عام مُعْشب ، هلمّوا للرجوع . وكان قد خرج بهم على هذه النية ليرى الناس أن قريشا وفت بتحديها وأن المسلمين هم الذين نكصوا على أعقابهم خوفا منهم .

أما المسلمون فلما قدموا بدرا أقاموا بها يتجرون فى سوقها الذى كان ينعقد مرة فى شعبان من كل سنة ، فأصابوا خيرا كثيرا ، وسجلوا على أعدائهم الخذلان .

وقد حكى الله هذه الحادثة فى الكتاب الكريم فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ . أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا (فى وقعة أحد) ، قُلْتُمْ : أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمَآ أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ ، وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا

قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ، الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [1] .

غزوة دُومَة الجندل :

كانت هذه الغزوة فى ربيع الأول من العام الخامس للهجرة . وسببها أن النبى ﷺ بلغه أن الأعراب اجتمعوا بدومة الجندل يقطعون الطريق على من مر بهم ، وأنهم يريدون الدنوّ من المدينة وكان بينهم وبينها خمس عشرة ليلة . فأمر رسول الله بتعبئة ألف مقاتل من جنوده وخرج بهم لفضّ جماعة أولئك المفسدين . فلما قرب منهم وبلغهم الخبر تفرقوا ، فاستاق المسلمون ما شيتهم ورعاءهم . وبث النبى ﷺ كتائبه إلى كل وجه فلم يجد منهم أحدا ، وكفى الله المؤمنين القتال .

---

(١) سورة آل عمران ، الآيات (١٦٤ – ١٧٩) .

غزوة بنى المصطلق :

بنو المُصْطَلَق بطن من خُزاعة ، وتسمى هذه الغزوة غزوة المُرَيْسِيع أيضا ، وهو ماء لتلك القبيلة .

سبب هذه الغزوة أنه بلغ النبى ﷺ أن الحارث بن ضِرَار سيد بنى المصطلق يحشد الجنود لمحاربته ، فاستعد للقائه وندب الناس للقتال ، فلبّاه عدد كبير ، وكان منهم جمهور غفير من المنافقين ، خرجوا طلبا للغنيمة . فلما نمى خبر قدوم النبى بجيشه إلى ديار بنى المصطلق أدركهم الرعب حتى تخاذل رجال منهم وتركوا معسكرهم . ولما وصل جيش المسلمين إليه ترامى الفريقان بالنبل ، ثم هجم المسلمون عليهم وقتلوا منهم عشرة وأسروا سائرهم حتى نساءهم وذريتهم ، واستولوا على ماشيتهم وكانت ألفى بعير وخمسة آلاف شاة .

وكان بين الأسرى برّة بنت الحارث سيد بنى المصطلق ، فتزوّجها النبى ﷺ ، فلما رأى أصحابه أن بنى المصطلق صاروا أصهارا لرسول الله ردّوا ما أخذوه من أموالهم من الغنائم ، وأطلقوا الأسرى أيضا ، لأنهم رأوا أنه لا يصح أن يؤسر من يمت إلى نبيهم بسبب . فقالت عائشة رضى الله عنها : « ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جُوَيْرِية » ، تريد برة بنت الحارث وقد غيّر النبى ﷺ اسمها . وقيل إن جويرية هى التى طلبت إلى النبى ليلة زفافها إليه أن يطلق سراح الأسرى من قومها ، فأطلقهم . فكان أثر هذه المكرمة عظيما فى بنى المصطلق إلى حد أن حملهم على الإسلام على بكرة أبيهم .

نار فتنة ما شبت حتى خمدت :

شبت نار فتنة بين المهاجرين من أصحاب النبى وبين أهل المدينة ، فلولا حكمة الرسول ، ورسوخ الإيمان فى قلوب المسلمين ، لأدت إلى انفصام وحدة المسلمين .

ذلك أن عبد الله بن أُبَى زعيم المنافقين شهد مع شيعته هذه الغزوة طمعا فى غنائمها . واتفق أن أجيراً لعمر بن الخطاب خاصم حليفا للخزرج ، فضرب أولهما الثانى وأسال دمه . فصاح الحليف (يا لَلخزرج) وصاح الأجير (يا لَلمهاجرين) ، فأقبل إليهما رجال من الفريقين كادوا يقتتلون ، لولا أن خرج إليهم رسول الله قائلا :

ما بال دعوى الجاهلية ؟ فأخبره بالأمر . فقال : دعوا هذه الكلمة فإنهما مُنْتِنة ، ثم حقق القضية فلم يجد للمضروب حقا ، فوقف الأمر عند هذا الحد .

ولكن شيخ المنافقين أراد أن لا تفوته هذه الفرصة . فكلم بنى الخزرج قائلا : « ما رأيت كاليوم مذلة ، أوَ قد فعلوها ، نافرونا فى ديارنا ، والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول : سمّن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل . ثم التفت إلى من معه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم أيديكم ، لتحولوا إلى غير دياركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم ، حتى جعلتم أنفسكم غرضا للمنايا دون محمد ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده » .

فلما بلغ هذا الكلام النبى ﷺ غضب وتغير وجهه ، فقال عمر : مرنى أو مر غيرى بقتله يا رسول الله ، فلم يقبل منه هذا الرأى ، وأمر جيشه بالعود إلى المدينة ، وبينما هم ببعض الطريق نزلت سورة المنافقين وفيها القضاء عليهم ، وهى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ، اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ . يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي

إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

لا يجوز لنا أن نختتم هذه المقالة حتى ننبه القارئين إلى العلو الخلقى ، والسمو الفكرى اللذين ظهر عليهما النبى ﷺ حيال إرجاف شيخ المنافقين عبد الله بن أبّى . فقد كان فى استطاعته قتله وقتل كل من يلف لفّه من منافقى المدينة ، فقد كان الحاكم المطلق فى المدينة وضواحيها . وقد اضطر بعض المشركين ومنهم عبد الله بن أبّى المذكور لإظهار الإسلام نفاقا ، والعمل سرا على حل جماعة المسلمين . ولو كان النبى قتل زعيم المنافقين لقال الناس إن محمدا استخدم القوة الغاشمة فى بث دعوته ، فلو تركها عرضة للنقد والتقدير لا نحلت وبطل أمرها من قريب . فكان فى تركه وترك أمثاله ، ومقارعتهم بالحجج البينة ما يدفع هذه الشبهة عن الإسلام ، ويثبت بدليل محسوس أنه تأسس على الحقائق الثابتة ، وقام على قاعدة النظر والتمحيص ، وقد انتشر انتشارا لم يعهد له مثيل فى تاريخ العقلية الإنسانية لهذا السبب نفسه (*) .

★ ★ ★

---

(١) سورة المنافقون ، الآيات (١ - ١١) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء العاشر ، شوال سنة ١٣٥٩ هـ .

المعركة الفاصلة بين المسلمين والمشركين
وقعة الأحزاب

إن الحالة القبيلية التى كان عليها العرب لم تكن لتسمح لهم أن يجمعوا على أمر يقومون به مجتمعين ، وإن كان له أكبر تعلق بهم كافة . ولم يكونوا من الناحية الدينية أيضا على شيء مما يدفع غيرهم إلى التكافل للذود عن عقائدهم الموروثة ، فلم يكترثوا لظهور دين جديد يعيب عليهم وثنيتهم ، ويحقر آلهتهم ، ويتوعدهم بالهلاك وسوء المنقلب . هذه الحالة تكشف عن مبلغ التفكك الذى كانوا عليه ، وعن خمود العاطفة الدينية فيهم . فإذا كانت قريش قد تحركت لمكافحة المسلمين فى دار هجرتهم مرتين قبل هذه ، فإن ذلك منها كان يرجع إلى عوامل اقتصادية ، لإزالة العقبة التى أقامها المسلمون فى طريقهم إلى الشام . ولولا ذلك لما حدَّث أحد فى قريش نفسه لغزو المسلمين فى يثرب .

ولكن اليهود الذين نزلوا بين أظهرهم مهاجرين منذ أجيال ، وتعلموا لغتهم ، وتسموا بمثل أسمائهم ، كانوا على غرار إخوانهم فى جميع بقاع الأرض ، يعرفون الوحدة الاجتماعية ، والجامعة الدينية ، ويدركون ما يبتنى على انتشار دين بَيِّن المقاصد والغاية فى البلاد العربية ، من الوحدة الاجتماعية والسياسية ؛ وهم مع كفرهم بهذا الدين كانوا يرون فيه خطرا على وجودهم هنالك ، وكانوا يظنون أن المسيحيين إذا كانوا على ما أُمروا به من الرحمة والعطف ، يبالغون فى اضطهادهم ، فلا يعقل أن يجيء أهل دين يكونون أرق قلبا منهم ؛ لذلك هالهم أن يستتب الأمر للإسلام فى دار هجرته الجديدة ، فلا يلبث أن تصبح له دولة وصولة ، فيجدوا أنفسهم مضطرين للهجرة ، وإلى أين هذه المرة ، وليس فى المعمور من يرحب بقادم عليهم من أهل ملة غير ملتهم ؟ حملهم هذا كله أن ينتدب جماعة من عِلْيتهم ، منهم سَلاَم بن مِشْكَم وابن أبى الْحُقَيْق وحُيَيّ بن أَخْطب ، خرجوا من خيبر وقدموا على قريش فى السنة الخامسة من الهجرة ، وأخذوا يحسّنون لهم أن يؤلبوا العرب على حرب محمد وجماعته ، حتى يستأصلوهم أو يفرقوا وحدتهم ، ويبطلوا دعوتهم ، خشية أن تصبح لهم دولة فلا يكون لهم ولا لغيرهم محيص عن الخضوع له ، والدخول فى دينه ،

وهو ما قد لا يرضاه منهم . وما زال هذا الوفد يحسنون لقريش هذا الأمر ويُسوّلونه لهم حتى زعموا أن ما عليه المشركون من الدين خير من الإسلام الذى يدعو إليه محمد . وكبير من أمة موحدة أن تداهن أمة وثنية إلى هذا الحد الشائن ؛ وقد سجل الكتاب الكريم هذا الخزى عليهم بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالْطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ (١) . فسر المشركون من هذه الشهادة وقبلوا دعوتهم ، لا لأنهم يأبهون بالدين ، ولكن ليتخلصوا من عدو منع عليهم التقلب فى البلاد ، وتلمس الرزق منها .

ثم جاء هذا الوفد بنى غطفان وكلموهم فى غزو المسلمين ، وما كان ليهمهم هم أيضا أمر الدين ، ولكنهم رشوهم بمحصول تمر خيبر سنة ، فقبلوا دعوتهم .

فخرجت قريش وغطفان ومعهما حلفاؤهما ، فكانت عدة الأولين أربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ، ولاقتهم بنو سليم وعددهم سبعمائة ، تحت قيادة سفيان بن عبد شمس ، وتبعهم بنو أسد تحت قيادة طليحة بن خويلد . وخرجت غطفان تحت قيادة عُيَيْنَة بن حصن ، وبنو مرة تحت إمرة الحارث بن عوف ، وبنو أشجع تحت زعامة مِسْعَر بن رُخَيْلة ، وخرج من يتصل بهم من القبائل حتى بلغ عددهم عشرة آلاف ، وقبل هؤلاء المتحالفون أن يكونوا جميعا تحت قيادة أبى سفيان بن حرب سيد قريش وقائدها المحنك .

لما بلغ النبى ﷺ خبر خروج هذا الجيش ، ندب أصحابه للجهاد ، فكان عددهم ثلاثة آلاف ومعهم ست وثلاثون فرسا .

وبينما هم ينتظرون قدوم المشركين أشار سَلْمان الفارسى رضى الله عنه النبى ﷺ ، أن يتقى المغيرين عليه بخندق على عادة قومه . فقبل النبى هذه المشورة وأمر بعمله ، وساهم بنفسه فى حفره ، ورفع التراب على عاتقه . وامتنع أكثر المنافقين عن العمل . وكان سلمان يعمل عمل بضعة أشخاص ، مدفوعا بشدة إيمانه . فتنافس

---

(١) سورة النساء ، الآيتان (٥١ — ٥٢) .

فيه الصحابة ، فقال الأنصار : سلمان منا ، وقال المهاجرون : بل هو منا . فقال النبى ﷺ : « سلمان منا آل البيت » .

ولما أقبلت القبائل المتحالفة ذهب حيى بن أخطب اليهودى إلى سعد بن أسد القرظى سيد بنى قريظة من اليهود المحالفين للمسلمين ، وما زال به حتى أغراه على نقض عهده والانضمام إلى القبائل المتحالفة ، ولكنه ما عتم أن رجع عما قاله و لم ينضم إلى المغيرين .

وخرج المسلمون من المدينة فى ثلاثة آلاف تحت قيادة النبى ﷺ ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سَلْع وعسكروا إزاء المشركين وبينهم الخندق . وعظم البلاء على المسلمين ، وجاهر المنافقون بما تكنه صدورهم ؛ وقد حكى الله ذلك عنهم فقال : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ [1] ، وقالوا : « يَأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا » وقالوا : « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ (أى غير حصينة) » [2] ، واستأذنوا فى الرجوع ليحموها . وقال مُعَتِّب بن قُشَير ، وكان منهم : كان محمد يرى أن نأكل من كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط .

عند ذاك رأى النبى ﷺ أن يحاول فَصْم جماعتهم بما يؤثر على أنفسهم من متاع الدنيا ، فبعث إلى عيينة بن حصن الفزارى قائد بنى غطفان ، وإلى الحرث ابن عوف المرى قائد بنى مرة ، أن يرجعا عن قتاله ولهما ثلث ثمار المدينة . ولكنه أراد قبل أن يبت فى الأمر أن يستشير زعيميها الكبيرين : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فطلبهما ، ولما حضرا استشارهما فى ذلك . فقالا يا رسول الله هذا أمر تحبه فتصنعه ، أم شيء أمرك الله به ، أم شيء تصنعه لنا ؟ فإن كان أمرا من السماء فامض له ، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى ، فسمعا وطاعة ، وإن كان هو الرأى ، فما لهم عندنا إلا السيف ، فقال رسول الله : لو أمرنى الله ما شاورتكما ،

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (١٢) .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية (١٣) ، وتمامها :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ .

والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما ، وأبطل ما عزموا عليه .

لمّا قدم جيش القبائل المتحالفة ، نزلت قريش بمجتمع السّيول بين مكانين حيال المدينة يسمّيان بالجُرْف والغابة ، هم ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تِهامة ، ونزلت غطفان ومن تبعها من أهل نجد إلى جنب جبل أحد .

أما جنود المسلمين فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع ، كما قدمنا ، والخندق بينهم وبين القوم .

ولما تصافّ الفريقان للقتال ، أقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له ينظر من أى ناحية يقتحم الخندق ، فهوى فيه واندقت عنقه ، فعظم ذلك على المشركين وطلبوا إلى رسول الله أن يسلمهم جثته ليدفنوه ويدفعون إليه عشرة آلاف درهم ، فسلمه إليهم ليدفنوه ولم يقبل الدية .

وقف المشركون دون الخندق حائرين لا يدرون ماذا يعملون لاقتحامه ، وكان كبار قادتهم يتناوبون عليه ، فكان أبو سفيان يغدو إليه يوما ، وخالد بن الوليد يوما ، وعمرو بن العاص يوما ، ولم يكونوا قد أسلموا بعد ، ويغدو غيرهم كذلك ، يجيلون خيلهم يفترقون مرة ويجتمعون أخرى ، يناوشون المسلمين ويناضلونهم بالنبل .

وبينما الجيشان على تلك الحال ، والمسلمون فى قلتهم مستسلمون لقبول ما قُدِّر عليهم ، مع ترابطهم ترابطا لا تفصم له عروة ، إذ هبت ريح صفراء عصفت بالمعسكرين معا ، واشتد البرد والظلام ، حتى اضطر أكثر المسلمين إلى اللجأ إلى دورهم خشية الهلاك ، ولم يبق مع النبى ﷺ فى ميدان القتال غير ثلاثمائة ، ولم يقتصر أمر هذه الريح على ما أثارته من الرمال ، وما أحدثته من برد قارس ، ولكنها ما لبثت أن اشتد هبوبها حتى قلعت الأوتاد ، وأطفأت النيران ، وألقت الخيام وأكفأت القدور ، وسفت التراب ، وأثارت الحصباء ، فرأى المشركون أن المقام على هذه الحالة متعذر ، وخاصة بعد أن أقاموا إزاء الخندق أسبوعين ، وقيل أربعة وعشرين يوما ، وقيل شهرا ، لم يجدوا وسيلة لاقتحامه ، فقرروا العدول عن هذه الغارة ، وأول من أعلن ذلك قائدهم أبو سفيان إذ قال :

« يا معشر قريش والله إنكم لستم بدار مقام ، وقد هلك الكُرَاع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة (وكانت امتنعت عن الانضمام إليهم) ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإني مرتحل » . وأخذ بزمام بعيره يقوده ويقول للناس : ارحلوا ارحلوا ! فجعلوا يرحلون حتى لم يبق منهم أحد ، ونجى الله المؤمنين من غائلة المشركين ، وكانت هذه الغارة خاتمة محاولاتهم الشريرة التى رموا بها إلى إطفاء نور الله فأبى الله إلا أن يتم نوره .

وقد ذكر الله هذه الغارة فى سورة الأحزاب من كتابه الكريم ، وذكر فيها من أحوال المنافقين ودسائسهم ما فيه معتبر . قال الله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللهُ بِمَاتَعْمَلُونَ بَصِيراً . إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبصَارُ ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً . وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ، وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ، وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا . قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ، وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ، أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا . لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا . وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا

إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . (أى أنهم لما رأوا الأحزاب مقبلين يتوقدون حماسة ، قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله من نزول الشدائد امتحانا لإيمان عباده ، وقد صدق الله ورسوله فى أن العاقبة للصابرين ، وما زادهم هول ما رأوا إلا إيمانا وتسليما) . مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . لِّيَجْزِىَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَآءَ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (١) .

رأينا فى هذه الغارة الفاشلة :

الذى تبيناه من النظر فى عوامل هذه الغارة وأدوارها عدة أمور :

(أولها) أن قريشاً وسائر العرب كانوا بسبب ما هم عليه من القصور الاجتماعى والدينى قليلى الاكتراث لما يحدث بعيداً عنهم من التطورات لطائفة أخرى ، حتى ما كان منه عائدا بالضرر على معاشهم . وهذا الضعف فى الشعور نتج من حالة التفكك التى كانوا عليها ؛ والمجتمع كالفرد إن لم يتم تألفه ، ويكمل تشكله ، لا تظهر فيه خصائص الاجتماع ولا حوافظه ، ولولا أن رجالا من اليهود انتدبوا لإهاجة قريش وبعض القبائل المحالفة لهم على الغارة على المسلمين ، لما فعلوا . ولما كانوا قد دُفعوا إليها دفعاً بإغراء غيرهم ، فإن ما حدث من ثورة الريح فى تلك المنطقة كان كافيا فى إرجاعهم عن قصدهم . نعم إن العواصف التى ثارت فى سنة (١٥٨٨) على أسطول فيليب الثانى ملك أسبانيا ، أمام شواطىء انجلترة ، كفت هذه المملكة شره ، وكان أقوى أسطول فى العالم ، وقد دُعى (أرمادا) ومعناها الذى لا يقهر ، ولكن كان لخيبته سبب مادى وهو أن تلك العواصف حطمت أكثره على صخور الجزر البريطانية فلم يعد يصلح لعمل ، فعاد ما سلم منه على أسوأ حال . ولكن الريح الباردة التى ثارت على الجيوش المتحالفة لم تحدث من الخسائر المادية ما يقتضى أن يرجعها أدراجها ، وقد دل الكتاب الكريم على ذلك بقوله تعالى :

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيات (٩ – ٢٥) .

﴿ وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهذه الجنود هى العوامل الروحانية التى نفثت الرعب فى قلوبهم ، وسولت لهم النكوص على أعقابهم ، فلو كانت تلك الريح تكفى وحدها فى خَذْلهم لما عززها الله بهذه العوامل .

والذى يدل على أن العرب كانوا فى قصور بعيد المدى من الناحيتين الاجتماعية والدينية ، أن بنى غطفان قبلوا أن يأخذوا ثلث تمر المدينة ثمنا لخيانة حلفائهم ، مستهينين بالغرض الكبير الذى دعا إلى تآلفهم ، وليس هذا بعجيب فى حياة القبائل .

(ثانيها) أن إيثار الأنصار للدفاع عن حوزتهم بالسيف ، حين استشارهم رسول الله فى بث روح التخاذل بين المشركين ، بالتنازل لبعضهم عن ثلث تمر المدينة ، يكشف عن مبلغ استخفافهم بقوة أعدائهم ، واستهانتهم بخطر جموعهم التى حشدوها لقتالهم ، وهذا لا يكون إلا لتشبع نفوسهم باليقين فى التغلب عليهم ، وثقتهم بسعة العقل الذى يتولى قيادتهم .

(ثالثها) أن عدم تخاذلهم حيال هذه الجموع الزاخرة التى خفت لقتالهم ، وقلة اكتراثهم لإجماع قبائل العرب واليهود على استنكار ما هم عليه ، يبين عن إيمانهم الراسخ بأن ما هم عليه هو الحق ، وأن ما عليه خصومهم هو الباطل ؛ وهو أمر يلفت نظر البسيكولوجيين ويحيرهم . فإن الخمس السنين التى قضوها فى الإسلام ، وهم من شعب معروف بضعف العاطفة الدينية ، وبعدم التعصب لأى مذهب من المذاهب الفلسفية ، يعتبر من الانقلابات الأدبية التى لم يعهد ما يشبهها فى تاريخ النفسية الإنسانية . فإن هذه المدة القصيرة لا تكفى لأن تحمل نفوس جماعة قليلة العدد للاستماتة فى الدفاع عن عقيدة ، والاستشهاد فى سبيلها ؛ لا سيما وهذه الغارة ظهرت فيها الحمية الجاهلية كاشرة عن أنيابها ، معتزمة أن تخوض غمرة حرب ماحقة لا رحمة فيها ولا هوادة . فالوقوف حيال هذا التوثب الجنونى لا يشعر بالشجاعة البالغة أقصى حدودها فحسب ، ولكن يشعر بنزعة من التضحية لا توجد إلا فى أدوار الانتقالات الذريعة فى تاريخ الاجتماع البشرى . فكل متأمل فى موقفى هاتين الطائفتين وفى الروحين اللتين تقودهما إلى التناحر ، كان يحكم لأول وهلة أن هذه الطائفة القليلة تضحى بنفسها فى سبيل عقيدتها ، فإن قدر لها النصر بورك لها فى وجودها ، وثبتت عقيدتها ، وآلت إليها الدولة فى نهاية الأمر .

(رابعها) أن ثبات جماعة المسلمين إزاء هذه الكارثة الفادحة ، وهم من بيئات مختلفة ، ومتأثرون بأحقاد قديمة لا تزال صورها حية فى نفوسهم ، يدل على مبلغ قوة الرباط الاجتماعى الذى كان يجمعهم . فأهل يثرب كانوا من الأوس والخزرج وهما قبيلتان كانتا فى حالة تناحر منذ عشرات من السنين ، وفى حالة نزاع مع القبائل اليهودية التى كانت قريبة منهم ، ومعهم بضع عشرات من أهل مكة آمنوا بالنبى ﷺ ، وهاجروا معه فرارا بدينهم وحياتهم ، ولم يتوقع أهل يثرب ولا أحد ممن كانوا معهم أن يصبحوا فى يوم من الأيام هدفا لمجموعة من القبائل يُرى بداهة العقل أنهم لا يقوون عليها ، أفلا يكون ثباتهم على ترابطهم حيال هذه النازلة دالا دلالة لا تقبل النقض على قوة الرابطة التى كانت تجمع بينهم ، قوة لا توجد وسيلة فى الأرض تستطيع أن تحلها أو أن تضعف من استحكامها ؛ وأية وسيلة أفعل من هذه الوسيلة وهى أن تتألب أقوى القبائل العربية عليها ، يقودها قواد مشهورون بسعة الحيل فى إدارة المعارك ، وفرسان معروفون بشدة البأس فى مجالدة الأبطال ، والصبر على الأهوال ؟

(خامسها) أن اليهود الذين تخيروا البلاد العربية دار هجرتهم ، كان لهم يد قوية فى حمل المشركين على التألب على المسلمين حرصا على طمأنينتهم ، وسلامة وجودهم ، ولو كانوا أبعد نظرا لساعدوا المسلمين على التغلب على الجاهليين ، لأن الإسلام بما جاء به من سعة الصدر ، وحماية الضعفاء ، والوفاء بالعهد ، كان أجدى عليهم من سلطان أهل الشرك . وقد تبين ذلك فيما عاملهم به من العدل والكرم بعد أن دالت له الدولة ، فبدل أن يحفظ عليهم ما قاموا به من التأليب عليه فى عهد تكوُّنه ، وصى بالإحسان إليهم والبر بهم وبسائر أهل الكتب السماوية ، فكان وجوده رحمة لهم .

وإننا ننبه إلى هذا هنا تبريرا لما قام به النبى ﷺ بعد هذه الوقعة من إجلاء من بقى منهم عن حصونهم ، دفعا للغوائل التى تتطرق إلى جماعة المسلمين من ناحيتهم ، وهذا حق مشروع لكل جماعة تود أن تنال نصيبها من الوجود ، ما دامت لا تضمر لجماعة سخيمة نفسية ، ولا تصدر فيما تعمله عن العصبية الجاهلية .

(سادسها) لما أشار سلمان الفارسى رضى الله عنه على رسول الله ﷺ

بحفر الخندق ، لم يتردد فى الأخذ برأيه ، فأمر بحفره وساعد فيه بنفسه ، فضرب أكمل الأمثال للتعاون الفعلى بين القيادة العليا والجيش ، وهو عمل خطير لم يسبق إليه ، وخطورته تبدو من ناحية أدبية أخرى وهو عدم التورع من الأخذ بما ثبت نفعه ولو نقلا عن المشركين . وهو من ناحية ثالثة يسوغ التجديد بل يحتمه ما دامت حاجة الجماعة تستدعيه . وقد سار أصحاب النبى ﷺ وجميع من جاءوا بعدهم على هذا السمت ، فنقلوا كل ما رأوه من الأمور النافعة فى الجماعات التى احتكوا بها ، ولم يدعوا العلوم والفلسفة حتى ما كان منهما مهجورا فى بطون الكتب الاجنبية ، فكلفوا بها يهودا ونصارى ومجوسا من عرفة اللغات قاموا بترجمتها وإذاعتها ، فكان ذلك سببا فى تخويل المسلمين زعامة العلم والمدنيّة فى الأرض قرونا طويلة ، وفى الإكبار والإعجاب الذى يحيط به المؤرخون العالميون تاريخهم الحافل بعظائم الأمور (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الثانى عشر ، الجزء الأول ، المحرم سنة ١٣٦٠ هـ .

غزواتٌ وسَرَايَا

فيما بقى من السنة الخامسة وفى السنة السادسة للهجرة

لما آب النبى ﷺ من غزوة الأحزاب ، وهمَّ أن يخلع لبوس الحرب ، أوحىَ إليه أن يقاتل بنى قريظة ، وهم من اليهود المجاورين للمدينة ، تأديبا لهم على خيانتهم العهد ، وعلى ممالأتهم للمشركين عندما قدموا لمقاتلة المسلمين . فما وسع النبى ﷺ وقد أمر أن يغزوهم على الفور إلا أن قال لأصحابه : لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة . فصدعوا بالأمر وحرجوا طالبين ديار بنى قريظة ، وتبعهم رسول الله ، وكانت عدتهم ثلاثة آلاف مقاتل لواؤهم بيد على بن أبى طالب .

فلما وصلوا إلى أرض بنى قريظة بادر هؤلاء فاعتصموا بحصونهم ، فحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة ، فرأوا أن لا مناص من التسليم ، فطلبوا إلى النبى ﷺ أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من ترك السلاح والجلاء بالأموال ، فلم يقبل منهم ذلك فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم تاركين سلاحهم وأموالهم ، فأبى طالباً إليهم أن ينزلوا على حكمه . فرجوه أن يرسل إليهم بأحد رجاله أبى لبابة ، وكان حليفا لهم فى الجاهلية ، ليستشيروه . فأرسله إليهم . فلما استشاروه قال لهم : انزلوا ، وأشار إلى حلقه ، يريد أن الحكم الذبح .

قال أبو لبابة هذا محدّثاً عن نفسه : « لم أبارح موقفى بعد إفضائى لهم بما قلت حتى أدركت أنى خنت الله ورسوله » . وما كان منه إلا أن رجع من فوره إلى المدينة ولم يقابل النبى خجلا منه ، وربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد ، آخذا على نفسه أن لا يزال موثقا فيها حتى يقضى الله فيه بأمره . وسأل عنه النبى فأخبر بما كان منه فقال : أما لو جاءنى لاستغفرت له ، أما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضى الله فيه .

لم يسع بنى قريظة إلا النزول على حكم رسول الله ، فأمر بتكتيف الرجال . فجاءه رجال من بنى الأوس حلفائهم فى الجاهلية ، وسألوه أن يعاملهم كما عامل إخوانهم بنى قينقاع . فقال لهم : ألا يرضيكم أن نحكِّم فيهم واحداً منكم ؟ فقالوا نعم ، واختاروا زعيمهم سعد بن معاذ . وأمر النبى بإحضاره ، وكان جريحا ، فحمل

على حمار وغُنى به جماعة من قومه كانوا طول الطريق يرجونه أن يترفق بهم .

فلما قدم على النبى ﷺ قال له : احكم فيهم يا سعد . فقال : أحكم أن يُقتل رجالهم وتُسبى نساؤهم وذراريهم . فنُفّذ هذا الحكم فيهم . ولم يبق بعد هؤلاء مجاور للمسلمين من اليهود غير بقية من كبارهم بخيبر .

أما أبو لبابة الذى أوثق نفسه فى سارية المسجد ، فما زال على تلك الحال حتى نزل فيه قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) ، فحل وثاقه واستراح قلبه .

(**سرية القُرْطاء**) : طائفة من بنى بكر كانوا ينزلون بناحية ضَرِيَّة وهى على بعد سبع ليال من المدينة فى طريق البصرة . أمر النبى ﷺ محمد بن مسلمة أن يغير عليهم فى ثلاثين مقاتلا . ففعل وقتل منهم عشرة وقيل عشرين ، واستاق ما كان معهم من الماشية وهى مائة وخمسون بعيرا وثلاثة آلاف شاة .

واتّفق ورجال هذه السرية عائدون ، أن صادفوا ثُمَامَة بن أُثَال من رجالات بنى حنيفة فأسروه ، وهم لا يعرفون من هو ، وقدموا به على النبى ﷺ . فقال لأصحابه : أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفى ، وأمر به فرُبط إلى سارية من سوارى المسجد لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم . ثم أقبل عليه بعد الصلاة وقال له : ماذا عندك يا ثمامة ؟ قال : خير يا محمد ، إن تَقْتُل تقتل ذا دَمٍ ، وإن تُنعم تنعمْ على شاكرٍ ، وإن كنت تريد مالاً فسَلْ تعطَ منه ما شئت . فتركه حتى كان الغد . ثم قال له : ما عندك يا ثمامة ؟ فأعاد عليه ما قاله أمس ، فتركه حتى بعد الغد ، ثم عاد إليه فسأله كما فعل أولا وثانيا . فقال ثمامة : عندى ما قلت لك . فأمر النبى ﷺ بإطلاق سراحه . فخرج إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم عاد إلى المسجد معلنا إسلامه ، فبشره النبى بخيرى الدينا والآخرة . فشخص إلى مكة ليعتمر . فلما سمعه المشركون ينفى الشريك لله ، قال له قائل : صبأت عن

---

(١) سورة التوبة ، الآية (١٠٢) .

دينك ؟ فقال : لا ولكنى أسلمت لله رب العالمين مع محمد رسوله ؛ ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى ﷺ . وكان أهل مكة فى حاجة إلى استيراد حنطتهم من اليمامة بلد ثمامة ، فخشوا إن هم قتلوه أن يقاطعهم أهل بلده فتصيبهم مجاعة . ورأوا أن يكتبوا إلى رسول الله أن يأذن لثمامة فى عدم حبس حنطة اليمامة عنهم . فكتب إليه النبى أن يخلى بينهم وبين حاجتهم منها . وهذا من الصفات العالية التى تؤثر عنه ﷺ ، فإن قبوله إمداد أعدائه بما يقوتهم مع تمكنه من إجاعتهم وتضييق الخناق عليهم ، يدل دلالة صريحة على أنه يرى أن للنضال آدابا تجب مراعاتها ، وأن للإنسانية حقوقا فوق جميع الاعتبارات ينبغى الوفاء بها . وسلاح إجاعة الأعداء لتضييق المنادح عليهم مشروعة ، ولكن والحرب قائمة ، أما والسلام ضارب أطنابه ، فلا تصح مهما كانت درجة التوتر فى العلاقات بين الفريقين .

غزوة بنى لحيان :

بنو لِحْيان قبيلٌ من العرب كانوا قد قتلوا عاصم بن ثابت ورجالاً معه من أصحاب النبى ﷺ ، فلما كان ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة سنحت فرصة للاقتصاص منهم ، فأمر بعض أصحابه بالاستعداد للحرب ، وخرج فى مائتين منهم قاصدا بنى لحيان . فلما بلغهم الخبر تفرقوا فى الجبال . فأقام النبى بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يعثرون بأحد منهم ، فرجع إلى المدينة .

غزوة الغابة :

كان لرسول الله ﷺ عشرون لَقحة ترعى بالغابة (١) فأغار عليها مغير يدعى عيينة بن حصن فى أربعين راكباً واقتادها . فأبلغ هذا الخبر إلى النبى سلمة بن الأكوع ، وكان عَدَّاء ومن مَهَرة الرماة . فأمره أن يتصل بالقوم ويشغلهم بالنبل حتى يلحق بهم . فأدركهم سلمة فى الطريق فأخذ يشغلهم بالنبل . فكانوا يركضون خيولهم ليقبضوا عليه فيفوتها ، فإذا كفوا عنه عاد لرميهم ، حتى اضطرهم لإلقاء كثير مما كان معهم من الرماح والأبراد ليخففوا أثقالهم ، فيسهل إفلاتهم من جنود

---

(١) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن . والغابة : موضع قريب من المدينة .

المسلمين .

فى هذه الأثناء ندب النبى ﷺ بعض أصحابه للخروج معه ، فدفع لواءه للمقداد بن الأسود وأمره بالخروج ولحق به الفرسان ، فأدركوا مؤخرة العدو ، فحدثت مناوشة قتل فيها مسلم ومشركان ، واستنقذ المسلمون أكثر اللقاح ، وهرب أوائل القوم بالبقية .

فطلب سلمة بن الأكوع إلى النبى أن يرسله فى جماعة ليدرك الهاربين ويأخذهم على غرة وهم نازلون على أحد مياههم . فقال له ﷺ : « قد ملكتَ فأسْجِح » أى قد غلبت فأحسن العفو . ثم رجع بعد خمس ليال .

إحدى عشرة سرية :

(أولاها) – أن بنى أسد كانوا يؤذون من يمر بهم من المسلمين ، فأرسل إليهم النبى ﷺ عُكَّاشة بن مِحْصَن فى أربعين راكبا ليقاتلهم . فلما بلغهم الخبر هربوا ، فاستاق المسلمون ما وجدوه من نَعَم العدو وكانت مائة بعير ، وعادوا بها إلى المدينة .

و(ثانيتها) – أن النبى ﷺ علم أن المقيمين بذِى القَصَّة [1] يريدون الإغارة على ماشية المسلمين التى ترعى بالهيفاء [2] فبعث إليهم محمد بن مسلمة فى عشرة من المقاتلة . فلما وصلوا كان الليل قد أرخى سدوله ، وكان المشركون قد علموا بخبرهم وكمنوا لهم . فلما ناموا أخذ الأعداء يرمونهم بالنبل ، فتواثبوا إلى أسلحتهم ولكن بعد ما فات الوقت ، فقتلوا كلهم إلا قائدهم . فأرسل النبى إليهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ليعاقبهم على ما فعلوا . فلما بلغ ديارهم وجدهم قد هربوا ، فاستاق أنعامهم ورجع .

و(ثالثتها) – أن بنى سليم كانوا يعاكسون الذين تحزبوا مع المسلمين فى

---

(١) ذو القصة : موضع على بعد ٢٤ ميلا من المدينة .

(٢) والهيفاء : موضع آخر قرب المدينة .

غزوة الخندق عندما كانوا يمرون بديارهم . فأرسل النبى ﷺ زيد بن حارثة ليقاتلهم . فلما بلغ أرضهم وجدهم قد فروا . فأخذ المسلمون ما عثروا عليه من أنعامهم وشائهم ، ووجدوا رجالا فأسروهم وعادوا إلى المدينة .

و(رابعتها) – أن رسول الله ﷺ نمى إليه أن قافلة تجارية أقبلت من الشام تريد مكة ، فندب لاعتراضها زيد بن حارثة فى مائة وسبعين رجلا ، فاستولى عليها وأسر رجالها ، وكان فيهم أبو العاص بن الربيع وهو من رجالات قريش ، زوج زينب بنت النبى ﷺ ، وكانت قد هاجرت إلى المدينة وتركت زوجها هذا مشركا ، فاستجار بها بعد أسره ، فأجارته وأعلنت ذلك . فقال رسول الله : « المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم ، وقد أجرنا من أجرتِ » . ورد على زوجها حرّيته وماله . فرجع إلى مكة ثم عاد إلى المدينة مسلما ، فرد عليه رسول الله زوجته زينب .

وقول النبى ﷺ : « يجير عليهم أدناهم » تقرير لمبدأ المساواة لم يكن معروفا لا عند عرب الجاهلية ، ولا عند اليونانيين ولا الرومانيين ممن بلغوا فى القدم درجات عالية فى المدنيّة . فقد كان لا يجير عندهم إلا كبار الرجال ذوو الجاه والمكانة المالية ؛ أما أدنى القوم فقد كان لا يأبه بهم أحد ، بل كان أهل الطبقة الدنيا فى المدنية الرومانية يدخلون فى حماية السراة ، حتى لا يكونوا عرضة للعدوان وإلا بطش بهم الأقوياء .

و(خامستها) – أن رسول الله بلغه أن بنى ثعلبة ، الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة كما أوردناه فى تاريخ السرية الثانية هنا ، يقيمون على بعد نحو ستة وثلاثين ميلا من المدينة ، فوجه إليهم زيد بن حارثة فى خمسة عشر مقاتلا للثأر منهم ، فهربوا من وجه السرية ، فاستولى المسلمون على أنعامهم وشائهم ورجعوا إلى المدينة .

و(سادستها) – أن النبى ﷺ أرسل زيد بن حارثة ليشن على بنى فزارة غارة عقابا لهم على ما تعرضوا لزيد المذكور وهو آيب من الشام بتجارة وانتهبوا ما معه . فقصد القوم فى وادى القرى وهو موضع شمال المدينة . فأحاط بالقوم برجاله وقتل منهم رجالا كثيرين .

و(سابعتها) – أن النبى ﷺ أرسل عبد الرحمن بن عوف فى سبعمائة من المقاتلة ، لدعوة بنى كلب إلى الإسلام ، وكانوا فى دُومة الجندل ، وهى قرى فيها

حصن على بعد خمس عشرة ليلة من المدينة ، وتقع على بعد خمس ليال من دمشق . وقبل أن يسير الجيش أوصاهم قائلا : « اغزوا جميعا فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ولا تغلُّوا [١] ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم » .

فلما حلوا بديار القوم دعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ، وفى الرابع أسلم رئيس القوم الأصبغ بن عمرو وكان على النصرانية ، وأسلم معه كثيرون من قومه ، ورضى الباقون أن يدفعوا الجزية باعتبار أنهم من أهل الكتاب .

و(ثامنتها) — أن رسول الله أرسل على بن أبى طالب فى مائة مقاتل لمحاربة بنى سعد بن بكر بفَدَك [٢] لأنه اتصل به أنهم على وشك الاتفاق مع يهود خيبر لمقاتلة المسلمين . فاتفق لهم أن عثروا بالطريق على جاسوس لهم ، فأمنوه على نفسه فى مقابل دلالتهم على موضع القوم ، فدلهم عليه ، فأغار المسلمون على ماشية القوم واستاقوها إلى المدينة ، وكانت خمسمائة بعير وألفى شاة .

و(تاسعتها) — أنه لما أرسل النبى ﷺ عبد الله بن عَتِيك وأربعة رجال معه لقتل أبى رافع سلَام بن أبى الحُقَيْق زعيم يهود خيبر ، وكان لغناه ومكانه من قومه كثير التأليب على المسلمين ، ونجح ابن عتيك فى قتله بعد أن دخل فى حصنه بحيلة توصل بها إليه ، وولى اليهود أمرهم أُسَيْر بن رزام ، وجَّه رسول الله من يأتيه بخبر القوم ، فعلم أن هذا الزعيم الجديد ليهود خيبر يعمل على الاتفاق مع بنى غطفان للثأر من المسلمين . فبعث النبى إليه بعبد الله بن رواحة فى ثلاثين من رجاله ليستميلوه إلى المسالمة .

فلما قدم هذا الوفد خيبر عرضوا على أُسَيْر بن رزام أن يقدَم معهم إلى المدينة ويترك ما عزم عليه من الخصومة ، فيعترف به النبى ﷺ رئيسا لخيبر ، ويزول ما بين الطرفين من الجفاء . فقبل أسير بن رزام هذا العرض وخرج فى ثلاثين من

---

(١) غل كذا أخده حفية ودسه فى متاعه .

(٢) قرية بيها وبين المدينة ست ليال .

رجاله ، فجعل كل واحد منهم رديفا لواحد من المسلمين ، وجعل نفسه رديفا لعبد الله بن رواحة ، فبينا هو بالطريق ندم على خروجه وأهوى بيده إلى سيف مردفه ليستله ، فجذبه منه وأسرع فى النزول وضربه على فخذه فقطعها ، وتولى كل مسلم رديفه فقتله .

و(عاشرتها) – أن النبى ﷺ كان قد قدم عليه جماعة من بنى عُكْل وعُرَيْنة فتظاهروا بالدخول فى الإسلام وكانوا مصابين بأعراض سوء التغذى من رقة حالهم ، فتعطف عليهم النبى ﷺ فأمر راعيا له أن يعطيهم حاجتهم من ألبان بعض إبله ، وأشار عليهم أن ينتقلوا إلى مرعى تلك الإبل حتى تعود إليهم صحتهم ، فصدعوا بالأمر ؛ ولما آنسوا فى أنفسهم القوة بعد شفائهم قتلوا الراعى ومثلوا به وأخذوا الإبل وفروا . فأمر رسول الله كُرْز بن جابر الفهرى أن يأخذ عشرين فارسا ويلحق بهم ويقتادهم . فلما جىء بهم إليه أمر أن يمثَّل بهم كما مثلوا بالراعى ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم ، وألقوا خارج المدينة حتى ماتوا .

أما ما ورد من النهى عن التمثيل بالأعداء فقد حدث بعد هذه الحادثة .

و(حادية عاشرتها) – أن النبى ﷺ أرسل عمرو بن أمية الضمرى وكان رجلا فاتكا فى الجاهلية ، وأصحبه بمعين له ، ليقتلا أبا سفيان بن حرب غِيلَة ، جزاء له على إرساله رجلا ليقتل النبى غيلة .

فلما شخص عمرو بن أمية إلى مكة توجه ورفيقه ليطوفا بالبيت ، فعرف رجل من المشركين عمرا وأذاع الخبر ، فرأى عمرو أن ينجو بنفسه قبل أن يقبض عليه ، فرجع هو وشريكه إلى المدينة وبقى أبو سفيان حيا حتى أسلم عندما شرع رسول الله يفتح مكة .

أما خبر الرجل الذى كان أرسله لاغتيال النبى ﷺ ، فإن أبا سفيان قال يوما وهو بنادى قومه : ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غيلة لنستريح منه ؟ فنهض إليه رجل وتعهد له بذلك . فأعطاه راحلة ونفقة . فلما وصل إلى المدينة كان النبى بمسجد بنى عبد الأشهل فذهب إلى ذلك المسجد ، ولما وقعت عينه على رسول الله قصده متظاهرا بالطاعة وانحنى عليه ، فخشى أسيد بن حضير أن يكون قد أسر

شرا فجذبه من إزاره ، فسقط الخنجر الذى أعده له ، فافتضح أمره ، وسأله النبى عن الحامل له على سوء نيته ، فصَدَّقه وأسلم من ساعته .

* * *

نظرة على ما سبق :

إننا لم نعمل فى كل ما مر فى هذا الفصل إلا سرد الحوادث التى وقعت فى السنتين الخامسة والسادسة للهجرة ، وكنا نستطيع أن نقف عند الحد الذى انتهينا إليه لنستأنف بقية السيرة المحمدية فى الأعداد التالية ؛ ولكنا شعرنا أن القارئ سيشعر بشىء من الحيرة عندما يقرأ ما عومل به المستسلمون من بنى قريظة من الشدة ، وما حُكم به على الجماعة من عكل وعرينة من التمثيل ، جزاء قتلهم رجلا واحدا وتمثيلهم به ، وما كان يُرسَل من أهل الجرأة والفتك لقتل بعض رؤساء الخصوم غيلة ؛ فلهذا رأينا أن التعقيب على هذه الحوادث واجب .

جاء الإسلام لينشر إصلاحا يشمل الأديان والأصول والمبادئ التى كانت تقود الجماعات الإنسانية وأخرجت عن حدودها ؛ ولبثّ أصول ومبادئ أدبية جديدة لابد منها لتكميل أدوات التطور الاجتماعى ، تكميلا لا تحتاج بعده لأدوات أخرى ؛ واقتضى هذا الإصلاح أن تقام له دولة تمثله وتدافع عنه . لأنه ثبت أن كل إصلاح دينى أو اجتماعى لا تتقمص روحُه دولة ، تنافح العوامل المحللة دونه ، يضمحل ويزول كأن لم يكن . والدليل المحسوس على هذا أنه لم يوجد ولا يوجد دين أو نظام مدنى قام بدون دولة . وهذه الديانة النصرانية ظلت فكرة مضطهدة مدة ثلاثة قرون متوالية حتى قامت لها دولة ، سُفكت فى سبيلها دماء ، وهُدمت هياكل وبِيَع ، فقويت واشتدت ونشرت رواقها على أوروبا برمتها ، وعلى بقاع كثيرة من القارات الأخرى .

فكان لابد للإسلام من أن يقيم لنفسه دولة ؛ والدولة عمل إنسانى يقتضى ككل عمل إنسانى أن يناسب البيئة التى يعمل فيها ، والنفوس التى يحتك بها ، ويحطم العقبات التى تقوم دونه .

وهذا العمل الإنسانى فى البيئات التى تصل بعد إلى أرفع درجات السمو الأدبى

لا يجدى فيه القيام على المُثُل العيا إلا بعد أن يصل إلى غايته القصوى ؛ أما وهو لا يزال فى دور التكوين فلابد للقائم به من أن يتنزل إلى استخدام الأساليب التى لا تتأثر النفوس الراهنة إلا بها . وإذا كان من النفوس من تكفيها الإشارة ، ومنها من لا يؤثر فيها إلا السواط يلهب ظهور أصحابها ، فمن الجماعات ما تجزىء فى زجرها المثل العليا من العدالة ، ومنها ما تفسدها هذه المثل العليا نفسها ، ولا ينفع معها إلا معاملتها بمثل ما تعمل لتُقتاد إلى ما يصلحها .

إذا أنصف خصوم الإسلام وجب عليهم أن يعجبوا كيف لم تشع هذه المعاملة الشديدة فى الدور الأول من تأسيس الدولة الإسلامية ، وتكون هى الأسلوب العملى لتقويم أمة جاهلية من الطراز المتحجر ، لا أن تقتصر على حادثتين أو ثلاثة فيه ، فإن معالجة الجماعات التى فسدت نفوسها بالعيش آلافا من السنين على حالة البداوة ، وقست قلوبها حتى صارت كالصخور أو أشد قسوة ، تضطر أرق المصلحين لها أن يعمدوا كارهين إلى وسائل توائم ما هى عليه من التحجر المستعصى ، وخاصة إذا كان المراد نقلها عما هى عليه ، خلافا لسنن التطور ، فى سنين معدودة .

ليس يدرك صحة ما نقول إلا من ابتلى بإصلاح رجل واحد ممن نذكر ، ورأى كيف تعجز جميع وسائل التقويم المعروفة فى علاجه ، وكيف يُلقى المنطق سلاحه ، وتتحطم نصال الأدلة الماضية دون إصراره وعناده .

على أن حادثتين أو ثلاثا مما لاحظه الخصوم واقتضتها أحوال خاصة ، لا تكدر صفو تاريخ حافل بآيات ، أصغر واحدة منها تنحنى أمامها الرءوس إجلالا ، وتفيض منها القلوب إيمانا ، وتزداد بها العقول عرفانا (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الثانى عشر ، الجزء الثالث ، ربيع الأول سنة ١٣٦٠ هـ .

الجهاد الأدبى بين الجهاد الحربى
صلح الحُدَيْبِيَة
وما أحدثه من هدم الوثنية

فى السنة السادسة من الهجرة أخبر النبى ﷺ أصحابه بأنه يريد العمرة ؛ والعمرة هى الطواف بالبيت فى غير وقت الحج ؛ وطلب إلى الأعراب المحيطين بالمدينة أن يخرجوا معه ، ولكنهم تلكّأوا ثم قالوا له : قد شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . وكان السبب الصحيح فى تثاقلهم أنهم ظنوا أن المشركين يفتكون بالمسلمين ؛ وقد أشار إلى ذلك الكتاب الكريم فى قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ [١] شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ، بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ، وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُوراً ﴾ [٢] ، أى هالكين .

فتركهم النبى ﷺ وخرج فى ألف وأربعمائة من أصحابه ليس عليهم من السلاح شىء غير السيوف ، وساروا حتى وصلوا عسفان ، فجاءه الخبر بأن قريشا أحست بمجيئهم وأجمعت على صدهم ، واستعدت للحرب تحت قيادة خالد بن الوليد (ولم يكن أسلم) . فاتبع المسلمون طريقا غير الطريق المعروفة ، فلم يشعر القرشيون إلا والمسلمون بجوارهم فى مستوى سهل يملك مكة من أسفلها . وأمر النبى أصحابه بالنزول فى أقصى مكان اسمه الحديبية فيه بئر تحمل هذا الاسم . وهناك أقبل سفير لقريش يدعى بُدَيل بن ورقاء يسأل عن سبب قدوم المسلمين . فأخبره النبى بأنه جاء معتمرا .

ثم أرسلو حُلَيس بن علقمة سيد الأحابيش ، وهم أعراب لا أحباش كما يتوهم

---

(١) الأعراب : سكان البادية من العرب . والعرب : اسم جنس ، ويطلق على المتحضرين .

(٢) سورة الفتح ، الآيتان (١١ — ١٢) .

بعضهم ، فلما قدم على المسلمين وجدهم يلبون ، فِعْلَ من يريد العمرة لا الحرب ، فعاد إلى قريش وأخبرهم بأن القوم جاءوا معتمرين ، ولامهم على منعهم .

فقالوا له أنت أعرابى وليس لك علم بالمكائد ، وأرسلوا عروة بن مسعود الثقفى سيد أهل الطائف ، فأقبل على رسول الله وكلّمه قائلا : يا محمد قد جمعت أوباش الناس وجئت إلى عشيرتك لتفضها بهم ، إن قريشا قد عاهدت الله أن لا تدخلها عليهم عنوة ، وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك . وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية النبى ﷺ ، فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده كلما أراد ذلك .

ثم رجع عروة وقد أدهشه ما يجده رسول الله من تبجيل أصحابه له ، فقال لقومه : يا معشر قريش والله لقد جئت كسرى وقيصر فما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه . فاقبلوا ما يعرضه عليكم فإنى أخاف أن لا تنصروا عليه .

فتأثرت قريش مما قاله عروة لهم ولكنها أصرت على المشارّة . واتفق أن رسول الله رأى أن يرسل عثمان بن عفان فى عشرة من أصحابه سفيرا من قبله لإبلاغ قريش ما قصده من مجيئه . فبلغ عثمان رسالته إلى قريش . فقالوا له : إن محمدا لن يدخلها علينا عنوة ، وحبسوه هو وأصحابه عندهم . فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل .

بيعة الرضوان :

لما ذاع خبر قتل عثمان دعا النبى ﷺ أصحابه لمبايعته على الموت فى قتال المشركين ، فبايعوه على ذلك تحت شجرة هناك سميت بعد ذلك بشجرة الرضوان ، ونسبت إليها تلك البيعة .

وكانت قريش ، وقد اعتزمت أن تلجأ إلى الشدة ، قد أرسلت خمسين رجلا تحت قيادة مِكْرَز بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين عسى أن يصيبوا منهم غِرّة ؛ فشعر بهم الحرس فأسروهم وأفلت قائدهم . فلما بلغ ذلك قريشا أرسلت كتيبة لمناوشة المسلمين ، فأسر المسلمون منهم اثنى عشر رجلا ، وقتل من المسلمين واحد .

عند ذاك خشيت قريش مغبّة هذا المركب الخشن ، فلانت عريكتها ولجأت إلى الملاينة ، وأرسلت سفيرا من قبلها هو سهيل بن عمرو طالبة الصلح . فلما قابل

رسول الله ﷺ قال : يا محمد إن الذى حصل ليس من رأى عقلائنا ، بل هو شيء قام به السفهاء منا ، فابعث إلينا بمن أسرت . فقال له النبى : حتى ترسلوا الذين عندكم .

عند ذاك أرسلوا عثمان والعشرة الذين كانوا معه ، وقدم سهيل الشروط التى تطلبها قريش وهى أربعة :

(١) تقرير هدنة بين قريش وبين المسلمين أربع سنين .

(٢) إذا لجأ رجل من قريش إلى المسلمين فعليهم ردّه ، وإذا فر واحد من المسلمين إلى قريش فليس عليها رده .

(٣) أن يعود المسلمون هذا العام بغير عمرة ، ويأتوا فى العام الذى يليه فيدخلوا مكة بعد أن تخليها لهم قريش ثلاثة أيام ، ولا يكون معهم من السلاح إلا السيوف والأقواس .

(٤) من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش فله ما أراد ، ومن طلب أن يدخل فى عهد قريش فله ما أراد كذلك .

فقبل النبى ﷺ هذه الشروط دون تردد ، وداخل المسلمين منها أمر عظيم ، وأجمعوا على أن يكلموا النبى فيها . فكان مما قالوه له : يا رسول الله ، كيف نرد إلى المشركين من جاءنا منهم مسلما ، ولا يردون هم إلينا من فر إليهم مرتدا ؟

فقال لهم النبى : إن من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له مخرجا .

وبلغ من شدة وقع هذا الصلح على المسلمين أن عمر بن الخطاب نفسه قصد إلى أبى بكر وأظهر امتعاضه منه . فقال له الصدّيق : إنه رسول الله وليس يعصى ربه ، وهو ناصره .

فلم يقتنع عمر بما قاله له صاحبه ، وذهب إلى رسول الله ، وقال له مثل ما قال لأبى بكر .

فقال له النبى ﷺ : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى .

فاستدعى النبى أوس بن خولة وأمره أن يكتب الشروط . فاعترض سهيل وطلب أن يكون الكاتب على بن أبى طالب أو عثمان بن عفان .

فأمر النبى عليا أن يكتب ، وأملاه بسم الله الرحمن الرحيم .

فاعترض على ذلك سهيل وقال : إن قريشا لا تعرف إلا باسمك اللهم .

فضج المسلمون من هذا التشدد ، وأمر عليا أن يكتب باسمك اللهم .

ثم قال له اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله .

فاعترض سهيل على ذلك ، وقال : لو كنا نعرف أنك رسول الله لم نقاتلك ولم نصدك عن البيت ، ولكن اكتب باسمك واسم أبيك .

فقال النبى لعلى : امح رسول الله يا على . فصعب عليه أن يمحوه ، فتناول النبى الكتاب ومحاه بيده ، وقال لعلى اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

بعد كتابة هذه الشروط وتسلُّم كل من المعسكرين نسخة منها ، وأصبحت نافذة ، أقبل رجل من المسلمين يدعى أبا جندل بن سهيل لاجئا إلى المسلمين ، وكان القرشيون قد منعوه من الهجرة . فقال له النبى ﷺ : إننا قد عقدنا مع القوم صلحا وأعطيناهم وأعطونا عهدا فلا نغدر بهم . فاصبر واحتسب فإن الله جاعل لك وللمستضعفين مخرجا .

لما تم أمر التعاهد أمر رسول الله أصحابه أن يتحللوا من عمرتهم وذلك بأن يحلقوا رءوسهم ، وينحروا هديهم . فأصابهم من ذلك كرب عظيم حملهم على عدم المبادرة بالامتثال . فدخل النبى على زوجته أم سلمة ، وكان قد استصحبها معه ، وقال : هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا .

فقالت له : يا رسول الله اعذرهم ، فقد حملتهم أمرا عظيما بهذا الصلح ، وكانوا يريدون أن يفتحوا مكة ، فهم لذلك مكروبون ؛ فابدأ يا رسول الله بما تأمرهم به ، فإذا رأوك فعلت اتبعوك . فاتبع النبى مشورتها ، فلما رآه المسلمون يتحلل من العمرة فعلوا مثل ما فعل ، وعادوا معه .

ما كاد المسلمون يستقرون فى مدينتهم حتى لحقت بهم أم كلثوم بنت عقبة أخت عثمان لأمه ، فطلبها المشركون . فقالت : يا رسول الله إنى امرأة ، وإن أرجعت إليهم فتنونى فى دينى ، فنزل على النبى فى ذلك حكم وهو قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ، اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ، وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ ، وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ، ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] .

مؤدّى هذا الحكم أن المرأة المؤمنة إذا جاءت مهاجرة استحلفت بأنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، ولا من بغض زوج ، ولا لالتماس دنيا ، ولا لرجل من المسلمين ، ولكن حبا لله ولرسوله ؛ فإن حلفت فلا ترد ويعطى زوجها المشرك ما أنفقه عليها . وكذلك يفعل مع الزوجة المشركة فترد إلى أهلها بعد أن يعطوا زوجها المسلم ما أنفقه عليها .

وحدث أن أبا بصير عتبة بن أسيد الثقفى فر إلى رسول الله فأرسلت قريش فى أثره رجلين يطلبان تسليمه إليهما . فأمره ﷺ بالرجوع معهما . فرجع مع صاحبيه . ولما قارب ذا الحليفة عدا على أحد حارسيه فقتله وهرب منه الآخر . ورجع إلى رسول الله ثانية قائلا له : قد وفيت ذمتك . فقال له : لا ، اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة . فخرج إلى ناحية على طريق الشام تمر به تجارة قريش ، فأقام به ، واجتمع به نفر ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا ، ولحق به أيضا أبو جندل بن سهيل اللائذ الأول ، وأخذوا يقطعون الطريق على تجارة قريش ، فاضطر المشركون أن يرسلوا إلى رسول الله يرجونه إبطال هذا الشرط من المعاهدة ، فقبل منهم ، ومحا الله من تلك المعاهدة ما كان يجد منه المسلمون ألما ممضا .

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية (١٠) .

التأثير العظيم الذى أحدثه صلح الحديبية :

روى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن مجمّع بن حارثة الأوسى قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا منها وجدنا رسول الله ﷺ واقفا عند كُرَاع الغَمِيم ، وهو موضع أمام عسفان ، وقد جمع الناس وقرأ عليهم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ ، الآيات . فقال رجل : يا رسول الله أَوَ فتح هو ؟ قال : إى والذى نفسى بيده إنه لفتح .

قد يعجب القارئ لأول وهلة أن يصف الكتاب الكريم بالفتح المبين ما اعتبره جيش برمته ضعفا واستسلاما ، ما عدا واحدا هو أبو بكر .

وقد رأى المؤمنون بأعينهم ثمرة هذا الصلح ، وتبين أنه كان أجل أثرا وأعظم عائدة على جماعتهم من أى فتح تقدمه ، بل رأوا أنه كان يجب أن توجد هذه الهدنة لتمهد السبيل أمام الإسلام بفتح القلوب له من طريق الاقتناع العقلى ، لا من طريق السيف وحده . فإن كل فتح فى تاريخ البشرية اعتمد على القوة وحدها انهار عقب قيامه مباشرة ، ما دام لم يصحبه تأثير أدبى فى النفوس تتألف منه عقيدة تخالط العقول والقلوب ، وتصبح بذلك حاجة روحية للقائمين به .

فالحق سبحانه وتعالى ، الذى كتب للإسلام أن تكون له دولة تُحدث فى العالم من ضروب الانتقالات الأدبية والاجتماعية ما لم تحدثه الفتوحات الكبرى مجتمعة ، أراد أن يكثر عديد الذين يصبح لهم الإسلام عقيدة متغلغلة إلى أعمق ما تصل إليه عقيدة من ضمائرهم ، ليقوموا به كحاجة قلبية لهم ، إلى جانب ما هو عليه كحاجة اجتماعية لوجودهم . وكيف يتسنى هذا فى وسط المعارك الدامية ، والسخائم المستعرة ؟ فكان لابد من وجود هُدْنةٍ يُلقَى فيها السلاح جانبا مدة كافية ليتمكن العقلاء من الناحيتين من التقابل والتفاهم ، والأخذ والرد ، والإقناع والاقتناع ، حتى يكون فى الجماعة رجال كثيرون انضموا إليها منقادين لأصوات ضمائرهم ، لا مستسلمين لعامل المنفعة ، فلا يلبثون بعد ارتفاع اليد الماسكة عنهم أن يعودوا لما كانوا عليه من جاهلية وما ورثوه وألفوه من وثنية .

من أراد أن يعرف الفرق بين هاتين الحالتين بدليل محسوس ، أحلناه إلى حقيقة

تاريخية وهى : أنه على أثر قيام الجماعة الإسلامية على صورة دولة قبيل فتح مكة وبعدها ، دخلت القبائل العربية المنتشرة فى جزيرة العرب فى الإسلام ، وكان دخولها فيه للمحافظة على وجودها ، ولاتقاء قارعة تحل بها من جراء شذوذها ؛ فلما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى شقوا عصا الطاعة على مَن خلفه ، وعادوا إلى وثنيتهم ، ومنعوا الأتاوات التى كانت تتقاضاهم إياها الدولة ؛ فاضطر أبو بكر إلى مقاتلتهم وإعادتهم إلى الطاعة بالقوة . وكان هذا العمل مما يستحيل حدوثه لو كان السواد الأعظم من مقيمى تلك الدولة على شاكلة هذه القبائل التحقوا بالإسلام طلبا للمصلحة ، لا عن اقتناع راسخ بحقيقته .

ولكن الذى كان أن السواد الأعظم من أولئك الأصحاب والأنصار كانوا يعتقدون عقيدة راسخة بأنهم يمثلون دينا هو حاجة روحية لهم ، ويقومون بنظام اجتماعى وأدبى سينقذ الإنسانية من أدوائها القاتلة ، وأنه سيعلو ويمتد حتى يؤتى أهله بخلافة الله فى الأرض ، ويعيش الناس فى رعايته على أكمل ما تكون عليه الإنسانية من سعادة مادية ومعنوية . هذا العامل الأدبى دفعهم لأن يبذلوا أموالهم وأرواحهم فى سبيل الذياد عن حوضه ، والدفاع عن بيضته ، وإعادة المنشقين عنه إلى حظيرته .

فأنت ترى أن هذا العامل الأدبى الذى أدت إليه العقيدة الراسخة ما كان لينتشر فى ألوف من الناس لو اعتمد ناشروه على القوة وحدها . وكيف كانت تتهيأ البيئة لتبادل الآراء فيه ، وإقامة الأدلة عليه ، لولا عهد طويل من السلام يحدث فيه اختلاط بين رجال القبيلين يفضى كل منهم إلى خصمه بما هو عليه ؟

هذا من لباب العلوم الاجتماعية التى لم يفتح بها على الناس إلا فى القرون المتأخرة ؛ ناهيك أن الناس عز عليهم أن يفهموا ما سماه كتابهم فتحا مبينا ، فى الوقت الذى كانوا يعتقدون فيه أنه مظهر من مظاهر الاستخذاء والتسليم لعدوهم .

ولم يطل العهد على الدين أنكروا هذا الصلح ، فقد تجلت لهم حكمته فى أجلى مظاهرها بعد عقده بسنتين عند فتح مكة . فقد روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبى فى قوله تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ أنه قال : « لم يكن فى الإسلام فتح قبله أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت

الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، لم يُكَلم أحد ذو عقل فى تلك المدة فى الإسلام إلا دخل فيه . ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان دخل فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر ، ويدل عليه أنه ﷺ خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة ، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة فى عشرة آلاف » . اهـ .

لا جرم أن هذا من أعظم دلائل النبوة ، فإن إقدام النبى على عمل استنكره أصحابه كلهم ، والتشدد فى إمضائه إلى هذا الحد ، لم يكن من عادته ﷺ ؛ فقد أثر عنه أنه كان يستشير أصحابه ويعمل بمشورتهم فيما لم ينزل فيه وحى . وقد أخبرهم فى هذه المرة بأنه نزل فى هذا الصلح وحى ، ودعاه الكتاب الكريم بعد إتمامه فتحا مبينا ، خلافا لما كان يراه فيه الناس كلهم ، وقد ظهر أنه يستحق هذا الوصف بعد ظهوره بسنتين اثنتين .

لو كانت الأمور تجرى على عاداتها ، لكان هذا الصلح الذى اعتبره المسلمون مذلا لهم ، قد زاد المشركين غرورا بقوتهم ، وتمسكا بوثنيتهم ؛ أما وقد أنتج عكس ما كان ينتظر منه ، وصَدَّق الكتاب فى تسميته إياه فتحا مبينا ، فهذا مما لا يمكن تعليله إلا إذا اعتبر وحيا إلهيا ، لا تدبيرا بشريا .

إن أمثال هذه المعجزات هى التى يعتدّ بها العلم ، ويرى فيها مظهرا من مظاهر الاتصال بعالم أرفع من هذا العالم ، يُمَدّ منه الإنسان بما لا تعطيه الطبيعة المجردة من خطط العمل ، ولا سيما فيما يتعلق بالشؤون الاجتماعية التى لا يدركها إلا الذين حذقوا العلم بأحوال النفوس ، وطبائع البيئات ، وعوامل التطور ، وأين هم من هذا كله فى ذلك العهد من الظلام الدامس ، وفى تلك البقعة من قرارة البداوة المنحلة ؟ (*) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الثانى عشر ، الجزء الخامس ، جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ هـ .

الرسالة المحمّدية عامّة للبشر كافّة
إعلانها للدول رَسْميًّا

فى السنة السادسة من الهجرة ، وبعد صلح الحديبية ، رأى النبى ﷺ أن الوقت قد آن لإعلان العالم أجمع برسالته العامة ، فأرسل للملوك الذين كانوا يتوزعون الأمم فى زمانه سفراء يحملون كتبا مه إليهم ، يدعوهم فيها إلى الإسلام ، موقعا عليها بخاتم اتخذه منقوشا عليه (محمد رسول الله) . فوجه دِحْية الكلبىّ إلى أمبراطور الرومانيين بكتاب جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على مں اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسْلِم تَسلم يؤتك الله أجرك مرتيں ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين [1] و« يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وبعث عبد الله بن حُذافة السهمى بكتاب إلى كسرى ملك الفرس جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم ، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس » .

وأرسل حاطب بن أبى بَلْتعَة إلى المقوقس عظيم القبط بكتاب كان فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط .

---

(١) الأريسيين أى الفلاحين ى القرى . وحاء فى رواية (الأكارين) وهم الفلاحون أيضا جمع أكار .

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط . و« يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وكلف عمرو بن أمية الضمرى أن يحمل إلى النجاشى ملك الحبشة كتابا جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة سلم . أما بعد ، فإن أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده . وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله . وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل . وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » .

وكتب إلى ملك البحرين ، وإلى ملكى عمان ، وإلى هوذة بن على ملك اليمامة ، وإلى أقيال اليمن ، وإلى كل من كان يمكن أن يصل إليه كتاب من قادة الجماعات البشرية ، يدعوهم فيه إلى الإسلام ، وينذر من تخلف عن قبول دعوته منهم بسوء المصير .

تأثير هذه الكتب فيمن أرسلت إليهم :

لما وصل كتاب النبى ﷺ إلى قيصر ملك الرومان ، طلب أن يبحث له عن رجال من العرب ليسألهم عن رسول الله ، فاتفق أن كان أبو سفيان بن حرب بالشام فى تجارة مع جماعة من قريش ، فدعوهم لمقابلة الأمبراطور . فلما مثلوا بين يديه ، قال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه رسول ؟

فأجابه أبو سفيان : أنا . لأنه كان من بنى عبد مناف أحد أجداد النبى ، فقال له قيصر : ادْنُ منى . ثم سأله : كيف نسب الرجل فيكم ؟ فقال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .

فسأله : هل ادعى هذه الدعوى أحد قبله منكم ؟ فقال : لا . قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يدعى ما ادعى ؟ قال لا . قال : فهل كان من آبائه ملك ؟ قال : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم . قال : بل ضعفاؤهم . قال : يزيدون أم ينقصون ؟ قال أبو سفيان : بل يزيدون . قال الأمبراطور : هل يرتد أحد منهم سَخْطةً لدينه ؟ قال : لا . قال قيصر : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال أبو سفيان : لا ، ونحن الآن منه فى ذِمَّةٍ لا ندرى ما هو فاعلٌ فيها . قال : فهل قاتلتموه ؟ قال : نعم . قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قال : هى بيننا سِجال مرّةً لنا ومرةً علينا . قال قيصر : فَبِمَ يأمركم ؟ قال أبو سفيان : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

وقد روى بعد هذا أن الأمبراطور استنتج من هذه الأجوبة أن محمدا رسول الله حقا . وقال : إن كان ما كلمتنى به صحيحا فسيملك موضع قدمىّ هاتين .

ثم روى أن قيصر لما كان بحمص جمع عظماء الروم وأمر أن تغلق أبوابها ، وقال لهم : يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟ فحاصُوا حَيْصَة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة . فلما رأى قيصر نفورهم استدعاهم وطيب نفوسهم ، وزعم أنه قال لهم ما قال ليختبر ثباتهم فى دينهم .

أنا أشك فى صحّة هذه الرواية ، وإنما أثبتها هنا لإجماع كتاب السير على إيرادها ، وإنما شككت فيها لأنه مما لا يعقل أن يكون قيصر الرومان من سرعة التصديق بحيث يعتمد فى إيمانه على رواية رجال لا يعرف مبلغ صدقهم فيما يقولون ؛ ولم يسألهم عما يجب أن يسأل عنه ذو دين قائم عن الأسباب التى دعت لنسخه بدين جديد ؛ ولم يبحث فى قيمة هذه الأسباب .

فإذا لم تكن هذه الرواية مختلفة كلها ، فيمكن أن تحال إلى ما يمكن حدوثه عادة ؛ كأن يظن أن حب الاستطلاع حمل أمبراطور الروم أن يستحضر بعض من كان فى مملكته من تجار العرب ليسألهم عن رأيهم فى هذه الديانة الجديدة وفى سيرة

القائم بها . أما أنه يتحول إليها بهذه السرعة ويدعو إليها قومه ، وهم من أشد المسيحيين تمسكا بالمسيحية ، فمما لا يمكن قبوله بوجه من الوجوه .

وكان تأثير كتاب النبى ﷺ فى ملك الفرس أنه غضب منه غضباً شديدا حمله على تمزيقه والقذف به .

أما تأثيره فى المقوقس فكان الشك فى صحة الرسالة المحمدية . فإنه لما قرأ كتابه قال لحامله إليه حاطب بن أبى بلتعة : مامنع محمدا إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟

فقال له حاطب : فما منع عيسى حين قبضوا عليه أن يدعو عليهم ويهلكهم ؟

أجمع كتاب السيرة أن المقوقس أجاب النبى ﷺ بكتاب قال فيه : « سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط ، وبثياب ، وأهديت إليك بغلة تركبها ، والسلام » .

وأنا أسلم بأن المقوقس أهدى النبى ﷺ ما ذكر فى هذا الكتاب ، وهو أشبه بكرم أخلاق الأقباط ، ورقة طباعهم ، ولكنى لا أسلم بصحة ما ورد فى الكتاب المنسوب للمقوقس ، من أنه كان يعتقد ببقاء نبى آخر لم يبعث . فإن هذا لا يتفق وعقيدة النصارى ، فإنهم كانوا يعتبرون أن ديانتهم قد تمت بتجسد الابن وصلبه وافتدائه البشر بنفسه .

والذى وضع هذا الكتاب أراد إظهار المقوقس بمظهر الذى تأثر قلبه بالدعوة المحمدية ، فأخطأه اختيار الأسلوب ، وإلا فما معنى قوله : (بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط) ، فمتى كانت للأرقاء مكانات عظيمة فى نظر الأمم ؟

وإنى إنما أنبه على أمثال هذه المآخذ لشحذ الهمم على تطهير السيرة المحمدية من كل ما لا يتفق والذوق السليم وحكم العقل . فإذا كان بعض القدماء عمدوا إلى إهمال النقد فى بعض ما تناقلوه ، فلا يجوز للمعاصرين أن يتابعوهم فيه ، فقد

علموا أن الدلائل على سمو مكانة النبى ﷺ أصبحت تحت ضوء العلم وفلسفته من الكثرة بحيث يعد منها ولا تعد .

وأما تأثير كتاب ﷺ فى النجاشى ، فقد روى أنه لما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ، ونزل عن سريره فجلس على الأرض ، ثم أسلم . ودعا بعد ذلك بحق من عاج فجعل فيه كتاب رسول الله وقال : لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم . ثم أمر أن يكتب له جوابه ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة . السلام عليك يا نبى الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى للإسلام . إلى أن قال : فأشهد أنك رسول صادق مصدّق . وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يده لله رب العالمين » .

نقول : لا يخالج قلبى شك فى أن هذا الكتاب مختلق على النجاشى ، لا لأنه أكبر من أن يخضع للدعوة المحمدية ، فقد خضع لها من الملوك من يفخر النجاشى أن يكون خاضعا لسلطانهم ، ولكن لظهور أثر الصنعة فى كل عبارة من عباراته ، بل كل كلمة من كلماته ، فأنّى للنجاشى وهو فى قاصية من مجاهل أفريقا ، وبين ظهرانى شعب أمّى ، يضن بعقائده الموروثة ضنّه بنفسه ، يكون من سرعة التصديق بحيث يستبدل بدينه دينا جديدا لمجرد دعوته إليه ، وينقلب متحمسا له إلى حد أن يستهتر فى حبه وحب الداعى إليه على نحو ما رأيت ؟

ليست الدعوة المحمدية فى حاجة إلى إظهار عظمتها بمثل هذه المفتريات السادجة ، وقد سرت فى الجماعات والأفراد سريان الروح فى الأجساد ، وبسرعة حار فى تقديرها العقل ، حتى بلغ الذين قبلوها مائة مليون نسمة فى نحو قرن ، وامتد سلطانها على بقاع من الأرض فى ثمانين سنة ، لم يبلغ إلى مثلها ملك الرومان بعد جهاد ثمانية قرون متوالية .

الإسلام دين مُنزل للإنسانية كافة :

لم تصادف الكتب النبوية التى أرسلها النبى ﷺ للأمم والجماعات التى كان يمكن الاتصال بها على عهده ، نجاحا يذكر ، وما كان هذا النجاح مؤملا ، ولكنها

دلت على أمر جلل ، لم يدوَّن له شبيه فى تاريخ رسول من الرسل ؛ دلت على أن الإسلام دين عالمى وليس بدين قومى ، وهنا موطن الدهش من هذا الحادث العظيم الفذ فى تاريخ البشر .

رجل ينهض من بين قبيلة لا عهد لها بكتاب ولا حكمة ، ولا اجتماع جنسى منظم ، ولارباط أدبى محكم ، ينتدب لدعوة الأمم كافة إلى دين عام يجمعها حول أصل واحد ، وهو لا يزال فى وسط الطريق من دعوته لقومه الأقربين ، لا يدرى أيفوز عليهم أم يفوزون عليه ! هذا حادث عظيم لا يكفى فيه التعجب ، ولا يشفى منه الدهش ، ما دام يقدر بالموازين العادية ؛ ولا يوضع فى كفته أن محمدا إنما كان يعمل بوحى يصدر إليه ، ويترسم خطة توضع له ويكلف بالجرى عليها . بهذا الافتراض وحده تحل هذه العويصة حلا يقبله العقل ، ويثلج عليه الصدر ، وتنكشف به عوامل خفية تحل كثيرا من غوامض النبوة ، ومساتير الاتصالات العلوية .

محمد كان رجلا من قريش مثل سائر مواطنيه ، لا يعرف من أمر العالم أكثر مما يعرفه سواه ، وإنما امتاز عنهم بأنه كان يوحى إليه ، ويؤمر بما يجب أن يسير عليه ، وقد كلف أن يصارح الناس بهذه الحقيقة : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ ، وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَّىَ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [١] .

فالذى أوعز إلى محمد أن يدعو الأمم كافة إلى ملته ، قبل أن يطمئن على نجاح دعوته فى البيئة المحدودة التى كان فيها ، هو الحق الذى كان يوحِى إليه القرآن ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته . فالذى يهم الباحث المستقل أن يعرفه هو : هل فيما أنزل على محمد تصريح بأنه أرسل الناس كافة ، وهو ما لم يُصَرَّح به فى كتاب أنزل على المرسلين الذين جاءوا قبله ؟

إذا بحث هذا الباحث عن ذلك وجد قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً

---

(١) سورة الأنعام ، الآية (٥٠) .

﴿لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [١] ، ووجد تصريحا خطيرا آخر بأنه خاتم النبيين .

هنا تثور فيه رغيبة ملحة أن يرى هل فى الدعوة نبأ عظيم يساوى أن يبلغ إلى الناس كافة ، وهل فى أصول هذا الدين ما يرشحه لأن يكون دينا عاما للعالمين ؟

إذا بحث فى هذه الناحية تبينت له أمور على أعظم جانب من جلالة القدر ، وهى :

(١) أن الإسلام ليس بدين جديد ولكنه الدين الأوّل الذى أنزله الله على جميع المرسلين ، وتناوله أتباعهم بالتحريف .

(٢) أن دين الإنسانية واحد ولا يجوز التفرق فيه .

(٣) أن الذى أوجب التفرق فى دين الإنسان هو البغى والتعصب لأغراض دنيوية ليست من الدين فى شىء .

(٤) وأن محمداً أُمِر أَمْراً صريحا بالدعوة لوحدة الدين على الأساس الذى تولیناه بالتبيين .

(٥) وأن الدين العالمى الحق هو أن يؤمن الإنسان بجميع المرسلين من غير تفرقة بين أحد منهم ، وبكتب الله كافة ، فإن فى جميعها الحق والهدى والنور .

(٦) وأن من يؤمن ببعض المرسلين ويكفر بالبعض الآخر فلا يقبل منه دين .
ومعنى هذا أن الإسلام يعتبر الدين وحدة لا تقبل التجزئة ، وهذه نظرية فى الدين تصل إلى درجة من السمو ليس فوقها مرتقى ، وهى ما سيئول إليها العالم حتما بعد أن يصل به الرقى إلى أفق رفيع .

(٧) وأن هذا الدين العام هو مآل البشرية جمعاء ، ولا معدى عنه مهما سعى فى طمس معالمه المضللون .

إليك الآيات الناطقة بالنصوص الصريحة الدالة على ما نقول :

---

(١) سورة سبأ ، الآية (٢٨) .

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فيه ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْه ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . فَلِذَلِكَ فَادْعُ (أى لتوحيد الدين فادع) ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (أى لا محاجة ولا خصومة) ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ، فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ (وهو الدين الأقدم) وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٤) .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْراهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ

---

(١) سورة الشورى ، الآيات (١٣ – ١٥) .
(٢) سورة البقرة ، الآيتان (١٣٦ ، ١٣٧) .
(٣) سورة الأنعام ، من الآية (١٥٩) .
(٤) سورة آل عمران ، الآية (١٩) .

لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [١] .

الدين فى نظر الإسلام وحدة لا تتجزأ ، وهو دين الإنسانية بأسرها ، فمن لم يؤمن من به جملة فلا يقبل منه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ، أُوَلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ [٢] .

هذه هى بعض الآيات التى أردنا إيرادها . وقد قلنا : هل فى الإسلام نبأ عظيم يساوى أن يبلغ إلى الأمم كافة ؟

يسوغ لنا الآن أن نقول بأعلى صوتنا : أجل ! وليس هذا فحسب ، بل ستبقى الحاجة داعية إلى تبليغ هذا النبأ العظيم للأمم شرقا وغربا ما بقى فى الناس قلب يعى وأذن تسمع [*] .

★ ★ ★

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان (٨٣ ، ٨٤) .

(٢) سورة النساء ، الآيتان (١٥٠ ، ١٥١) .

(★) مجلة الأزهر ، المجلد الثانى عشر ، الجزء السابع ، رجب سنة ١٣٦٠ هـ .

غزوة يهود خيبر

قدمنا أنه كانت بقرب المدينة جاليات من بنى إسرائيل هجروا مواطنهم تفاديا من الاضطهادات الدينية ، ونزلوا إلى صقع من الأرض بعيد عن المنازعات المذهبية ، ليعيشوا هائئين بملتهم . فلما أرسل النبى ﷺ داعياً للإسلام ، وناعياً عليهم وعلى جميع أهل الديانات انحرافهم عن الدين الحق ، كان وقع ذلك أشد على اليهود من وقعه على العرب أنفسهم ، لأن كتابهم صرح لهم فى آيات كثيرة منه بأن بنى إسرائيل سيكونون فى مستقبل الزمان حكام الأمم ، ومرشدى الشعوب القوية إلى الحق ، وأن الحرب ستبطل بين الشر ، وسينبث فيهم روح جديد من وجوب التآخى والتعاون وحسن الزمالة ، فيكون لهم دين واحد ، وإله واحد تحت زعامة بنى إسرائيل . ولكن لما كان عدد اليهود فى بلاد العرب لا يكفى لمكافحة الدين الناشىء فى بلاد العرب ، الذى يؤكد أنه المعنى بهذه البشارات ، نشطوا لتأليب الجاهليين عليه ، ومنوهم بالعون والتأييد ، وقاموا لهم بما تعهدوا به ، كما فعل بنو النضير وبنو قريظة ، وقد مر ذكرهم فيما سبق .

وكان يهود خيبر الذين نحن بصددهم أشد من جميع إخوانهم تهييجا على الإسلام ، فصمد إليهم [1] النبى ﷺ فى السنة السابعة من الهجرة . وخيبر تبعد عن المدينة نحو مائة وخمسين كيلو مترا إلى الشمال الغربى منها . وكان بنو إسرائيل اتخذوا فيها ثلاث مجموعات من الحصون ، وهى : حصون النَّطَاة ، وحصون الكَتِيبَة ، وحصون الشقّ ؛ المجموعة الأولى مؤلفة من ثلاث حصون ، والثانية من اثنين ، والثالثة من ثلاثة .

---

(١) صمده وصمد له وصمد إليه ، قصده ، ويظن قراء الصحف اليوم أن الصمود يعنى المقاومة وهو خطأ .

فلما كان المحرم من السنة السابعة للهجرة أمر النبى ﷺ بالصمود إلى يهود خيبر ، واستنفر ممن حوله من الأعراب ، الذين كانوا معه بالحديبية ؛ ولما اكتمل عدد الجيش ولى على المدينة أحد أصحابه ، وخرج قاصدا خيبر ؛ ولما وصل إليها ، رفع جنوده أصواتهم بالتكبير والدعاء ، فنهاهم ﷺ عن الصياح قائلا لهم : « ارفقوا بأنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم » .

هنا يجب أن ننبه أن من مميزات الإسلام أنه دين آداب عالية ، ووقار ومدنية ، مرماه إصلاح القلب وتطهير الباطن ، بعيدا عن الحماسة التظاهرية ، والتقاليد العامية ، حتى فى المواطن التى قد يسمح كبار القواد لجنودهم بشىء من الخروج عن النظام ، تشجيعا لهم على خوض غمرات المعارك الطاحنة . وهى مميزات لو قوبلت بما يفعله بعض المسلمين اليوم من التحلق للذكر وقوقا ، وعلى قارعات الطرق ، ومن سير مواكب دينية تحت الأعلام ، فى حالة تصايح وتجاوب بالأناشيد ، لأخذ الإنسان العجب من هذا الانحراف الذى ذهب بأصحابه إلى الضد من الآداب الإسلامية العالية .

نعود إلى متابعة السيرة فنقول : بدأ المسلمون بمحاصرة المجموعة الأولى من حصون خيبر وتسمى (النطاة) ، فعسكروا بعيدا عن مرمى النبل ، وأمر النبى ﷺ بقطع نخيلهم ليحملهم على التسليم ، فأتموا قطع أربعمائة نخلة ، ولما لم يحملهم ذلك على الخضوع وآثروا الدفاع ، منع رسول الله القطع ، وأمر بالحملة على الحصن الأول ، فبدأوها بالناضلة بالسهام ، ولبثوا على ذلك سبعة أيام لم ينالوا من عدوهم شيئا ، حتى كان ليل اليوم السابع ، فظفر حارس الجيش عمر بن الخطاب بيهودى خرج من الحصن متسلّلاً ، فأتى به إلى النبى ﷺ وقد تملكه الرعب ، فقال الأسير لمن حوله : إن أمنتمونى دللتكم على ما فيه نجاحكم . فأمنوه على نفسه . فقال : « إن أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب ، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصون الشق (وهى المجموعة الثالثة) ، وسيخرجون لقتالكم غدا ، فإذا فتح عليكم

هذا الحصن غدا ، فإنى أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات [١] ، ودروع وسيوف ، يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون ، فإنكم تنصبون المنجنيق ، ويدخل الرجال تحت الدبابات فينقبون الحصن ، فتفتحه من يومك » .

فلما كان الغد أعطى النبى ﷺ الراية لعلى بن أبى طالب وأمره أن يقاتل الإسرائيليين ، فتوجه من فوره للقائهم ، ولما تراءى الفريقان ، بدأ القتال على عادتهم بالمبارزة الفردية ، فخرج من اليهود ثلاثة رجال متعاقبين ، فقتل على منهم اثنين ، وقتل الزبير بن العوام الثالث ، ثم حمل المسلمون على خصومهم حملة صادقة فأزاحوهم عن مواقعهم ، ثم تبعوهم حتى لجأوا إلى الحصن الثانى من مجموعة الحصون الأولى وكان اسمه (الصعب) ، ودخل المسلمون الحصن الأول فغنموا منه مقادير كبيرة من الخبز والتمر . ثم تابعوا مقاتلتهم فى الحصن الذى لجأوا إليه . فنافح عنه الإسرائيليون مستبسلين ، فارتد عنه المسلمون ، إلا الحباب بن المنذر وفرقة معه ، قاتلوا قتالا شديدا حتى هزموا أعداءهم واقتحموا عليهم الحصن ، فوجدوا فيه مقادير وافرة من الطعام وعلف الدواب . فاضطر اليهود إلى اللجوء إلى الحصن الثالث واسمه حصن قلة ، وتبعهم المسلمون إليه ، فاستصعب عليهم فحاصروه ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع دلهم يهودى على الجداول التى توصل الماء إلى ذلك الحصن ، فقطعوها عليهم ، فاضطروا للخروج والمكافحة دونها ، فلم يقووا على رد المسلمين ، وانهزموا إلى المجموعة الثالثة من الحصون وتدعى حصون الشق ، فتبعهم المسلمون إليها ، وقاتلوهم على أولها ، فخرج أهله وقاتلوا قتالا شديدا ، ولكن أبا دجانة الأنصارى تمكن وفرقة معه من اقتحام الحصن ، فوجد فيه المسلمون أثاثا كثيرا ومتاعا وغنما وطعاما ، وهرب المنهزمون منه إلى الحصن الذى يليه من تلك المجموعة فامتنعوا فيه ، وكان أهله أشد قومهم مناضلة بالسهام ، ورجما بالحجارة ، حتى أن رسول الله ﷺ أصابه بعض ذلك .

---

(١) هى آلة كان المقاتلون القدماء يتخذونها لنقب أسوار المدن والحصون المنيعة ، وهى عربة مغطاة يدخل فى جوفها الرجال ، ثم تدفع إلى جدران الحصون فيعملون على نقبها آمنين .

فاضطر المسلمون عند ذلك إلى نصب المنجنيق الذى غنموه من اليهود ، فوقع فى قلوب مقاتلتهم الرعب ، وهربوا منه من غير كبير عناء .

ثم تتبع المسلمون خصومهم إلى المجموعة الثالثة من الحصون ، وتدعى حصون الكتيبة ، وبدأوا بأولها فحاصروه عشرين ليلة ، ثم افتتحوه ، ومنه سبيت صفية بنت حيى بن أخطب ، سيد بنى النضير من القبائل اليهودية ، تم سار المسلمون لحصار الحصنين الباقيين من تلك المجموعة ، فلم يقاوم أهلهما ، وسلموا طالبين حقن دمائهم ، والخروج من أرضهم بأهلهم وأولادهم ، غير آخذين من أمتعتهم إلا ثوبا على أجسادهم ؛ وغنم المسلمون من هذا الحصن أربعمائة سيف ، ومائة درع ، وألف رمح ، وخمسمائة قوس . وعثر المسلمون على حلى لحيى بن أخطب فيها أساور ودمالج وخلاخيل وأقرطة وخواتيم من الذهب ، وعقود من الأحجار الكريمة . فأمر النبى ﷺ بقتل كنانة بن أبى الحقيق لإنكاره وجود هده الحلى . ووجدت صحف من التوراة فسلمت لأصحابها .

ولما عاد المسلمون من هذه العزوة إلى المدينة ، قدم من الحبشة المهاجرون الذين بقوا فى الحبشة تحت قيادة جعفر بن أبى طالب ، وكان فيهم أبو موسى الأشعرى وجماعة من قومه ، بعد أن أقاموا فى بلاد الحبشة عشر سنين .

الاستيلاء على فَدَك وصلح تَيْماء :

بعد رجوع النبى ﷺ المدينة أرسل رسولا يطلب من يهود فَدَك الانقياد والطاعة . وفدك هذا حصن قريب من خيبر على بعد ست ليال من المدينة ، فصالحوه على أن يحقن دماءهم وأن يتجردوا هم من أموالهم .

ولما نمى إلى يهود تيماء ، وهى قرية على ثمان مراحل من المدينة ، ما حل بيهود خيبر ، صالحوا النبى ﷺ على دفع الجزية ، ومكثوا فى بلادهم لم يزعجهم فيها أحد .

فتح وادى القرى :

بعد أن تمت للنبى ﷺ كل هذه الفتوح ، أرسل إلى يهود وادى القرى يطلب إليهم الانقياد والطاعة ، فأبوا القتال ، فقاتلهم المسلمون ، وهزموهم ، وحصلوا منهم على مغانم كثيرة ، وترك رسول الله الأرض فى أيدى أهلها ليزرعوها على شطر مما يخرج منها .

أربع سرايا :

فى هذه السنة وهى السابعة من الهجرة ، بلغ النبى ﷺ أن رجالا من بنى هوازن يتصدون للمسلمين ، فأرسل إليهم ثلاثين رجلا تحت قيادة عمر بن الخطاب ، فلما علم المشركون بذلك لاذوا الفرار .

ثم أرسل فصيلة من الجنود تحت قيادة بشير بن سعد الأنصارى لقتال بنى مرة بجوار فدك ، فلما وصلوا إلى محلتهم لم يجدوا أحدا فاستاقوا ماشيتهم ، وبلغ القوم ما حدث ، وكانوا فى الوادى فتعقبوا هذه الفصيلة حتى أدركوها ليلا وهى راجعة إلى مكة بما غنمت ، فتراموا بالنبل ، ولما تنفس الصباح اقتتل الفريقان قتالا مرا حتى قتل أكثر رجال الفصيلة ، وجرح قائدهم بشير بن سعد جرحا بليغا ، فتحامل حتى أتى إلى رسول الله فأخبره بما تم .

وأرسل رسول الله فصيلة من الجند إلى أهل الميفعة وهى بناحية نجد ، تحت قيادة غالب بن عبيد الله الليثى ، فقاتلوا القوم قتالا شديدا .

وفى هذه الوقعة تصدى أسامة بن زيد لرجل من المشركين فلما تمكن منه ، وأدرك الرجل أنه هالك لا محالة ، لجأ إلى ما ظنه أنه يدرأ عنه السيف ، وهو أن يقول لا إله إلا الله ، فأدرك أسامة أن الرجل لم يقل ذلك إلا تخلصا من القتل ، فلم يعبأ بما قال وقتله .

فلما رجعت هذه الفصيلة إلى المدينة ، وأخبر رجالها رسول الله بما حدث

من أسامة بن زيد ، استقدمه إليه وقال له : أتقتله بعد أن قال لا إله إلا الله ، فكيف بلا إله إلا الله ؟

قال أسامة : يا رسول الله إنما قالها متعوذا من القتل .

فقال له ﷺ : فهلّا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

قال أسامة : يا رسول الله استغفر لى .

قال عليه السلام : فكيف بلا إله إلا الله ، وما زال يكررها حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم ، ونزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

ثم أمر رسول الله أسامة أن يعتق رقبة ، كفارة لما فعل .

هنا لا نستطيع أن ندع هذا الحادث الصغير فى ذاته ، الجليل فى مؤداه وأثره ، بدون تعليق ، لأنه يدل على الروح السلمية التى كانت تتولى المسلمين فى مجاهدتهم للمشركين . وهو يدل دلالة قاطعة على أن الجهاد فى الإسلام لم يشرع تحت إملاء عاطفة وحشية ، كالتى تتسلط على طلاب المغانم بواسطة الغارات ، ولا على محبى التبسط فى الملك دون مراعاة مبدأ إنسانى يراد من ورائه إحداث إصلاح عام للبشر . بل شرع تحت سلطان روح علوية مصاحبة لشعور سام بالحقوق الطبيعية لكل فرد من بنى الإنسان ، ولكل جماعة من جماعاته ، ولولا أن الانتقالات الأدبية والاجتماعية لا تتم إلا على هذا النحو من التدافع والتناحر ، وفقا للسنة الطبيعية التى تشاهد فى جميع أدوار التاريخ ، وفى كل عهود التطورات الإنسانية ، لسبق الإسلام كل داع للسلام فى الأرض . ناهيك أنه احتاط لعهد استقرار السلام العام حين يتقرر بين الأمم ، بمبدأ لا يجوز أن يغفله المتكلمون فى هذه الناحية من الشئون الاجتماعية ، ألا وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ (٢) ،

---

(١) سورة النساء ، من الآية (٩٤) .

(٢) سورة الأنفال ، من الآية (٦١) .

وبناء على هذا الأساس ، فإن الدعوة العامة التى ستتلو هذه الحرب العالمية المستعرة ، سيكون الغرض منها إبطال الحرب ، عند ذاك يجد المسلمون أنفسهم فى بحبوحة من الأمر ، بل يجدون ما يفخرون به أمام الأمم ، حين يفضون إليهم بأن دينهم قد توقع حدوث هذه الدعوة قبل وقوعها بنحو أربعة عشر قرنا . وفى هذا أكبر داحض لادعاءات خصوم الإسلام بأنه دين تناحر وعدوان ، لا دين أخوة وسلام .

نعود إلى سرد الحوادث التاريخية فنقول :

وبلغ النبى ﷺ أن طاغية من طواغى الجاهلية يدعى عُيَيْنة بن حصن ، تمالأ مع جماعة من بنى غطفان كانوا يقيمون قريبا من أرض خيبر ، للإغارة على المدينة ، فأرسل إليهم فصيلة عسكرية مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل تحت قيادة بشير بن سعد الأنصارى ، فلما وصلوا إلى محلتهم استاقوا ماشيتهم ، ولما بلغ الغطفانيين الخبر لحقوا بعليا بلادهم إلا اثنين منهما سلما ، وعاد المسلمون بغنائمهم إلى المدينة (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الثالث ، ربيع الأول سنة ١٣٦٢ هـ .

عمرة القضاء وخمس سرايا
وغزوة مؤتة

يذكر قارئو هذه السيرة أن النبى ﷺ قصد فى السنة السادسة من الهجرة إلى مكة على رأس ألف وخمسمائه من أصحابه قاصدين العمرة ، وهى الطواف بالبيت ، وكانت فى غير وقت الحج ، فمنعته قريش من الدخول وآثرت أن تدخل معه فى حرب على أن تسمح له بغِشيان مدينتها وهى فيها . ولما لم يكن قصد النبى أن يخرج للحرب ، ولم يأخذ لها عدتها ، رأى أن يفاوض قريشا فى الأمر ، فترددت بينها وبينه السفارات ، حتى استقر الرأى على أن يرجع النبى ﷺ وصحبه عامهم ذلك ، ويعودوا فيما يليه ويدخلوا مكة معتمرين ؛ ويذكر قراؤنا أننا قلنا إن هذا الاتفاق لم يرض أحدا من المسلمين ، وقبلوه طاعة للرسول إلا أبا بكر ، وقلنا إنه كان من أثره أن دخل فى الإسلام رجالات من قريش بدون قتال ، كان فى مثولهم فى حظيرته قوة له ، وعلو لكلمته ، لأن فى الدخول فيه طواعية ، وخاصة من آحاد يعتبرون قادة للجاهليين ، معنى أرقى من دخولهم فيه كرها ، وهذه الحكمة تجلت للصحابة ، فاعتبروا صلح الحديبية الذى كانوا أنفوا منه ، أحفل صلح بالنتائج العظيمة ، والثمرات الطيبة .

لما حال الحول على ذلك الصلح ، خرج النبى ﷺ ومن كانوا معه فى العام السابق ، قاصدين مكة لقضاء العمرة التى صُدّوا عنها عام أول ، واستخلف على المدينة أباذَرٍّ الغِفَارِىّ . ولكنهم فى هذه الدفعة أخذوا أهبتهم للحرب خشية أن يبدو من قريش إخلاف للعهد . وكان عدد خيالته مائة تحت قيادة بشير بن سعد . وبدأ ﷺ بالإحرام للعمرة من باب مسجده بالمدينة .

ولما انتهى إلى موضع ذى الحليفة قدم الخيالة أمامه . فقيل له يا رسول الله تحمل السلاح وقد شرطوا عليك أن لا تحمله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « لا ندخل الحرم به ، ولكن يكون قريبا منه ، فإن هاجنا هائج فزعنا له » .

فلما وصل إلى مكان يدعى مَرَّ الظَّهْران ، قابله رجال من قريش ، ففزعوا

مما رأوا من استعداد المسلمين للقتال ، وأسرعوا إلى قومهم فأخبروهم بما رأوا ، وجاءه نفر منهم وسألوه عما يقصده من هذه المظاهر الحربية ، فأجابهم بقوله : « إننا لا ندخل الحرم بالسلاح » .

ولما حان وقت دخول مكة ، خرج منها أهلوها ، كراهة منهم أن يروا المسلمين يطوفون بالبيت ، فدخل النبى ﷺ وصحبه متوشحين بسيوفهم من ناحية يقال لها ثنيّة كداء ، أمامه عبد الله بن رواحة وهو يقول : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ؛ وطاف رسول الله بالبيت ، واستلم الحجر الأسود بمِحجنه (المحجن هى العصا المنعطفة الرأس) وأمر أصحابه أن يطوفوا ثلاثة أشواط مسرعين ، إظهارا للقوة ، لأنه بلغه أن المشركين قالوا : سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حمى يثرب ، أى المدينة ، فقال ﷺ : رحم الله امرءاً أراهم من نفسه قوة . واضطبع بردائه (أى أدخل رداءه تحت إبطه الأيمن وغطى به الأيسر) وكشف عضده اليمنى ، شأن أهل الفتوة ، وفعل مثله المسلمون .

هذه هى عمرة القضاء ، وإنما سميت بهذا الاسم لأنها لم تعمل فى وقتها حين أرادوها فى العام الماضى ، فصارت قضاء .

* * *

وفى صفر من هذه السنة ، وهى الثامنة من الهجرة ، أرسل النبى ﷺ غالب ابن عبد الله الليثى إلى بنى الملوح ، وهم يسكنون بالكَدِيد ، وهو بين عسفان وقُدَيْد من بلاد العرب بقرب المدينة ، فسارت هذه الفصيلة من الجند حتى إذا كانت بقديد التقت بالحارث بن مالك الليثى المعروف بابن البرصاء ، وكان من أشد خصوم الإسلام والمسلمين ، فأسروه . فقال لهم : إنى ما جئت إلا لأدخل فى الإسلام . فقالوا له : إن جئت لهذا القصد فلا يضرك وثاق ليلة . ثم صاروا حتى وصلوا إلى محلة بنى الملوّح فاستاقوا الغنم والشاء ، وانطلق صريخهم مسرعا وأخبر القوم بما حدث . فأقبل عليهم من رحالهم عدد لا قبل للمسلمين بدفعه ، وكادوا يلحقون بهم ويقاتلونهم ، لولا أن اتفق حدوث سيل شديد حال بينهم وبين أعدائهم ، واستمر

المسلمون يستاقون غنيمتهم ، وأصحابها ينظرون إليهم ، ولا يستطيعون أن يصلوا إليهم ليستردوها منهم .

ولما عاد غالب بن عبد الله الليثى إلى المدينة ومعه الغنيمة ، أرسله رسول الله ليقتص من بنى مرّة بفدك ، وهم الذين اجتاحوا سرية بشير بن سعد التى ألممنا بذكرها هنا . فانطلق على رأس مائتى رجل حتى إذا كان قريبا من القوم الذين صمد لهم (أى قصد إليهم) ، جمع جنوده وخطبهم قائلا بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له ، وأن تطيعونى ولا تخالفوا لى أمرا ، فإنه لا رأى لمن لا يطاع » ، ثم آخى بين كل اثنين من جنوده ، وأمر كل متآخيين أن لا يفارق زميله ، وحذرهم أن يرجع الواحد منهما فإذا سئل أين صاحبه قال لا أدرى ، ثم أمرهم إذا كبر أن يكبروا بعده .

هذا أسلوب جديد فى الحرب لم يؤثر عن غير غالب بن عبد الله ، وهو إجراء لا شك فى أنه رآه أفعل فى تماسك أصحابه فى تلك الحالة التى وجد فيها ، وكثيرا ما يروى عن القواد المحنكين ابتكارات تمليها الحاجة الوقتية ، وتعود بأجزل الفوائد على الآخذين بها ، وخاصة إذا كانوا فى حالات يكون المقاتلون فيها بحاجة إلى وسائل جديدة .

ثم أخذ غالب يفرق جنوده ويعين لهم مواقف بحيث يصيرون محيطين بعدوهم ، حتى لا يفلت منهم أحد .

لما تمت هذه الاستراتيجية أى التعبئة ، رفع غالب صوته بالتكبير ، وكبر بعده جنوده وجردوا سيوفهم وحملوا جميعا على أعدائهم فى وقت واحد فأتوا عليهم ، لم يفلت منهم أحد ، واستاقوا ماشيتهم كلها .

* * *

وفى ربيع الأول أرسل النبى ﷺ كعب بن عمير الغفارى إلى ذات أطْلاح من أرض الشام فى خمسة عشر رجلا ، فوجدوا جمعا كثيرا ، فدعوهم إلى الإسلام فأبوا ، وهجموا على المسلمين وهم فى قلة لا تغنى عن نفسها شيئا ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعا شديدا حتى بادوا على بكرة أبيهم ، إلا رئيسهم كعب بن عمير ،

تمكن من العودة سليما وأخبر رسول الله بما حدث ، فهمّ أن يبعث إليهم بمن يقتص منهم ، فترامى إليه أن القوم تحولوا عن محلتهم ، فعدل عن ذلك .

غزوة مؤتة :

لما أرسل النبى ﷺ فى السنة السادسة من الهجرة رسلا من عنده إلى الملوك بكتب يدعوهم فيها إلى الإسلام ، كان منهم الحارث بن عمير الأزدى أرسله إلى أمير بُصْرى ، فلما بلغ مُؤْتة ، وهى قرية تابعة للبلقاء بالشام ، تعرض له شُرَحْبيل ابن عمرو الغسّانى ، فسأله أين يريد ؟ فأجابه الحارث : الشام . قال : لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم . فأمر به فضربت عنقه . فلما بلغ رسول الله ما حدث ، أسف من ذلك أسفا شديدا ، فلما كانت السنة الثامنة من الهجرة جهز جيشا للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير هذا . وسلم قيادته إلى زيد بن حارثة ، وقال لهم إن أصيب زيد فاجعلوا بدله جعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب هو أيضا ، فأمّروا عليكم مكانه عبد الله بن رواحة . وكان عدد هذا الجيش ثلاثة آلاف رجل . فلما ساروا شيعهم النبى ﷺ وأوصاهم ، وكان مما قاله لهم : « اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ، ولا بصيرا فانيا ، ولا تقطعوا شجرا ، ولا تهدموا بناء » .

بعد أن تلقى أصحابه هذه التوصيات لم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى مؤتة ، وهى قرية قريبة من الكرك من مشارف الشام ، وهى الجهة التى قتل فيها الحارث ابن عمير مندوب رسول الله ﷺ ، وكان الرومان قد بلغهم خبر قدومهم فأعدوا لهم جيشا لجبا مؤلفا من مقاتلتهم المختارين ، تؤيدهم جماعة من العرب الذين دخلوا فى النصرانية لمجاورتهم لأهلها . فلما رأى المسلمون كثرة عدد أعدائهم أخذوا يتفاوضون فيما يفعلون ، أيقدمون على الحرب ، أم يتريثون ريثما يصلهم مدد من النبى ﷺ ؟ فاستقر رأيهم على مناجزة عدوهم ، فقاتلوهم قتالا شديدا ، حتى قتل قائدهم زيد بن حارثة ، فقام مقامه بناء على إشارة رسول الله جعفر بن أبى طالب ، واستمر جيش المسلمين يقاتل حتى قتل قائده المذكور ، فخلفه على القيادة عبد الله ابن رواحة ، فتقدم الصفوف ولم يزل يقاتل حتى قتل . واشتد الكرب على

المسلمين ، وحمى وطيس الكفاح ، وظهر التضعضع فى صفوفهم ، وهمت طائفة بالتقهقر ، فقال لهم عقبة بن عامر : « يا قوم يقتل الإنسان مقبلا خير من أن يقتل مدبرا » فأقبلوا مستبسلين ، ورأوا أن يؤمروا عليهم خالد بن الوليد وهو أشهر قواد العرب جاهلية وإسلاما، وكان لم يمض على إسلامه إلا سنة وبضعة أشهر ، وكان هذا الجيش فى حاجة إلى قائد خبر مآزم الحرب ، وتورط فى غمراتها ، لا لإحراز النصر على أعدائه فى تلك الملحمة التى لا تناسب فيها بين الخصمين من الناحية العددية ، ولكن لتخليص جيشه من التهلكة التى يتعرض لها ، وليس يخفى أن حماية الجيوش من المهالك التى تتعرض لها ، لا تقل استدعاء للحنكة الحربية ، والمهارة الفنية ، من إبلاغها إلى ذروة النصر ، بل ربما كانت الأولى أكثر استحقاقا لإطراء القائد الذى تتم على يده تلك الحماية ، من خصمه الذى انتصر عليه ، إذا كانت النسبة العددية بين الجيشين كبيرة ، وكان الجيش القليل عدده بعيدا عن مراكز تموينه ومصادر مدده . وأين حدود الشام من المدينة ، وماذا يغنى ثلاثة آلاف عن أنفسهم حيال أمة رمتهم بمائة وخمسين ألفا من جنودها المحنكين ، فضلا عن ألوف أخرى من العرب المتنصرة ؟ وماذا تكون الحالة المعنوية لجيش فقد ثلاثة قواده الواحد تلو الآخر ، ووجد نفسه بغير قائد يدبره ؟ لا جرم أن التصدى لتخليص هذا الجيش من التهلكة يعتبر من الأعمال التى تخلد لصاحبها فى تاريخ الحروب ذكرا .

تولى خالد بن الوليد قيادة هذا الجيش ، وجعل همه أن يدبر أمر قهقرته بأقل خسارة ممكنة ، أى بانتظام ، كما يقال فى العرف الحربى ، فقاتل يوم توليه قتالا عنيفا ، وفى غده جعل ساقته مقدمة وميمنته ميسرة ، إيهاما للرومان بأنه قد تلقى مددا ، وفى الوقت نفسه بنى أمره على التقهقر بانتظام ، واللجأ إلى ما يسمى فى العرف الحربى الراهن بحرب المؤخرة ، وما زال يقاتل وهو يتقهقر حتى انحاز إلى مؤتة ، وهى فى موقع يمكنه من الثبات قليلا ، وظل فيه سبعة أيام ، فلم ير الرومان أن يتبعوه إلى أبعد من هذا الموقع خشية أن يطول خط تموينهم ، فاكتفوا بدفعه إلى ذلك الحد ، وتركوه وشأنه ، وعادوا إلى بلادهم .

ولما عاد الجيش قابل الناس جنوده لائمين لهم ومرددين قولهم : يا فُرَّار . فقال النبى ﷺ : بل هم الكُرَّار وأفهمهم ما فعله خالد من مكايد الحرب ، وأثنى عليه

وأشاد بمهارته ، وحسن قيادته .

* * *

وفى شهر جمادى الآخرة بلغ النبى ﷺ أن رجالا من بنى قضاعة يتجمعون فى ديارهم وراء وادى القرى ليغيروا على المدينة ، فأرسل إليهم كتيبة من الجند مؤلفة من ثلاثمائة رجل من الأنصاروأمّر عليهم عمرو بن العاص ، ثم أمده بمائتين من المهاجرين فيهم أبو بكر وعُمَر ، فلحقوا عَمْراً قبل أن يصلوا إلى القوم .

لما وصلت هذه السرية إلى محلة القوم حملوا عليهم حملة صادقة ، فلم يمض غير قليل حتى ولى أعْداؤهم منهزمين ، فاستاقوا ماشيتهم .

وفى رجب من هذه السنة كلف أبا عبيدة بن الجراح بغزو بنى جهينة التى تنزل ساحل البحر ، وجعل معه ثلاثمائة فارس . فلما وصلت هذه الكتيبة إلى محلة القوم وجدتهم غائبين عنها ، فمكثوا ينتظرون عودتهم نحو نصف شهر حتى نفد زادهم ، فاضطروا إلى التغذى بورق السَّمُر وهو ضرب من العِضاة ، والعضاة كل شجر يكبر وله شوك ، فاشترى لهم قيس بن سعد بن عبادة ثلاث جُزُر [1] أى إبل حصل عليها بدين على أبيه ، وأطعم رفاقه ، ثم أراد أن يزيد ، فنهاه أبو عبيدة خشية أن لا يفى له أبوه بما استدان . و لم ير فى زيادة المكث فائدة ، فعاد إلى المدينة .

* * *

لعل بعض الناظرين فى السيرة المحمدية يلاحظون أنه كما فيها شئون لا يمكن تعليها إلا بافتراض وجود تأييد إلهى عظيم لأحداث حصولها مناقضة للسنن الاجتماعية والنفسية المعروفة ، فيها شئون أخرى يبدو عليها طاقة القدرة الإنسانية ، ويجرى عليها ما يجرى على سائر الشئون البشرية من النجح أحيانا ، ومن القصور والضعف والخيبة أحيانا أخرى ، كما حدث لسرية بشير بن سعد الأنصارى التى قتل فيها أكثر جنودها ، وسرية كعب بن عمير الغفارى التى قتل جميع آحادها إلا قائدهم ، وغزوة مؤتة

---

(١) الجَزور الجمل يطلق على الذكر والأنثى جمعه جُزُر .

التى قتل فيها ثلاثة قواد وكان قصارى رابعهم أن عاد بمن بقى من الجيش دون أن يجنى أية فائدة ، وسرية أبى عبيدة عامر بن الجراح التى جاع فيها الجنود واضطروا لأكل ورق الشجر حتى تقرحت أشداقهم ، ولم يجدوا القوم الذين ذهبوا لقتالهم .

يلاحظ بعض الناظرين كل هذا ويقولون : أليس لو كان محمد نبيا لكان أُوحى إليه ما سيصيب أصحابه من هذه المحن فلا يعرضهم لها ، حتى لا تحدث اضطرابا فى جماعته ، أو شكا فى نبوته ؟ ونحن لدحض هذه الشبهة نقول :

أراد الله سبحانه أن يجعل للعالم كافة مثلا أعلى للدين ، فأُوحى الإسلام ، وأراد أن يقيم له أمة تدين به وتنتدب لنشره ، فقضى أن تكون تلك الأمة ذات كيان عالمى لا تقوم على الجنسية ، والضرورات المادية ، على مثال سائر الأمم ، ولكن تتألف حول المبادئ الخلقية ، والأصول الحكمية ، فكانت هى الأمة الإسلامية . فأما الدين فقد تولى الله وحيه جملة وتفصيلا ، وأما الأمة فلا يمكن أن تجعل كل حركاتها وسكناتها صادرة عن الوحى ، لأن الوحى متى انقطع بوفاة النبى المرسل ، تجد الأمة نفسها قاصرة عن الاستقلال بنفسها ، لأنها لم تعتمد على قواها الذاتية قط ، ولم تكتسب بمجالدة الحوادث ، والوقوع فى المآزم ، ما يربى فى نفسها عناصر الرشد ، ويستكمل لها ميزات النضج ، لذلك ألقى الله حبلها على غاربها لتفتح لنفسها ، بمحض جهودها الذاتية ، وقواها المعنوية ، مكانا تحت الشمس .

ومن أصول علم التربية أن الطفل لكى يستكمل صفات الرجولة ، ويشب صالحا لمكافحة حوادث الحياة وجوائحها ، يجب أن لا يحاط ، بعد أن يشب ويترعرع ، بكثير من العناية ، خشية أن يصاب بجرح فى يده ، أو بشجة فى رأسه ، أو بكدمة فى جسمه ، ولكن يجب أن يعرض لذلك فى حد محدود ليتعود تحمل الآلام ، ومكابدة العوائق .

فكل ما تصادفه فى الناحية الاجتماعية من السيرة المحمدية أحيانا من الفشل فى المحاولات ، والخطأ فى التقدير ، والتعرض للهزائم ، يجب رده إلى الأصل الذى ذكرناه ، وهو لا يصح أن يكون مثار شبهة على النبوة ، ولا مصدر شك فى الرسالة ؛ ولو كان يصح لتأثر به قبل غيرهم أولئك الذين ابتُلوا به ، وكيف يتأثرون به ،

وقد أُخبروا به قبل أن يصيبهم ، قال الله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (أى لا يمتحنون) ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

فالذين دخلوا فى الإسلام فى أول عهده ، قبلوه على أنه دين تمحيص وابتلاء ، لإبلاغ إنسانيتهم إلى أوجها الأعلى من الكمال ، بتعريضهم لعوامل التطهير والاستصفاء ، وقد وفوا بعهدهم ، فاستحقوا أن يكونوا فى الرعيل الأول من خدام الإنسانية ، وكوفئوا بأن مكّن الله لهم ما لم يمكنه لغيرهم فى الأرض (*) .

★ ★ ★

(١) سورة العنكبوت ، الآيتان (٢ ، ٣) .
(٢) سورة البقرة ، الآيات (١٥٥ — ١٥٧) .
(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الرابع ، شهر ربيع الثانى سنة ١٣٦٢ هـ .

فتـــح مــكة

قصد إليها رسول الله على رأس عشرة آلاف مقاتل
وكانت مقاومة المشركين عنها أشبه بالتسليم

كان يخيل لقارئ السيرة المحمدية أنه سيقرأ فى هذا الفصل أخبار صراع بين الإسلام والوثنية يشيب لهولها الولدان ، ناهيك أنها بيئة قريش التى تولت زعامة المقاومة للإسلام من يوم ظهوره ، وأن فى احتلال المسلمين لها ضياعا لجميع امتيازاتها التاريخية فى سدانة البيت ، وما يتصل بها من المهام الدينية ، فيدهش القارئ حين يرى أن فتح مكة لم يكلف المسلمين أكثر من قتيلين ، ولم يبذل الجاهليون فى سبيل الدفاع عنها أكثر من دماء ثمانية وعشرين رجلا ، وليسوا من قريش ، بل من بنى الحارث وبنى بكر وبنى هذيل كانت استنصرت قريش بهم !

هذه ظاهرة لا يدهش منها إلا الذين ليس لهم نصيب من العلم بتحليل الحوادث الاجتماعية ، ومعرفة العوامل التى توجد المناعة فيها ، والتى تهيئها للانحلال والخذلان . ونحن نسرد للقارئين جملة هذه العوامل ، ليتبينوا أن ما حدث كان منتظرا ، وأن أكبر قوة فى الأرض ما كانت لتحمى قريشا من المصير الذى آلت إليه :

(أولها) ضعف العاطفة الدينية عند العرب ، فإنهم ما كانوا فى عهد من عهودهم على شىء كبير منها . ناهيك أنه لم يكن لهم كتاب يقدسونه كما لجميع أهل الملل ، ولم يكن لهم حفَظة للدين ، فلذلك كانت وثنيتهم مزيجا غير متجانس من أوهام ساذجة ، وكان لكل قبيلة أصنام خاصة لا يمت بعضها إلى بعض بصلة ، كأصنام المصريين واليونانيين والرومانيين القدماء ؛ والشىء الوحيد الذى كان يجمع بينهم هو حج البيت ، وكان لا يهمهم أمره إلى حد الدفاع عنه ، بدليل أن أبرهة عندما اعتزم هدم الكعبة ، اخترق بجنوده بلاد العرب حتى وصل إلى مكة ، وما كان من أهلها إلا أن تركوها شاغرة واعتصموا بالجبال ، هربا من بطشه ، والذى يترك البيت لأجنبى يهدمه ، يهون عليه أن يتركه لعربى يحفظه ويعظمه .

(ثانيا) تفكك الرابطة الاجتماعية . وأنَّى لهم ذلك وهم قبائل متفرقة ،

وفى حالة تنازع وتناحر دائمين ؛ فالقبيلة إن اجتمعت كلمتها للدفاع ، فلا يكون ذلك إلا ذيادا عن الأرض التى تمدها بالقوت ، ولم يكن معوّل قبائل العرب على الزراعة لقحولة أرضهم ، فإذا استطاعوا إجلاء ماشيتهم التى عليها مدار معيشتهم ، هانت عليهم محلتهم ، وانتقلوا إلى محلة أخرى من بلادهم .

(ثالثا) إثخان النبى ﷺ فى القبائل اليهودية ، كبنى قريظة والنضير وأهل خيبر ، وإجلاؤها عن أرضها ، وإدحال من بقى منها فى طاعته ، وقد كان رجالانها يرحلون إلى مكة ويحرضون قريشا على قتال النبى ﷺ ، ويطوفون على أحياء القبائل فيجمعون كلمتها على حرب المسلمين ، فلما بطل كل ذلك بطلت العوامل المحركة لقريش على المقاومة ، فلانت شكيمتها صاغرة .

(رابعا) إسلام كبار قادة الحرب فيها كخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وأبى سفيان بن حرب ، وكان دخولهم فى الإسلام طواعية من أشد المثبطات لها عن المقاومة .

وقد تبين أن صلح الحديبية ، وهو الصلح الذى عقد بين قريش ورسول الله ﷺ ، عقب منعه عن العمرة ، رغما عما ثار حوله من سخط الكثيرين عليه ، كان له أثر كبير فى تفهم كثير من عقلاء القرشيين للإسلام ، ومبادلتهم الرأى لأمثالهم الذين سبقوهم إليه ، فدخل منهم فيه عدد يذكر . وهذا الأمر كان له أثر كبير فى كسر شِرّة المحافظين على الوثنية .

(خامسها) ضخامة القوة التى صمد بها النبى ﷺ إلى قريش [1] . وهى عشرة آلاف مقاتل ، ولا تستطيع هى تجريد أكثر من خمس هذه القوة إذا استطاعت أن تستثير معها أحلافها من القبائل المجاورة .

والقول بأن قريشا كان يمكنها إهاجة قبائل من غير أحلافها ، مثل هوازن وغيرها ، بعيد عن التحقيق ، لأن هذه القبائل ما كانت لتتآزر لأغراض دينية ،

---

(١) صمد إليه معناه قصد إليه . وبعض الجرائد تستعمله بمعنى قاومه وهو خطأ .

ولو كانت تفعل ذلك لأمكن قريشا ، بمؤازرة خطباء بنى إسرائيل ، أن تسوق على المسلمين عشرات كثيرة من الألوف للقضاء على جماعتهم فى المدينة ، وهذا ما لم يحصل حتى بعد ما تجلى لتلك القبائل أن أمر المسلمين آخذ فى التضخم ، بما يدوخونه من القبائل التى حولهم .

نعم إن بنى هوازن جردت على المسلمين بعد فتح مكة ثلاثين ألفا من رجالها وهى من أكبر قبائل العرب ، ولكن لم يكن ذلك لإنقاذ الأصنام ، أو البيت الحرام من أيدى المسلمين ، ولكن لخشيتهم أن النبى ﷺ بعد ما استتب له الأمر فى مكة ، وامتد سلطانه إليها ، يعود فيحاول غزوهم فى ديارهم ، فأرادوا بما فعلوا أن يدفعوا هذا الخطر عنهم .

هذه هى العوامل التى قضت على قريش بأن تقبل إعطاء الدنِيَّة ، وأن تستسلم للمسلمين على الوجه الشائن ، وهو مصداق لقوله تعالى فى أول عهد الدعوة الإسلامية : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ، سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ (١) .

تاريخ هذا الفتح :

يعرف قراء هذه السيرة أنه لما اتفق النبى ﷺ وقريشا على أن لا يعتمر فى عامه الذى شخص فيه إلى مكة ، وأن يعود فيما يليه ، وسُمى هذا الاتفاق بصلح الحديبية ، وشُرط فيه أن لا يقاتل أحد الفريقين الآخر مدة أربع سنين ، وكان ذلك فى السنة السادسة من الهجرة ، حدث فى السنة الثامنة ما أوجب نقض هذه المعاهدة ، وإعلان الحرب على قريش .

ذلك أن بنى خزاعة التى كانت نازلة بجوار مكة ، كانت قد دخلت فى عهد النبى ﷺ ، ودخلت جارتها بنو بكر فى عهد قريش ، وكان بين هاتين القبيلتين ثارات بقيت متأججة فى صدريهما إلى ما بعد ظهور الإسلام .

---

(١) سورة القمر ، الآيات (٤٤ - ٤٦)

فلما وقع صلح الحديبية بين المسلمين وقريش ، وقف رجل من بنى بكر يهجو رسول الله على مسمع من رجل من بنى خزاعة ، فنهض هذا وضربه ، فهبّت بنو بكر للثأر من بنى خزاعة ، وأجمعوا أمرهم على حربهم ، وأعانهم بنو قريش سرًّا ، وأمدّوهم بالرجال والعتاد خفية ، وقتلوا من بنى خزاعة أكثر من عشرين رجلا . فما كان من أمر هذه القبيلة الأخيرة إلا أن أرسلت وفدا إلى النبى ﷺ تخبره بما حدث من بكر وقريش .

وأما قريش فإنها لما تحققت أن ما حدث يعتبر نقضا لمعاهدة الصلح ، أرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليجدد العقد ويزيد فى مدته . فقصد إلى مسجد النبى ﷺ وأدى إليه ما ندبته قريش له ، وهو لا يعلم أن وفد خزاعة سبقه وأخبر الرسول بما كان . فسأل ﷺ أبا سفيان : هل حدث شيء يقتضى حضوره ؟ فأجابه نفيا . فقال له رسول الله : إذن فنحن على مدتنا وصلحنا ، ولم يزد . فأدرك أبو سفيان أنه لم ينجح ، فقصد إلى رجالات المسلمين من قريش ، ورجاهم أن يتوسلوا له إلى رسول الله فى قضاء ما ندب له ، فلم يلبه منهم أحد ، فرجع إلى مكة .

أما رسول الله فإنه أمر بتعبئة الجيش ، واستنفر الأعراب النازلين حول المدينة ، ولم يخبر أحدا بما عزم عليه . ولكن أحد أصحابه واسمه حاطب بن أبى بلتعة كان له أقارب بمكة ، فأراد أن يتخذ عند قريش يدا ليدفع عنهم أذاهم ، فكتب إلى قريش يخبرهم بحركات النبى ﷺ ، وأرسل كتابه مع جارية ، فعثر عليها المسلمون فى روضة خاخ ، ووجدوا معها كتابا فأخذوه منها وأحضروه إلى النبى . ولما قُرِئ له وعَرف ما فيه ، استدعى كاتبه ، وكان ممن شهد بدرا ، وهى أشهر المواقف الإسلامية . فسأله رسول الله عن السبب الذى دعاه لما فعل ؟ فأجابه : بأنه لم يفعل ذلك كفرا ولا غدرا ، ولكن ليتخذ عند قريش صنيعة يحترمون بسببها أهله . فقال رسول الله : أما إنه قد صدقكم ، وعفا عنه .

ثم سار النبى ﷺ على رأس عشرة آلاف مقاتل فى منتصف رمضان ، فلما وصل إلى الأبواء لقيه رجلان كانا من أشد أعدائه ، هما ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وصهره عبد الله بن أبى أمية شقيق زوجته أم سلمة ، وكانا يريدان الإسلام ، ففرح النبى بهما وقبلهما . ثم ما لبث أن قابل عمه العباس وأهله قاصدين المدينة ، فدعاه ليصحبه إلى مكة ، وأمر بأهله فرُحلوا إلى المدينة .

ولما بلغ مرّ الظَّهْران ، وكان بلغ قريشا أن النبى ﷺ زاحف فى خميس عرمرم لا تُدرى وجهته ، أرسلت أبا سفيان بن حرب وبُدَيْل بن ورقاء وحكيم بن حزام يلتمسون لهم الخبر ، فلما بلغوا مرّ الظهران عثر بهم جنود من المسلمين فاقتادوهم إلى النبى ﷺ ، فلما رأى أبو سفيان كثرة عدد المسلمين ، وعظيم تأهبهم ، لان قلبه للإسلام فأسلم .

ولما شارفِ المسلمون مكة ، جعل النبى ﷺ جيشه قسمين ، ولى أحدهما خالد بن الوليد وأمره أن يدخلها من كُدَى وهو جبل بأسفل مكة على طريق اليمن ، ودخل هو ﷺ من كَدَاء وهو جبل بأعلى مكة .

فأما خالد فقد قابله رجال من أحلاف قريش وأرادوا منعه ، فحدثت بين الفريقين معركة قتل فيها من المسلمين رجلان ، ومن المشركين ثمانية وعشرون ، وداخلهم الرعب فانهزموا .

وأما النبى ﷺ فلم يجد معارضا . وكان راكبا راحلته منحنيا على رحلها تواضعا لله ، حتى تكاد جبهته تمسه ، وجاعلا أسامة بن زيد رديفا له ، زيادة فى التواضع ، وكان ذلك فى صبيحة يوم الجمعة لعشرين خلت من شهر رمضان ، وما زال سائرا حتى وصل إلى الحَجُون ، وقد نصبت له هنالك قبة كان فيها أم سلمة وميمونة زوجتاه ، فاستراح قليلا ، ثم سار وإلى جانبه أبو بكر ، وهو يقرأ سورة الفتح ، حتى وصل إلى البيت الحرام ، فطاف به سبعا واستلم الحجر الأسود بمحجته ، وكان داخل البيت ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل عليه الصلاة والسلام يطعنها بعود فى يده وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدئ الباطل وما يعيد » ، ثم أمر بها فأخرجت من البيت ، وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم وفى أيديهما الأزلام ، وهى سهام صغيرة كانوا يلقونها ويَسْتَقْسِمون بها ، أى يعرفون ما قسم لهم مما لم يقسم بوقوعها على وجه منها أو على آخر ، فقال عليه الصلاة والسلام : قاتلهم الله لقد علموا أنهما ما استقسما بها قطّ !

ثم دخل رسول الله الكعبة وكبر فى نواحيها ، ثم خرج إلى مقام إبراهيم وصلى فيه ثم شرب من زمزم ، وجلس فى المسجد والناس حوله ، والعيون شاخصة إليه

ينتظرون ما هو فاعل بمشركى قريش ، وقد طالما آذوه واضطهدوه ، واضطروه هو وأصحابه للمهاجرة ، وقاتلوه أعنف قتال وأشنعه ، وخانوا عهده ، وحاربوا حلفاءه وأثخنوا فيهم .

فى هذا الموطن الذى فيه حُمَيّا الفوز تملأ الرءوس ، وغرائز الجبلة البشرية تشرئب إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه من الأنفة ، وأبهة الغلَب تفعم النفوس شعورا بالعزة ، تظهر المبادئ التى يقوم عليها المنتصرون فى أروع مظاهرها ، وتنم أفعالهم على حقيقة ما انطوت عليه جوانحهم من السمو الصحيح ، أو الرياء الدنئ لنشر الدعوة .

فماذا تظن أن النبى ﷺ فعل بخصومه وقد وقعوا تحت يده ؟ إنه عفا عنهم قائلا لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم نهض ﷺ وخطب الناس خطبة بين فيها كثيرا من الأحكام الشرعية . ثم التفت إليهم وقرر لهم الأصل الأصيل الذى أقام عليه الإسلام صرح أمة عالمية ، لا تمت إلى الروابط الجنسية واللغوية بصلة ، أمة دينها الحق ، ودستورها العلم والعقل ، ورابطتها المساواة والعدل ، وسيرتها المدنية الفاضلة والنبل ، وهو قوله ﷺ : « يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم وآدم من تراب . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

وماكاد يتم خطبته حتى أقبل سادات المشركين يبايعونه على الإسلام ، فكان ممن بايعه فى ذلك اليوم معاوية بن أبى سفيان ، وأبو قحافة والد أبى بكر .

وجاءه رجل يرتعد خوفا ، فقال له رسول الله : « هوِّنْ عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية (١٣) .

هذه كلمة لو تأملها طالب الدليل القاطع على نبوته ، لكان له منها أقوى حجة ، تفوق فى سطوع دلالتها أعظم الخوارق للطبيعة ؛ لأن رجلا يبلغ إلى هذه الدرجة من السلطان على الأجساد والقلوب ، يجرد نفسه مختارا من أرفع لقب لا تتطاول إليه أرفع الرءوس ، لعلوه عن متناول أبعد المطامع ، وقد تيسر له سبيله إلى حد أن كلمة منه كانت تكفى لحصوله عليه ، إن رجلا يبلغ إلى هذا الحد من التجرد عن الدنيا ، لهو رجل لا يوفيه حقه أى وصف غير وصفه بالنبوة .

وقد أهدر النبى ﷺ دماء رجال امتازوا بفظاعة عداوتهم له وللمسلمين ، فهربوا من وجهه ، فقُتل بعضهم وأسلم بعضهم ، منهم عبد الله بن أبى سَرْح لجأ إلى عثمان بن عفان وطلب إليه أن يستأمن له رسول الله ﷺ ، فأعرض عنه مرارا ثم بايعه . ومنه عكرمة بن أبى جهل فإنه فر ، وكانت امرأته قد أسلمت قبل الفتح ، فأخذت له أمانا من رسول الله ، ولحقت به واستقدمته فأسلم ، وكانت له مواقف فى الإسلام محمودة .

ومنهم هَبَّار بن الأسود ، وقد استتر حتى إذا كان رسول الله بالجِعِرَّانة ، وهى موضع بين مكة والطائف ، جاءه مسلما وقال له : يا رسول الله هربت منك ، وأردت اللحاق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك ، وكنا يا رسول الله أهل شرك ، فهدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة ، فاصفح الصفح الجميل . فقال له النبى : قد عفوت عنك .

ومنه الحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية ، وقد أجارتهما أم هانىء بنت أبى طالب ، فأجاز عليه السلام جوارها .

ومنهم صفوان بن أمية فإنه ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فذهب ليلقى بنفسه فى البحر ، فجاء ابن عِمه عمير بن وهب وقال : يا نبى الله إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد هرب ليلقى بنفسه فى البحر ، فأمِّنْه فإنك قد أمّنت الأحمر والأسود . فقال له ﷺ : أدرك ابن عمك فهو آمن . فقال عمير : فأعطنى يا رسول الله علامة . فأعطاه النبى عمامته . فأخذها عمير حتى إذا لقى صفوان ، قال له : فداك أبى وأمى قد جئتك من عند أفضل الناس ، وأبر الناس ، وأحلم الناس ، وخير

الناس ، وهو ابن عمك ، وعزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك . قال صفوان : إنى أخافه على نفسى . قال عمير : هو أحلم من ذلك وأكرم ، وأراه العمامة علامة الأمان . فرجع إلى رسول الله وقال له : إن هذا يزعم أنك أمنتنى . قال : صدق . قال صفوان : فأمهلنى بالخيار شهرين . قال له النبى : بل أربعة أشهر . ثم أسلم وحسن إسلامه .

ومنهم هند بنت عتبة فاختفت ، ثم جاءت وأسلمت ، فقبل النبى ﷺ إسلامها .

وأما كعب بن زهير بن أبى سلمى ، فلما ضاقت عليه المنادح ، ولم يجد بدا من التسليم ، جاء المدينة وأسلم ، وأنشد رسول الله قصيدة يمدحه بها ، أولها :

بانت سعاد فقلبى اليوم مَتْبُولُ   متّيمٌ إثْرها ، لم يُفْدَ ، مغلولُ

ثم مضى فيها يصف ما لاقاه من الشدائد فى اختفائه :

وقال كل صديق كنت آمله   لا ألهينَّك إنى عنك مشغول
فقلت خلو سبيلى لا أبًا لكم   فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوما على آلة حدباء محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدنى   والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ   ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

فلما انتهى إلى قوله :

إن الرسول لسيف يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

خلع رسول الله بردته وأعطاه إياها إعجابا بشعره .

ومنهم وحشى قاتل حمزة عم النبى ، وقد جاء إلى رسول الله مسلما ، فقبل إسلامه .

ومنهم ابنا أبى لهب عتبة ومعتب ، فإنهما قدما نفسيهما وأسلما ، فقبل النبى إسلامهما .

بيعة النساء :

لما تمت بيعة الرجال جاءه النساء فبايعنه على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصين الرسول فى معروف .

هدم كبار الأصنام :

فى اليوم الخامس بعد الفتح أرسل النبى ﷺ خالد بن الوليد فى ثلاثين رجلا ، وأمره بهدم هيكل أكبر صنم كان لقريش وهو العُزّى ، وكان هيكلها ببطن نخلة قريبا من مكة .

وأرسل عمرو بن العاص لهدم الصنم الكبير لبنى هذيل ، وكان هيكله على بعد ثلاثة أميال من مكة ، فذهب عمرو إليه وهدمه .

وبعث سعد بن زيد الأشل فى عشرين فارسا لهدم الصنم مناة وكانت لبنى كلب وخزاعة ، وكان هيكلها بالمشلّل ، وهو جبل على ساحل البحر الأحمر ، فذهبوا إليها وهدموها .

هذه حوادث كبر لم يُرْوَ مثلها لمصلح فى الأرض ، ولا لرسول قبل محمد ﷺ فمن شاء دليلا على نبوته فوق هذا ، فلا أدرى أى دليل يقتنع به بعده !

يحسن بنا أن نكرر هنا ما سبق لنا أن نوهنا به من قول الفيلسوف الانجليزى الكبير كارلايل فقد قال فى كتابه (الأبطال وديانة الأبطال) ما مؤداه :

« ماذا يطلب من رجل يدعى أنه بنّاء من دليل على دعواه ، أكبر من أن يبنى بيتا يأوى إليه الناس . وقد جاء محمد فادعى أنه نبى ونشر دينا اتبعه مائتا مليون من النفوس ووجدوا فيه سعادتهم ، وبقى هذا الدين قائما أكثر من ألف ومئتى سنة ؛ فأى دليل يراد منه أن يقيمه على نبوته بعد هذا ؟ » (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الخامس ، جمادى الأولى سنة ١٣٦٢ هـ .

المعركة الفاصلة بين الوثنية والإسلام

فى بوادى العرب

غزوة حنين

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١).

غزوة حنين كانت بين بنى هَوَازِن وبنى ثَقِيف مجتمعين ، وبين المسلمين ؛ وحنين اسم موضع فى طريق الطائف ؛ وقيل إن حنينا اسم لما بين مكة والطائف ، وقد سميت هذه المعركة أيضا بوقعة أَوْطَاس ، وهو الموضع الذى وقعت به . وهوازن قبيلة كبيرة ذات بطون كثيرة كانت نازلة بين الطائف ومكة .

سبب هذه الغزوة أن النبى ﷺ لما فتح مكة ، ودانت له قريش ، خشيت هوارن وثقيف أن يغزوهما ويدخلهما فى طاعته ، فاجتمع قادة القبيلتين وتشاوروا فى الأمر ، واتفقوا على قتاله ، وقال قائل منهم ، « والله مالاقى محمدا قوم يحسنون القتال ، فأَجْمِعوا أمركم ، وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم » . وكان قائد هوازن مالك بن عوف ، وقائد ثقيف كنانة بن عبد ياليل ، وانضمت إليهما جموع غفيرة من قبائل شتى حتى بلغ مجموعهم ثلاثين ألف مقاتل ، أجمعوا على إعطاء القيادة لمالك بن عوف ، واشترطوا عليه أن يستشير دُرَيْد بن الصمّة ، وهو أعلاهم رأيا ، وأعرفهم بالحرب ، ولكنه كان قد أسن حتى بلغ العشرين بعد المائة ، وقيل أكثر من ذلك ، وكانت سن مالك بن عوف ثلاثين سنة . فسمع دريد رغاء الإبل ، وخوار البقر ، وبكاء الصغار ، فقال : مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ، وخوار

---

(١) سورة التوبة ، الآيات (٢٥ - ٢٧) .

البقر ؟ فأجابوه : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم . قال : أين هو ؟ فحضر بين يديه فقال له : يا مالك إنك تقاتل رجلا قد أوطأ العرب ، وخافته العجم ، وأجلى يهود . فقال مالك : لا نخالفك فى أمر تراه . فقال دريد : مالى أسمع هذه الضوضاء ؟ قال مالك : سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ليكون خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنهم . فقال دريد : هل يرد المنهزم شيء ؟ فإن كانت لك فذاك ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك .

فأبى مالك أن يطيعه ، وغضب دريد واعتزل الحرب .

ولما بلغ النبى ﷺ خروج هذه الجموع إليه ، نبذ إليهم على سواء ، وكان ذلك يوم السبت السادس من شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة ، فى جيش عدته اثنا عشر ألفا ، عشرة آلاف منهم كانوا جاءوا معه لفتح مكة ، وألفان من الذين أسلموا من قريش بعد الفتح ، وخرج معهم نساء كثيرات طماعية فى المغانم . ومما يجب لفت النظر إليه خروج ثمانين من المشركين لشد أزر المسلمين ، منهم صفوان ابن أمية وسهيل بن عمرو ، وكان ذلك منهم كراهية أن يتغلب الأعراب على قريش [١] ، وفى الأعراب جفوة وغَشْمرِيَّة ليست للعرب [٢] .

عبأ رسول الله جنوده فأعطى قيادة المهاجرين لعلى بن أبى طالب ، وقيادة بنى الأوس لأسيد بن حضير ، وقيادة الخزرج للحباب بن المنذر ، والأوس والخزرج أهل المدينة ويطلق عليهم الأنصار .

ولبس عليه الصلاة والسلام درعين وبيضة ومِغفرا [٣] .

لما سار الجيش ورأى المسلمون كثرتهم ، تداخلهم شيء من الزهو ، فقال رجال منهم : لن نهزم اليوم من قلة .

لما تمت تعبئة الجيش انحدر النبى بجنوده فى الوادى عند غبش الصبح ، وكان

---

(١) تطلق كلمة (عرب) على سكان الأمصار ، وكلمة (الأعراب) على سكان البوادى .

(٢) الجفوة الغلظ ، والغشمرية الظلم والكبر .

(٣) المعفر : ما يقى الرأس والعنق من الحديد والزرد .

رجال من هوازن قد كمنوا له فى بعض شعاب ذلك الوادى ومضايقه ، فلما حمل المسلمون على جيش العدو لم يلبثوا أن انهزموا ، قال البراء بن عازب : فأكببنا على الغنائم ، فخرج علينا من كانوا كامنين فى الشعاب والمضايق واستقبلونا بالسهام ، فولينا مدبرين لا يلوى أحد منا على أحد .

وقد بلغ بعض المنهزمين فى تقهقرهم مكة ، وأخبروا أهلها ففرحوا ، وكانوا لا يزالون على شركهم ، فكان ذلك مدعاة لظهور ما أكنه الناس فى قلوبهم ؛ فقال بعضهم انتهى أمر الإسلام وغدا يرجع العرب إلى دينهم الأول ، فإن هذه الهزيمة لا تقف دون البحر . وقال هشام بن كلدة وكان أخا لصفوان بن أمية لأمه : بطل سحر محمد ، فقال له أخوه صفوان ولم يكن قد أسلم بعد : أسكت فضّ الله فاك ، فوالله لأن يربُّنى (أى يملكنى) رجل من قريش أحب إلىّ من أن يربنى رجل من هوازن . ومر بصفوان هذا رجل فقال له أبشر بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لا يجبرونها أبدا ، فغضب صفوان وقال : « أتبشرنى بظهور الأعراب ؟ فوالله لرب من قريش (أى ملك من قريش) أحب إلىّ من رجل من الأعراب » .

أما المسلمون الصحيحو الإسلام منهم ، فثبتوا منتظرين ما يحدث بعد هذه الهزيمة ، معتقدين أن هزيمة محمد ليس معناها زوال دين الله من الأرض ، فإن الله لا شك مظهره على الدين كله ، كما وعد بذلك ولو كره الكافرين . وهذا الرأى يتراءى فى رد عكرمة بن أبى جهل على من قال : والله لا يجبرونها أبدا ، فإنه قال له : « ليس هذا لك ولا بيدك ، الأمر بيد الله ، ليس إلى محمد منه شىء ، إن دِيلَ عليه اليوم (أى إن كانت الكرة عليه اليوم) ، فإن له العاقبة غدا » .

ماذا كان من أمر رسول الله حيال هذه الهزيمة ؟

انهزم جيش المسلمين ولكن النبى ﷺ ورجاله من أركان حربه وعددهم ثلاثمائة وقيل ثمانون ، وقيل بل عشرة ، لم ينهزموا ، وبقى عليه السلام على بغلته يدفعها نحو جموع الأعداء ، ويكفها عن المضى بعض أصحابه خوفا عليه من الردى . فعن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله يوم حنين فولى الناس وبقيت معه فى ثمانين رجلا ، فقمنا على أقدامنا ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السَّكِينة (كما

ورد فى الآية) ورسول الله على بغلته ، وكان العباس عمه آخذا بلجامها يكفّها أن تتقدم فى نحر العدو ، والثمانون منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والفضل بن العباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وأسامة بن زيد وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وعتبة ومعتب ابنا أبى لهب وأيمن ابن أم أيمن وغيرهم ؛ وكان النبى ﷺ وهو فى تلك الحالة ، والناس يولون الأدبار حواليه سراعا لا يلوون على شىء ، يناديهم قائلا : إلىَّ أيها الناس ، فلم يجد سميعا . فقال لعمه العباس وكان جهورى الصوت : صح بالناس قائلا يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السَّمُرة (أى الشجرة التى كانت تحتها بيعة الرضوان) ، يا للمهاجرين الذين بايعوا النبى تحت الشجرة ، فما طرقت هذه الصيحات أذنىْ واحد منهم حتى سارع إليه قائلا : لبيك لبيك ، وسيوفهم مصلتة فى أيديهم تلمع كالشهب ، فأمر رسول الله أن يصدقوا الحملة على المشركين ، فأجابوه واندفعوا على المشركين كالسيل العرم ، وما هى إلا ساعة حتى ولى المشركون الأدبار ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فما أمسى المساء حتى طار الخبر إلى مكة بأن النبى انتصر على أعدائه ، ففرح بذلك المؤمنون ، وحزن المشركون .

ولما كلمه بعضهم فى معاقبة الفارّين أجاب : بأن الله قد كفى وأحسن ، كما قال تعالى فى أمر هذه الوقعة : « وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ثم أمر النبى ﷺ بجمع النساء والأطفال الذين تركهم أزواجهم وآباؤهم وفروا طالبين النجاة ، والاستيلاء على ما تركه العدو من سائمته وأمواله ، وقد أحصيت فبلغت أربعة وعشرين ألف بعير ، وأكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة .

أما المشركون فتفرقوا ثلاث فرق ، لحقت إحداها بالطائف ، ولاذت الثانية بنخلة ، وعسكرت ثالثتها بأوطاس (وهو واد بديار بنى هوازن) .

كان أكبر أثر لهذا الانتصار العظيم سحق النزعة الاستقلالية الأعرابية سحقا تاما ، فإن القبائل التى كانت ضاربة فى وديان بلاد العرب وشعابها ، كانت تعتبر

نفسها مستقلة كل الاستقلال عن جاراتها ، ولذلك كانت فى خصام مستمر موروث لا تهدأ له نار ، ولا ينقطع لها أوار [١] ، فلما رأت بقية القبائل ما حل بهوازن وهى من أكبر قبائل العرب ، وأعزها مكانا ، اضطرت أن تقبل إلى النبى ﷺ مستسلمة ، قابلة أن تخضع لحكم الإسلام وما يفرضه عليها من التكاليف والتبعات ، كأعضاء أمة واحدة ، متكافلة الأجزاء ، متكاملة الأبعاض ، لتؤدى للمجموع البشرى من الخدم الاجتماعية ما يجب على كل جزء منه أداؤه ، جهادا وراء وصول الإنسانية إلى ما قدر لها من وجود كريم ، يناسب ما منحته من المواهب النفسية والعقلية .

هذه الحركة الاجتماعية التكافلية من القبائل العربية لم تحصل فى أى عهد من عهود الأمة العربية . فإن ما يرويه الراوون من مدنية بعض قبائلها كعاد وثمود وغيرها ، كانت حركات قبيلية محضة ، مقتصرة على أصحابها ، ولم تتعد سواها ، فلم تقم للاجتماع العربى شخصية أدبية عامة إلا بواسطة الإسلام الذى بُعث به محمد على فترة من الرسل ليكون دينا عاما ، ورباطا أدبيا شاملا للعالم كله .

أما الهزيمة التى ألمت بالمسلمين فى هذه الوقعة فقد علّلها الكتاب الكريم بتلك الحركة النفسية ، وهى الإعجاب بالكثرة ، عدولا منهم عن السبب الصحيح فى بناء وجودهم ، وهو التأييد الإلهى لا الأسباب العادية ، فاستحقوا على ذلك ، تجريداً لإيمانهم من شوائب الخلط بين العمل الإلهى المعجز ، والعمل الإنسانى الممكن : أن يوكلوا لأنفسهم ، فانهزموا على كثرتهم ، ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [٢] .

نعم إن الإسلام أمر بالأخذ بالوسائل العادية ، للنجح فى المطالب الحيوية ، ولكنه أراد أن ينبّه حماة الإسلام لآخر مرة ، أن هذه الوسائل العادية ليست هى السبب فى وجودهم الاجتماعى ، ولا فى نجاحهم فى إقامة الصرح الإسلامى ، فإن هذا العمل الضخم الذى لا مثيل له فى جميع أدوار التاريخ البشرى ، لا يعقل أن

---

(١) الأوار بضم الألف هو الدخان أو اللهب .

(٢) سورة الأنفال ، من الآية (٦٣) .

نفسها مستقلة كل الاستقلال عن جاراتها ، ولذلك كانت فى خصام مستمر موروث لا تهدأ له نار ، ولا ينقطع لها أوار [١] ، فلما رأت بقية القبائل ما حل بهوازن وهى من أكبر قبائل العرب ، وأعزها مكانا ، اضطرت أن تقبل إلى النبى ﷺ مستسلمة ، قابلة أن تخضع لحكم الإسلام وما يفرضه عليها من التكاليف والتبعات ، كأعضاء أمة واحدة ، متكافلة الأجزاء ، متكاملة الأبعاض ، لتؤدى للمجموع البشرى من الخدم الاجتماعية ما يجب على كل جزء منه أداؤه ، جهادا وراء وصول الإنسانية إلى ما قدر لها من وجود كريم ، يناسب ما منحته من المواهب النفسية والعقلية .

هذه الحركة الاجتماعية التكافلية من القبائل العربية لم تحصل فى أى عهد من عهود الأمة العربية . فإن ما يرويه الراوون من مدنية بعض قبائلها كعاد وثمود وغيرها ، كانت حركات قبيلية محضة ، مقتصرة على أصحابها ، ولم تتعد سواها ، فلم تقم للاجتماع العربى شخصية أدبية عامة إلا بواسطة الإسلام الذى بُعث به محمد على فترة من الرسل ليكون دينا عاما ، ورباطا أدبيا شاملا للعالم كله .

أما الهزيمة التى ألمت بالمسلمين فى هذه الوقعة فقد علّلها الكتاب الكريم بتلك الحركة النفسية ، وهى الإعجاب بالكثرة ، عدولا منهم عن السبب الصحيح فى بناء وجودهم ، وهو التأييد الإلهى لا الأسباب العادية ، فاستحقوا على ذلك ، تجريداً لإيمانهم من شوائب الخلط بين العمل الإلهى المعجز ، والعمل الإنسانى الممكن : أن يوكلوا لأنفسهم ، فانهزموا على كثرتهم ، ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [٢] .

نعم إن الإسلام أمر بالأخذ بالوسائل العادية ، للنجح فى المطالب الحيوية ، ولكنه أراد أن ينبّه حماة الإسلام لآخر مرة ، أن هذه الوسائل العادية ليست هى السبب فى وجودهم الاجتماعى ، ولا فى نجاحهم فى إقامة الصرح الإسلامى ، فإن هذا العمل الضخم الذى لا مثيل له فى جميع أدوار التاريخ البشرى ، لا يعقل أن

---

(١) الأوار بضم الألف هو الدخان أو اللهب .

(٢) سورة الأنفال ، من الآية (٦٣) .

ما يراد منه .

وهناك أمر جدير بالنظر وهو أن النبى ﷺ كان ممتطيا صهوة بغلة ، وهى لم تسعف راكبها بالسرعة التى تقتضيها الحال إذا جد الجد فى ساحات الوغى ، وأعجب من هذا ثباته وهو فى وجه العدو ، بل محاولته الهجوم على جيش لم يُمْنَ المسلمون بمثل كثرة عدده منذ عهدهم بالإسلام . هذا كله فوق قدرة البشر ، ولا يمكن تعليله إلا بثقته المطلقة فى حفظ الله له كما وعده بذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٢) . وهذا أيضا يضاف إلى أعلام نبوته وهى كثيرة تخرج عن الحصر (*) .

★ ★ ★

---

(١) سورة المائدة ، من الآية (٦٧) .

(٢) سورة غافر ، الآية (٦٧) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء السادس ، جمادى الآخرة سنة ١٣٦٢ هـ .

تعقّب فُلُول هَوَازِن وثَقِيف

قلنا فى الفصل السابق إن فالّة جيش هوازن وثقيف تفرقوا ثلاث فرق : نزلت أولاها بالطائف ، وثانيتها بنخلة ، وثالثتها بأوطاس .

فأرسل النبى ﷺ إلى التى بأوطاس (سرية) تحت قيادة أبى عامر الأشعرى ليبدد شملهم فتوفى فى المعركة ، وخلفه فى القيادة أبو موسى الأشعرى ابن أخيه ، فرجع بما أصاب من الغنائم ، بعد أن تفرق الأعداء شذر مذر .

ورأى رسول الله أن يسير بنفسه لقتال بنى ثقيف ببلدتهم (الطائف) ليفضّ جمعهم هم ومن انضم إليهم من بنى هوازن . فجعل على مقدمته خالد بن الوليد . فمر عليه السلام بحصن لعوف بن مالك ، فأمر بهدمه ، وببستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه ، فأرسل إليه بأن يخرج وإلاّ أمر بإحراق البستان ، فأبى الرجل ، فأمر النبى بإحراق البستان .

ولما وصل الجيش إلى الطائف وجد المسلمون أن الأعداء قد حصنوا أنفسهم فيه ، واختزنوا معهم مقادير من الزاد تكفيهم مدة طويلة ، وما فتئوا يرمون المسلمين بسهامهم حتى أصابوا كثيراً منهم ، فأصيب محمد بن أبى بكر بسهم لم يزل يطاوله حتى قضى عليه فى خلافة أبيه ، وأصيب أبو سفيان بن حرب بسهم فى عينه ففقأها . ومات اثنا عشر من المسلمين متأثرين بجروحهم .

فلما رأى رسول الله أن أصحابه على مرمى السهام من أعدائهم ، انتقل إلى موقف يحتمون فيه من شرهم ، وبقى محاصرا لهم ثمانية عشر يوما ، كان خالد بن الوليد فى أثنائها يدعوهم إلى المبارزة فلا ينزل إليه أحد ، وناداه عبد يا ليل رئيسهم قائلا : « لن ينزل إليك منا أحد ، وسنقيم بحصننا حتى ينفد ما معنا من الزاد ، وهو يكفينا سنين عدة ، فإن لبثت حتى ينفد زادنا خرجنا إليك جميعا ، وقاتلناك حتى نموت عن آخرنا » .

فأمر رسول الله بأن ينقب عليهم الحصن بواسطة دبابتين ، والدبابة عندهم كانت عربة مغطاة يقف تحتها الجنود ليحتموا من النبل ، ويعملوا على نقب سور

الحصن ، وعزز ذلك بالمنجنيق ليقذفهم بالحجارة ، وهى أداة كانت تقوم مقام المدفع اليوم ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فلم يقو المسلمون على الثبات أمامها لنقب الحصن .

فرأى رسول الله أن يعمد إلى قطع نخلهم وأعنابهم ، فمضى المسلمون فى قطعها ، فناداه أهل الحصن قائلين : دَعْها لله وللرحم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أَدَعُها لله وللرحم » .

ثم أمر مناديا أن ينادى : كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن . فخرج إليه بضعة عشر رجلا .

فلما آنس النبى أن أمرهم شديد المراس ، استشار أحد أصحابه ، نوفل بن معاوية ، فى أمرهم ، فقال : « يا رسول الله ثعلب فى جحر إن أقمت أخذته ، وإن تركته لم يضرك » . فأمر عليه السلام برفع الحصار عنهم والعودة إلى مكة .

وقبل أن يصل إليها اتصل به عروة بن مسعود الثقفى فى الطريق وأسلم على يده ، وانتدب أن يرجع إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام . فقال له رسول الله ﷺ : إنهم قاتلوك ، فقال يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم ، وانطلق . فلما أتى الطائف وأبدى لهم ما جاء به رموه بالنبل فقتلوه . وبعد شهر من مقتله أدركوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من الأعراب الذين دخلوا فى طاعة النبى ﷺ ، فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا له رجلا من أعيانهم يكلمه فى شأنهم . فوقع اختيارهم على رئيسهم عبد يا ليل بن عمرو أن يقوم بهذه السفارة . فأبى أن يذهب إلى النبى وحده ، وطلب أن يكون معه رجال منهم ، فبعثوا معه خمسة من أشرافهم . فخرجوا متوجهين إلى المدينة . ولما لاقوا رسول الله أمر فضربت لهم قبة فى ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ، ويروا الناس وهم يصلون ويتعبدون . وكانوا يغدون إلى المسجد كل يوم ، ويتركون فى رحالهم واحدا منهم كان أصغرهم سنا يدعى عثمان بن أبى العاص ، وكان شابا نجيبا ، فكان إذا عادوا إلى رحالهم ، ذهب هو إلى النبى وطلب إليه أن يقرئه القرآن ، فإذا اتفق أن وجده نائما ، عمد إلى أبى بكر فطلب إليه ذلك ، حتى حفظ شيئا كثيرا منه ، وتعلم مبادئ الدين ، وكان يكتم ذلك عن صحبه .

بعد ما تم لهؤلاء الرجال معرفة ما عليه المسلمون من سمو العقيدة ، وروعة العبادة ، وبعد أن تأثروا بآيات الكتاب البينة ، ووضحت لهم محجة الإسلام القيمة ، أسلموا وطلبوا أن يعين لهم النبى ﷺ من يأتمون به ، فاختار لهم عثمان ابن أبى العاص الذى مر ذكره لما رآه فيه من حب الإسلام ، وإخلاصه له ، ليحفّظهم ما هم فى حاجة إليه من آيات القرآن ، ويعلموا ما يجب أن يعلموه من تكاليف الإسلام .

تقسيم الغنائم على المقاتلين :

قلنا إن المسلمين غنموا فى هذه الغزوة عددا كبيرا من الأنعام والماشية ، ومقادير عظيمة من الفضة ، فرجع النبى ﷺ بعد فراغه من المعركة إلى الجعرانة حيث ترك هذه المغانم ليوزعها على المحاربة ، فقسمها إلى خمسة مقادير وأخذ واحدا لبيت المال ، كما هى القاعدة فى توزيع الغنائم الحربية ، وأعطى الأربعة الأخماس الباقية للمحاربين ، ولم يعط الأنصار وهم أهل يثرب شيئا منها . فأصاب الراجل أربعة من الإبل وأربعون شاة ، وأصاب الراكب ثلاثة أمثال ذلك . فقال رجل ، ولعله كان منافقا وقد كانوا كثيرين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فغضب رسول الله حتى احمر وجهه . فاستأذنه عمر وخالد بن الوليد أن يضربا عنقه . فقال : لا ، لعله أن يكون يصلى . فقال خالد : كم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . فقال النبى : إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا أن أشق عن بطونهم .

وزاد النبى فى أعطيات بعض الناس ، فأعطى لكل من أبى سفيان وولديه يزيد ومعاوية أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل .

وأعطى حكيم بن حزام من سادة قريش ، مثل ما أعطى أبا سفيان . فاستزاده حكيم . فأعطاه النبى مثلها . فاستزاده ثانية ، فأعطاه مثلها أيضا . ثم قال له : « يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس ، بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى » . فأخذ حكيم النصيب الأول وترك ما عداه ، ثم قال : « والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا » . فكان الخلفاء

بعد النبى ﷺ يعطونه ما يخصه سنويا من بيت المال ، فكان يرده .

وأعطى رسول الله لكل من الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس مائة من الإبل .

وأعطى صفوان بن أمية ، ولم يكن قد أسلم بعد ، شعبا مملوءا نعما وشاء كان رآه يرمقه . قال له : هل يعجبك هذا ؟ قال نعم . فقال النبى ﷺ هو لك . فقال صفوان : ما طابت بمثل هذا نفس أحد ؛ ولم يسعه إلا أن أسلم .

كل هذا كان من باب السياسة الشرعية ، فقد شرع الله أن يعطى من المال لغير المسلمين تألفا لهم . وقد أثمرت هذه السياسة . فأصبح الذين أجزل لهم النبى ﷺ العطاء من أجلاء المسلمين .

ولما شرع رسول الله فى قسمة ما بقى من الغنيمة اكتظ حوله الأعراب ، وصاروا يزحمونه حتى ألجأوه إلى شجرة ، فتعلق رداؤه بغصن من أغصانها فقال : « أيها الناس رُدُّوا علىَّ ردائى فو الله إن كان لى عدد شجر تهامة نَعَماً لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذوبا » ، ثم عمد إلى بعيره وأخذ وبرة من سنامه وقال : « أيها الناس والله مالى من غنيمتكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخِيَاط والمِخْيَط فإنّ الغُلُول (أى الاختلاس من الغنيمة) يكون على أهله عارا وشنارا وناراً يوم القيامة ، فصار كل من أخذ شيئا من المغانم خلسة يرده ولو كان تافها .

ولما أعطى النبى هذه العطايا للناس وترك كبار المهاجرين والأنصار ، غضب بعض هؤلاء ، فجمعهم وقال لهم : « إن قريشا حديثو عهد بكفر ، وإنى أردت أن أتألفهم ، أفتغضبون يا معشر الأنصار لشىء قليل من الدنيا ألفت به قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت ؟ ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا ، لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » . فبكى القوم حتى أخضلت لحاهم ، وقالوا : « رضينا برسول الله قسما وحظا » .

ثمرات هذه السياسة الحكيمة :

قلنا فيما سلف إن العرب قسمان : قسم يسكن المدن وقسم يسكن البوادى ، وقد أطلقوا على الأولين كلمة (عرب) وعلى الآخرين كلمة (أعراب) . سكان المدن عادة يكونون على شيء من النظام والمدنية ، وعلى جانب من القابلية للحياة الاجتماعية ، مهما كان جنسهم مغموسا فى حمأة الجاهلية . دليل ذلك أن النبى ﷺ لما استعصت عليه قريش ، وعرض الإسلام على القبائل المتبدية ، لم يجد واحدة منها تقبل مناصرته ، وقبل أهل يثرب الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة ، ويثرب كانت مدينة ، فالنبى ﷺ بما آتاه الله من حكمة النبوة ، وبعد النظر ، أدرك هذه الحقيقة فحرص أن ينضم إلى دعوته أهل المدينتين مكة ويثرب ، والإسلام دين أساسه حياة اجتماعية ، وخضوع لأصول أدبية ، وقوانين نظامية ، وأين هذا كله من أقوام حياتهم ساذجة ، يعيشون فى الخيام ، وينزحون بها عندما ينبو بهم المقام فى بقعة من الأرض ، إلى بقعة أخرى ، بما معهم من النعم والماشية ، لا يبالون أين تقر عصاهم من نواحى بلادهم المترامية الأطراف ؛ وقد نزل القرآن مؤيدا لهذا النظر الصحيح ، فقال تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ، وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا (أى يعتبر ما ينفقه فى سبيل إقامة الإسلام غرامة عليه) وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ (أى يتربص أن يفسد أمركم وتذهب دولتكم ليخلص من تكاليفكم) ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1] .

وقد ظهر مصداق ذلك كله بعد وفاة النبى ﷺ ، فإن أكثر القبائل ارتدت عن الإسلام ، وعادت إلى جاهليتها ، واستعدت لقتال كل من يتصدى لها ، وبقى أهل المدينتين ثابتين على إسلامهم ، فقاموا على قلة عددهم برد تلك القبائل إلى الإسلام بالقوة ، ونجحوا فى ذلك بتأييد من الله ، إبقاء على هذا الدين من التلاشى ، وقد أعده الله لإحداث أكبر الانتقالات العمرانية فى العالم ، كما وعد أهله بذلك فى

---

(١) سورة التوبة ، الآيتان (٩٧ ، ٩٨) .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (أى من الدول الكبرى ذات الآثار الخالدة فى الأرض) ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ؛ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [١] .

إذا تقرر هذا فإن ما فعله النبى ﷺ من تألف كفار قريش بالمال ، وحرما أنصاره الأولين منه يعتبر من أكيس ما يفعله صاحب دعوة فى العالم يعرف كيف يجمع القلوب على تأييدها .

* * *

لا يبدون إلى ذهن بعض القراء أن المجتمع الإسلامى قام على تصيد الأنصار بالمال أو بالإرهاب أو بغيرهما من الوسائل المادية التى تستهوى النفوس ، وتستولى على الأهواء ، فإن نظرة عجلى على ما حدث فى هذه الوقعة ينفى ذلك نفيا بدليل محسوس . ذلك أن النبى ﷺ أعطى الأموال التى غنمها إلى الذين كانوا لا يزالون مشركين ، والذين أسلموا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وحرم منه أنصاره ومؤيديه الذين حصل له هذا المال باستماتتهم فى نصرته ، وتعرضهم لأفدح الأهوال فى تأييد دعوته . فلو كان أمر المجتمع الإسلامى قائما على هذه الأعراض الزائلة لكفى هذا العمل فى حل جماعته ، أو على القليل لحدثت فتنة تعرض وجودهم للخطر . وقد شوهد أنه لم يحدث شىء من ذلك .

على أن من يرجع للتعاقد الذى حدث بين رسول الله والذين انتدبوا لحماية دعوته من أهل يثرب ، يرى أنهم لم يعطَوا مقابلا لجهادهم غير ثواب الآخرة . فإنهم لما اجتمعوا فى الهزيع الأخير من الليل فى بعض شعاب مكة ، وعرض عليهم النبى ما يطلب منهم أن يبذلوه من التضحيات فى سبيل الإسلام ، سألوه : ومالنا على ذلك يا رسول الله : فقال لهم : الجنة . فأجابوه رضينا بذلك وانصرفوا .

---

(١) سورة النور ، الآية (٥٥) .

وقد نزل فى ذلك قرآن فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (١) ، فهو لم يشتر منهم أنفسهم فحسب ، بل وأموالهم أيضا مقابل أن يتفضل الله عليهم بالجنة .

من هنا يتبين أن هذا الدين قام على أثبت ما يقوم عليه بناء مجتمع ، وهو الإيمان مجردا عن المطامع الدنيوية ، وهدا سر بقائه إلى اليوم أيضا (*) .

★ ★ ★

---

(١) سورة التوبة ، من الآية (١١١) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء السابع ، رجب سنة ١٣٦٢ هـ .

علامات تصدّع الوثنية فى البلاد العربية
خمس سريّات ووَفْدان

بعد أن أتم رسول الله ﷺ حرب بنى هوازن وأُوتى ما ذكرناه فى العددين الماضيين من النصر الحاسم عليهم ، وقد قلنا إن تلك المعركة كانت فاصلة بين الإسلام والوثنية فى جزيرة العرب ، عاد رسول الله من معسكره بالجعرانة إلى مكة ، ثم إلى المدينة بعد أن لبث فيها ثلاث عشرة ليلة ، وكان ذلك لثلاث بقين من ذى القعدة .

أما علامات التصدع فى صرح الوثنية فقد يبدو جليا للرائى من أخبار السرايا والوفود فى هذه الفترة من الوقت بين السنة الثامنة والحادية عشرة ، وهى السنة التى انتقل فيها رسول الله إلى الملأ الأعلى .

السرية الأولى :-

لما عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة ندب قيس بن سعد على رأس أربعمائة مقاتل لدعوة بنى صداء إلى الإسلام وهى قبيلة كانت تسكن اليمن . وما كادت تستعد هذه السرية للمسير حتى أقبل رجل من صداء وقابل رسول الله وقال له : يا رسول الله إنى جئتك موفدا ممن ورائى من قومى ، فارْدد الجيش وأنا لك بقومى . فأمر رسول الله بردّ الجيش . وشخص الرجل إلى قومه ، ثم أقبل ومعه خمسة عشرة رجلا منهم ، فنزلوا ضيوفا على سعد بن عبادة ، ثم قابلوا النبى ﷺ وبايعوا على الإسلام ، وقالوا له نحن لك على من وراءنا من قومنا ، ولما رجعوا فشا فيهم الإسلام ، وأقبل منهم مائة رجل فى حجة الوداع .

السرية الثانية :-

ثم أرسل رسول الله ﷺ بشر بن سفيان العدوى إلى بنى كعب بن خزاعة لتحصيل زكاة أموالهم ، فمنعهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء مهمتهم ، فأرسل إليهم النبى ﷺ عينية بن حصن على رأس خمسين فارسا ، فجاءهم وقاتلهم ، واقتاد منهم أحد عشر رجلا وعشرين امرأة وثلاثين صبيا ، وأقبل بهم إلى المدينة ، فأمر النبى

باعتقالهم فى داررملة بنت الحارث .

وفود تميم على رسول الله -:

ما كاد هؤلاء الأسرى يصلون إلى المدينة ، حتى جاء على أثرهم وفد من بنى تميم على رأسه عطارد بن حاجب والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، من أشرافهم ، فجلسوا ينتظرون خروج رسول الله إليهم ، فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء حجراته التى كان يقيم فيها : « يا محمد اخرج إلينا نفاخرك ، فإن مدحنا زين ، وإن ذمنا شين » فخرج إليهم الرسول وقد تأذى من صياحهم ، وكان الوقت ظهرا ، فأذّن بلال ، واتجه النبى إلى المحراب ليصلى بالناس ، فتعلق رجال الوفد به وهم يقولون : « نحن رجال من بنى تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك » . فقال لهم رسول الله : « ما بالشعر بعثنا ، ولا بالفخار أمرنا » ثم مضى وصلى الظهر وهم ينظرون .

فلما أتم ﷺ اجتمع إليه رجال ذلك الوفد وأخذوا يتمدحون بمفاخرهم ، ومناقب آبائهم . وتكلم عمرو بن الأهتم فمدح الزبرقان بن بدر ، فقال فيه : « إنه لمطاع فى أنديته ، سيد فى عشيرته » .

فقال الزبرقان : « لقد حسدنى ابن الأهتم لشرفى ، وهو يعلم منى أفضل مما قال » .

فالتفت عمرو بن الأهتم إلى رسول الله وقال : (إنه لَزمِن المروءة ، ضيق العَطَن [1] ، لئيم الحيال) ، فرؤى الغضب فى وجه رسول الله لتلون عمرو بن الأهتم فى قوله . فقال عمرو بن الأهتم : « لقد صدقت فى الأولى ، وما كذبت فى الثانية ؛ رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت » . فأعجب رسول الله بتخلصه من تناقضه وقال : « إن من البيان لسحرا » .

---

(١) الزمانة العاهة : يقال فلان رمس المروءة ، أو زمس الرغبة أى ضعيفها . والعَطَن مناخ الإبل والغنم وفلان صيق العطن أى فقير .

ثم انتهى الأمر بإسلام القوم ، فرد رسول الله عليهم أسراهم ، وأحسن عائدتهم . ثم مكثوا بالمدينة مدة يتعلمون فيها القرآن ، ويتفقهون فى أمور الدين ، ليعلموا قومهم متى عادوا إليهم .

إن الذى يتأمل فى عقلية هؤلاء القوم يدرك الصعوبة البالغة التى تحول دون نشر دعوة دينية فى أمثالهم . إن غرضهم من مجيئهم كان تحرير أسرى أُخذوا منهم بحرب ، فأين هذا من طلب المفاخرة والمنافرة من الغالب ؛ فما أسرع ما يلمس المتأمل فى هذا وأمثاله مكان الإعجاز فى عمل النبى ﷺ فى بلاد كانت تغص بأشباههم .

إن جاهلية هؤلاء القوم التى حملتهم على استعجال رسول الله لينزل إليهم بالصياح المزعج من وراء حجراته قائلين : يا محمد انزل إلينا نفاخرك إلخ ، نزل قرآن فى استهجانه ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ، لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [1] ، فسلب من أكثرهم العقل ، أليس فى اتهام زميل بالحسد فى ظرف كالذى كانوا فيه ما يؤيد معنى هذه الآية .

السرية الثالثة :-

بعث النبى ﷺ الوليد بن عقبة بن أبى معيط لتحصيل زكاة بنى المصطلق ، فلما علم القوم بقدومه خرج منهم عشرون رجلا متقلدين أسلحتهم حفاوة منهم باستقبال وفد رسول الله ﷺ ، ومعهم الإبل التى أخرجوها للزكاة . فلما وقعت عين الوليد بن عقبة عليهم ، ظنهم يريدون قتاله ، وقد كان بينه وبينهم عداء فى الجاهلية ، فأسرع بالعود إلى المدينة ، وأخبر رسول الله بأنهم ارتدوا عن الإسلام ومنعوه الزكاة ، واقبلوا لمحاربته .

فاضطر النبى ﷺ أن يقابلهم بالمثل بعد التثبت من حالهم ، فندب لذلك

---

(١) سورة الحجرات ، الآيتان (٤ ، ٥) .

خالد بن الوليد فى عدد من الجند ، فسار حتى إذا كان بمحلتهم سمع مؤذنهم يؤذن الصبح ، فأقبل عليهم ، فلم ير منهم ما يؤاخذون عليه من كفر أو عصيان ، فعاد وأخبر رسول الله بما رأى ، فأرسل إليهم رجلا فى نفر فحصل منهم زكاة أموالهم دون أن يحدث شىء من الشغب .

السرية الرابعة :-

نمى إلى رسول الله ﷺ أن رهطاً من الحُبْشان يحومون حول جدة على سفن يريدون الإغارة عليها ونهبها ، فأرسل إليهم علقمة بن مجزّز فى ثلاثمائة من الجنود . فلما وصل إلى جدة اقتحم البحر على سفن وقصد إلى جزيرة كان الأحباش متحصنين بها هنالك ، فلما رأوا المسلمين مقبلين إليهم فروا . فعاد علقمة بمن معه من الجنود ، وبينما هم بالطريق أراد جماعة أن يتعجلوا الوصول إلى المدينة ، فأمّر عليهم علقمة ابن مجزز واحدا منهم اسمه عبد الله بن حذافة السهمى ، وكان يحب المداعبة ، فأمر رجاله فى بعض الطريق أن يشعلوا نارا عظيمة ، ففعلوا ، ثم التفت إليهم وقال : أليس عليكم أن تطيعونى فى كل ما آمركم به بوصفى أميرا عليكم اليوم ؟ قالوا نعم . قال فإنى آمركم أن تلقوا بأنفسكم فى هذه النار . فتعجبوا وحدث بينهم ما يحدث حيال أمر شنيع كهذا ، فأغرق رئيسهم فى الضحك وقال لهم لا بأس عليكم ، إنى كنت مازحا . فلما أُخبر بذلك رسول الله استنكره ، ونطق بهذا الأصل الاجتماعى العظيم وهو قوله : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

السرية الخامسة :-

فى شهر ربيع الأول من السنة التاسعة أرسل النبى ﷺ على بن أبى طالب فى خمسين فارسا لهدم صنم بنى طَّىء ، فسار إليه وحطمه ثم أحرقه ، ولكن رجالا من بنى طىء لم يستطيعوا تحمل هذه الإهانة فانتدبوا لقتال سرية رسول الله ، ولكنهم انهزموا فاستاق المسلمون شاءهم ونعمهم ، وعددا من نسائهم منهم سفانة بنت حاتم الطائى المشهور .

فلما رجعت السرية إلى المدينة طلبت سفانة من رسول الله أن يمن عليها بالحرية ، فأجابها إلى ما طلبت وأكرمها ، قيل وكانت هذه المعاملة سببا فى إسلام

أخيها عدىّ بن حاتم ، وكان قد فر إلى الشام بدينه ، لأن كان قد تنصّر قبل البعثة المحمدية . ذلك أن أخته توجهت إليه بالشام وأخبرته بما حظيت به من إكرام النبى لها . فسألها عن رأيها فيما يفعل ، فقالت له : أرى أن تلحق بمحمد ، فإن كان نبيا كان لك فضل السبق ، وإن كان ملكا فأنت أنت . فعمل بإشارتها .

وفود عدى بن حاتم الطائى على رسول الله :

وفد عدى بن حاتم على النبى ﷺ ، فأخذه إلى داره ، وبينما هما يمشيان ، استوقفت امرأة رسول الله ، فوقف لها طويلا وهى تكلمه فى حاجة لها ، فأعجب عدى فى نفسه لهذا التواضع وقال ما هو بملك .

ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل داره تناول وسادة من جلد محشوة ليفا ، فقدمها إلى عدى وقال له إجلس عليها ، فقال بل أنت تجلس عليها ، فامتنع رسول الله وردها إلى عدى وجلس هو على الأرض . ثم قال يا عدى أَسْلِمْ تسلم . فقال عدى إنى على دين ، فقال له النبى : أنا أعلم بدينك منك . فقال عدى : أأنت أعلم بدينى منى؟ فقال له النبى نعم ، وعدد له أشياء كان يفعلها مجاراة لجاهلية العرب وليست من النصرانية فى شىء ، كأَخْذِه المِرْباع وهو ربع الغنائم .

ثم قال كما رواه أصحاب السير : يا عدى إنما يمنعك من الدخول فى الإسلام ما ترى : تقول إنما اتبعه ضعاف الناس ، ومن لا قدرة لهم ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، فو الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم . أتعرف الحِيرَة ؟ قال عدى : لم أرها وقد سمعت بها . قال النبى ﷺ : فو الله ليتمن هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد . ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل وقد فتحت عليهم .

فأسلم عدىّ بن حاتم وعاش حتى رأى كل ذلك .

نقول وما قاله النبى ﷺ كله من اتساع ملك المسلمين ، وتضخم دولتهم ، موجود بالمعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

نزلت هذه الآية لما قال بعض المسلمين : ترى هل يؤمننا الله على أنفسنا حتى يصلى أحدنا لا يخاف أن يراه أحد فيبطش به ؟ وقد كان أحدهم إذا صلى خشى أن يراه أحد فيقصده بسوء . وهذا الوعد من أعلام النبوة ، فإن التنبؤ بأن هذه الفئة القليلة ستكون لها دولة فى الأرض تؤهلها أن تكون لها الخلافة فيها كما كان للفرس والرومان ، وتحقّق ذلك يعتبر من أكبر المعجزات المثبتة حسيًّا بحيث لا يمكن أن ينكرها إنسان (*) .

★ ★ ★

---

(١) سورة النور ، الآية (٥٥) .

(★) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الثامن ، شعبان سنة ١٣٦٢ هـ .

المسلمون يزحفون لغزو الرومانيين فى بلادهم

من محارات العقول فى الأحداث الاجتماعية أن دولة لا تربى سنها على العشرين سنة ، تزحف لملاقاة أكبر امبراطورية قامت فى الأرض ، لتردعها عن فكرة الغزو التى كانت تطوف بخيالهم لجماعتها فى بلادهم .

إن مجرد خطور فكرة من هذا القبيل لمجتمع صغير ، وخاصة وهو فى الحالة التى كان عليها المسلمون فى ذلك الظرف من الزمن ، كان يعتبر من موجبات الدهش والذهول .

دولة تستطيع أن تقذف فى حومة الوغى بمئات الألوف من المقاتلة المغاوير ، مسلحين أكمل تسليح ، ووراءهم مدد لا ينضب من الرجال والعتاد ، تتقصدها فى عقر دارها قبصة [1] من الرجال ليس لهم من الوسائل الحربية ما يساوى شيئا يذكر بجانب ما لخصومهم ، فضلا عن المزية التى لعدوهم ، وهى أنه يقاتل قريبا من موارد تموينه وتسليحه ، وهم على مسافة شاسعة من بلادهم ، تقطعها المهارى واليَعْمَلات [2] فى أيام طويلة ، لعمرى إن مجرد التفكير فى غزوة من هذا القبيل تعتبر من البطولة ، فما ظنك بالخفوف إلى تنفيذها ، والزحف إلى بلاد العدو لتحقيقها ؟

كان هذا مثيرا لعجب المنافقين ودهشهم ، حتى أن زعيمهم بالمدينة ، عبد الله بن أُبَىّ ، نسب إليه أنه قال : « يغزو محمد بنى الأصفر (يريد الرومانيين) مع جهد الحال والحر ، والبلد البعيد ! يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال » !

* * *

نورد الآن تاريخ غزوة تبوك ، وهى التى وُجهت ضد الرومانيين ، فنقول :

---

(١) ملء الكف كالقبضة بالضاد .

(٢) اليعملات جمع يعملة ، بفتح الياء والميم : هى الناقة النجيبة المطبوعة على العمل .

نُمى إلى رسول الله ﷺ أن الروم يهمون بغزوه فى بلاده ، وكانت الحالة العامة فى ذلك الوقت لا تسمح بالحرب ، فكان القيظ شديدا ، والإعسار المالى منيخا بكلا كله على الناس ، وقد آذنت الأشجار بأن تؤتى أكلها ، وأحب ما إلى القلوب فى مثل هذه الحالة أن يجنى الناس ثمارهم ، ويتمتعوا بالسعة بعد ذلك الضيق ؛ ففوجىء المسلمون وهم على ما نذكر بالنفير العام .

وأرسل النبى ﷺ إلى أهل مكة والأعراب ، وهم سكان البادية ، يستنفرهم للحرب .

ولما كانت الحالة المالية لا تسمح بتجهيز حملة حربية ، حث رسول الله الأغنياء لبدل المعونة ، فبذل عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار ، وثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، وخمسين جوادا . وتنازل أبو بكر عن ماله كله ، وهو أربعة آلاف درهم . وأعطى عمر نصف ماله ، وعبد الرحمن بن عوف مائة أوقية ، وعاصم بن عدى سبعين وسقا من التمر . وأرسلت كثير من النساء بحليهن . وعبىء الجيش فبلغ عدده ثلاثين ألفا ، وتخلف كثير من المنافقين معتذرين بأعذار واهية ، فكان النبى يقبل عذرهم ، فلامه الله على ذلك فى قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ (أى بالتخلف) ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [١] . ثم قال تعالى فى حقهم : ﴿ إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [٢] . ثم بين أن عدم خروجهم كان خيرا للمسلمين فقال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ، وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [٣] .

لما تمت تعبئة الجيش عيّن النبى ﷺ أبا بكر قائدا عاما له وسلمه لواءه الأعظم ، وعين الزبير بن العوام قائدا للمهاجرين ، وأسيد بن حضير قائدا للأوس ،

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٤٣) .

(٢) سورة التوبة ، الآية (٤٥) .

(٣) سورة التوبة ، الآية (٤٧) .

والحباب بن المنذر قائدا للخزرج (وهما القبيلتان المؤلفتان لأهل المدينة) .

لما وصل رسول الله إلى تبوك لم يجد للرومان جيشا ، وتبين له أن ما كان قد بلغه لم يكن صحيحا ، فأقام بتبوك أياما جاءه فى خلالها يوحنا صاحب أَيْلة ، ومعه أهل قرية جَرْباء ، وهى تقع جنوب الشام ، وأهل إذْرُح وهى مدينة تلقاء السّراة ؛ فصالح يوحنا على إعطاء الجزية وكتب له كتابا هذه عبارته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أَمَنة من الله ومحمد النبى رسول الله ، ليوحنا وأهل أيلة ، سفنهم وسيّارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحوز ماله دون نفسه ، وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » .

وكتب لأهل إذرح وجرباء ما صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبى لأهل إذرح وجرباء أنهم آمنوا بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين » .

وصالح أهل ميثاء على ربع ثمارهم .

ثم استشار النبى ﷺ أصحابه فى مجاوزة تبوك لمقابلة جيش الرومان حيث يجدونه .

فقال له عمر : « يا رسول الله إن كنت أمرت بالسير فَسِرْ » .

فقال عليه الصلاة والسلام : « لو كنت أمرت لم أستشر » .

فقال عمر : « يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة ، وليس فى الشام أحد من أهل الإسلام ، وقد دنونا وأفزعهم دنوّك ، فلو رجعنا فى هذه السنة حتى نرى ، أو يحدث الله أمرا » .

فتبع النبى مشورته وأمر بالرجوع إلى المدينة ، ولما كان على مقربة منها أبلغه

بعضهم أن جماعة من المنافقين أسسوا مسجدا فيها إزاء مسجدها الذى أسسه النبى نفسه ، طلبا لتفريق كلمة المسلمين ، وتذرعا لإحداث الشقاق فى صفوفهم المتراصة . وجاءه جماعة من مؤسسيه يطلبون إليه أن يصلى فيه . فسألهم النبى عن الأمر الذى حملهم على بنائه ؟ فحلفوا بالله ما أرادوا بذلك إلا الحسنى . فلم يقبل النبى منهم ذلك ، وأمر بعض جنوده بهدمه ، ففعلوا . وقد سمى المسلمون هذا المسجد بمسجد الضِّرار ، أى الضرر .

إبلاغ المشركين انتهاء مدة عهدهم :

وفى أواخر شهر ذى القعدة أرسل النبى ﷺ أبا بكر أميرا على الحجاج فخرج معهم ، وبينما هو فى الطريق لحق به على بن أبى طالب مبعوثا برسالة من رسول الله ليبلغها للناس ، وهى آيات من أوائل سورة براءة ، وكانت نزلت بعد سفر الصدّيق . فلما اجتمع الحجيج بمنى قرأ عليهم علىّ تلك الآيات من أول سورة براءة مؤداها :

بطلان العهود التى قطعت للمشركين ولم يوفوا بها ، وإمهالُهم بعد ذلك أربعة أشهر ليسيروا خلالها فى الأرض لا يتعرض لهم أحد ، فإن أسلموا فى أثنائها عدوا من زمرة المؤمنين ، وإن أصروا على كفرهم بعد مضيها سرى عليهم حكم المشركين ؛ وبأن يوفى العهد للمشركين الذين لم ينضموا إلى أعداء المسلمين فى حروبهم لهم ، ولم يغدروا بهم ، وذلك بأن تكمل لهم مدد عهودهم ؛ وأنه لا يسمح بعد ذلك العام لمشرك بحج البيت ؛ وزيد على مؤدى الآيات بأن لا يسمح بأن يطوف بالبيت عريان . وهذا نص الآيات :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ، وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ . وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً ، فَأَتِمُّوا إِلَيْهِم عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ

الْمُتَّقِينَ . فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ، وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ . كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ ، إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ، يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ .اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ، فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ، وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ، وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] .

السنة العاشرة الهجرية :

أول ما حدث فى هذه السنة أن أرسل النبى ﷺ خالد بن الوليد فى جنود ليذهب إلى بنى عبد المدان بنجران فى اليمن ، وكلفه أن يدعوهم للإسلام ثلاث مرات ، فإن أبوا قاتلهم . ففعل وأسلموا . فأقام عندهم يعلمهم الإسلام ويحفظهم القرآن بأمر رسول الله ، ثم أمر عليهم ﷺ زيد بن حصين .

سرية ثانية :

وفى رمضان من تلك السنة أرسل النبى ﷺ على بن أبى طالب فى جنود إلى بنى مَذْحِج (قبيلة يمنية) ، وقال له : « سر حتى تنزل بساحتهم ، فادعهم إلى

---

(١) سورة التوبة ، الآيات (١ – ١٥) .

قول لا إله إلا الله ، فإن قالوا نعم فمرهم بالصلاة ، ولا تبغ منهم غير ذلك . ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس ، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك » .

فلما وصل علىّ إليهم دعاهم إلى التوحيد فلم يقبلوه ، وقابلوا المسلمين بالنبل ، فأمر علىّ جنوده بالزحف عليهم ، فلما هزموهم لم يأمرهم بتعقبهم ، ثم لحق بهم بعد قليل ودعاهم إلى الإسلام ، فأجابوه وبايعه رؤساؤهم قائلين : نحن على من وراءنا من قومنا ، وهذه زكاة أموالنا فخذها ، ففعل ، وعاد بما أخذه إلى رسول الله ﷺ .

إرسال الولاة إلى اليمن :

وفى هذه السنة بعث رسول الله بولاة من قبله على اليمن ، فعين معاذ بن جبل على الكُورة العليا [1] من جهة عدن ، وندب أبا موسى الأشعرى فى الكورة السفلى ، ووصاهما بقوله : « يسِّرا ولا تعسِّرا ، وبشِّرا ولا تنفِّرا » (*) .

★ ★ ★

---

(١) الكورة هى البقعة من الأرض يكون فيها مدن وقرى .

(★) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء التاسع ، رمضان سنة ١٣٦٢ هـ .

رسول الله ﷺ يذكّر المسلمين بأهمّ أصول الإسلام فى آخر حجّة له

فى السنة العاشرة من الهجرة خرج النبى ﷺ للحج ، وكان ذلك يوم السبت الخامس من ذى الحجة ، بعد أن ولى على المدينة أبا دجانة الأنصارى ، وكان معه جمع كبير قُدِّر بتسعين ألفا ، وهو ما لم يعهد له مثيل فى بلاد العرب قبل ذلك العهد .

وفى اليوم الثامن شخص النبى إلى مِنَى فبات بها ، وفى اليوم التاسع منه قصد عرفة وهنالك ألقى على الناس ، وهم يحيطون به ، خطبة جامعة ، ذكر فيها أصولا عامة قام عليها الإسلام لتحفظ عنه فى ذلك الجمع الحاشد ويعمل بها ، لتستقيم جماعتهم على أمتن القواعد ، فإليك ما قاله ﷺ :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيآت أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، واستفتح بالذى هو خير .

« أما بعد ، أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

« أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت [١] ، اللهم فاشهد .

« فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ، وإن مآثر الجاهلية

---

(١) هل قد تأتى بمعنى قد فيكون المعنى : ألا قد بلغت .

موضوعة غير السِّدانة والسِّقاية . والعمْد قَوَد [1] وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

« أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك ، مما تحقرون من أعمالكم .

« أيها الناس ، إن النسيء زيادة فى الكفر يُضَل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض ، منها أربعة حُرُمٌ ، ثلاثة متواليات وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

« أيها الناس ، إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق ، أن لا يوطِئن فرشكم غيركم ، ولا يُدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن ، وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوانٍ [2] لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيرا ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

« أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لا مرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت اللهم أشهد . فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

---

(١) السدانة خدمة الكعبة والسقاية تدبير الماء ليستقى منه الحجاج ، والقود القصاص ، والقصاص هو أن يفعل بالجانى مثل ما فعل .

(٢) عوان أى أسيرات جمع عانية .

« أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

« أيها الناس ، الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا تجوز لوارث وصيته ، ولا تجوز وصيته فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجَر [١] من ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

ألقى النبى ﷺ هذه الخطبة والناس سكوت مصغون كأن على رءوسهم الطير ، وقد اشتملت كما يرىَ القارئون على أصول أولية لم يفه بها خطيب فى بلاد العرب ، وبعضها لم يدر فى خلد أحد قبل الإسلام . فأما التى لم تكن تعرف فى بلاد العرب ، وكان الناس جارين على خلافها ، فمنها تحريم أموالهم ودمائهم عليهم ، وقد كانوا قبل ذلك يعتمدون على الغارات لتحصيل معاشهم من طريق التناهب . وهذا الذى كان اضطرهم لبدعة النسيىء [٢] استصعابا منهم لتمضية ثلاثة أشهر متوالية بدون غارات ، مما كان إذ ذاك لا يتفق وحالتهم المعيشية . فلما جاء الإسلام حرم عليهم ذلك ، ووجههم إلى الوجهات المشروعة لتحصيل العيش ، فكان منهم الجنود المدربون على القتال الذين احتاج إليهم الإسلام فى الدفاع عن بيضته ، والجيوش الجرارة التى خاض المسلمون غمارها فيما كانت لا تزال تقضى بها طبيعة العمران فى تلك القرون ، ففتحوا ممالك كانوا لا يحلمون بوجودها ، وألفوا منها امبراطورية إسلامية كانت لا تغرب عنها الشمس ، اعتبرت أكبر امبراطورية تسنى

---

(١) الفراش الزوج ، لأن كل واحد من الزوجين يسمى فراشا للآخر . والحجر أى الخيبة والحرمان . والمعنى أن الولد لصاحب الفراش : السيد أو الزوج ، وللزانى الخيبة والحرمان .

(٢) النسيىء اسم بمعنى التأخير من نسأ الشيىء نسأ بمعنى أخره . والمراد بالنسيىء فى الآية تأخيرهم حرمة المحرم لصفر ، ذلك أن عرب الجاهلية كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يعيرون فيها على إخوانهم ، لأن معاشهم كان قائما على الغارات . فكانوا يحلون الحرب فى المحرم أحيانا ويحرمونها فى صفر بدلا منه ، وهو تحايل ممقوت لا يرضى به ذو مسكة من عقل .

لأمة أن تؤسسها إلى اليوم ، إذ امتدت من شواطىء المحيط الاطلانطيقى بأسبانيا والبرتغال شرقا إلى بحر الصين غربا ، وتناولت معظم حوض البحر الأبيض المتوسط ، حتى قال مؤرخو الفرنجة إن المسلمين بلغوا فى ثمانين سنة ما لم يبلغه الرومانيون فى ثمانية قرون .

وبسبب جدوبة أرضهم ، وتحريم الإسلام عليهم إغارة بعضهم على بعض طلبا للنهب ، اضطروا للمهاجرة إلى كثير من البلدان التى افتتحوها وحكموها بالعدل الذى لم تحلم به الشعوب المقهورة قبلهم ، واختلطوا بأهلها ، ونشروا بينهم لغتهم بدون إجبار ، ولكن من طريق ميل الشعوب للغة الفاتحين ، حتى تغلبت على لغات تلك الشعوب وأصحبت عربية ، كما يشاهد ذلك بمصر وسورية وجميع سواحل أفريقيا الشمالية والسودان وغيرها .

ولم يكتف العرب بالنزوح إلى البلاد التى افتتحوها ، بل هاجروا طلبا للعيش إلى غيرها مما يعد السفر إليه مخاطرة بالنفس فى ذلك العهد ، كسومترة وجاوة وغيرها بالاقيانوسية . وهذا التوسع فى المهاجرة الذى لم ير مثله لأمة أخرى ، كان سببا فى عدم تلاشى الامبراطورية الإسلامية وبقائها إلى اليوم .

ومنها إعلان قطع كل صلة للعرب بعهد الجاهلية ، حتى ما كان يتعلق منها بالأمور المالية والجنائية والتشريعية ، فمن كان له ربا قرض عند مدين ، أو دم يطالب به خصما له ، أو كان له حق مكتسب فى مكانه شرف ، فلا حق له من ذلك اليوم فى المطالبة به ، لأن كل دلك جاء وفاقا لعقلية الجاهلية ، وطباقا لأصولها ، فلا يجوز أن يعتد به ، لابتنائه على صلالات تقليدية ، وجهالات وراثية ، لا يصح أن يقام لها وزن فى عهد الإسلام القائم على العدل المطلق ، والحق الطبيعى الذى لا يتغير . وإن أمة برمتها تقبل هذا الإجراء الضخم الذى لم يحدث له مثيل فى جميع عهود التاريخ ، لهى أمة كانت قد اقتنعت بأن ما انتهت إليه من التطور الحديد هو الحق الذى ليس وراءه مذهب ، وأن ما كانت عليه كان ضلالا محضا لا يصح أن يقام له وزن .

هذه أمور لا يصح أن يكون حظّها من القارىء كحظ الحوادث العادية فحسب ،

فإنها تنطوى على تطورات بسيكولوجية تعتبر من أعظم المعجزات العلمية ؛ ذلك أن أمة كالأمة العربية كانت تعتد بفضائل أسلافها ، وتبالغ فى حفظ اتصالها بهم وبمآثرهم ، إلى حدود التقديس ، تقبل أن تجعل بينها وبينهم حدا فاصلا ، وأن تبدأ حياة جديدة لا ماضى لها . هذا التطور يجب أن ينظر إليه كنتيجة لثورة اعتقادية وصلت إلى أعماق نفسيتها ، كتبت به صفحة جديدة لا فى التطورات الدينية الفجائية فحسب ، ولكن فى البسيكوجيا الاجتماعية أيضا ، ولا نشك فى أنها من أعجب صفحاتها لمجيئها على خلاف ما عهد من الأصول المقررة فى ذلك العلم ، من وجوب التدرج إلى مثل هذه الغايات البعيدة فى آماد طويلة .

ومنها الانقلاب الذريع الذى نوهت به هذه الخطبة فيما يختص بحالة المرأة فى الإسلام . فإن تصريح النبى ﷺ بأن للنساء حقا على الرجال ، وبأن من ذلك أن يعاشرن بالمعروف ، يضاف هذا كله إلى ما سبق تقريره من حقوقهن فى وراثة أزواجهن ، وفى الاستقلال بإدارة أموالهن ، وبوجوب تعلمهن ، وبإمكان أخذ العلم عنهن ، وقبول شهادتهن إلخ إلخ ، مما أدى بعلماء الدين إلى أن يستخرجوا منه إمكان إسناد مهمتى القضاء والإفتاء إليهن ، كل هذا يحسب من الأمور الجلل التى طرأت لا فى الأمة الإسلامية وحدها ، ولكن فى العالم الإنسانى أجمع ، لأن كل هذه الحقوق النسوية لم يكن يحلم بها أحد فضلا عن أن يطالب بها . وقد دل تاريخ العالم على أن المرأة إلى ذلك العهد كانت محرومة من جميع الحقوق ، إلا ما سمحت به الشريعة الرومانية ، وما سمحت به لا يعد إلى جانب ما منحه إياها من الحقوق شيئا يذكر . ناهيك أن الإسلام أباح لها أن تشترط على زوجها شروطا تعويضية فى العقد ، وأن يكون فصم عرى الزوجية بيدها تنفصل عن زوجها فى أى وقت أرادت ، ولا يكون لذلك الزوج أدنى حق فى منعها من ذلك . كل هذه التجديدات فى عهد كالذى شرع فيه الإسلام تعتبر من الأمور التى يجب أن تستوقف النظر .

ومنها مبدأ المساواة بين جميع أفراد النوع البشرى بصرف النظر عن اللغة واللون والجنس ، وجعل مناط التفضيل بين الناس الصفات النفسية من تقوى الله

والعمل الصالح ، وهذا المبدأ لم ينبِس به متكلم قبل الإسلام قط [1] ، لأن الناس كانوا يعتدون بأجناسهم إلى أقصى حد ، حتى كبار الفلاسفة منهم ، ألم يقل أفلاطون : « إنى لأشكر الله على ثلاث : أن خلقنى إنسانا ولم يخلقنى حيوانا ، وأن جعلنى يونانيا ولم يجعلنى من جنس آخر ، وأن أوجدنى فى عهد سقراط » . ولا يخفى على باحث مدقق أن هذا التعصب من أوهام الأجناس، ولا يقوم على أصل طبيعى ، ولا على مبدأ من العدل المطلق . فمجىء الإسلام بنقضه يعتبر وضعا لأساس ركين لأقوم أصل اجتماعى عرفه الناس منذ وجودهم إلى اليوم ، سيكون متى عم الأمم قاطبة مبدأ لإبطال التناحر ، وإقرار السلام بين جميع الأجناس البشرية ، ونشر عاطفة الأخوة الصحيحة بين آحادها كافة .

يقول معترض من المعاصرين : ليس بمجحود ما أتى به الإسلام من حقوق جديدة للمرأة لم تكن تحلم بها قبله ، ولكن وصفهن بأنهن عوان أى أسيرات عند الرجال ، لا يتفق والحماية العظيمة التى تقولون إنه أحاطهن بها ؛ والتصريح للرجال بعضلهن أى بحبسهن والتضييق عليهن وضربهن ، يشجع كثيرا من الرجال على الغض من كرامتهن ، وتحقير شأنهن ، والتوسع فى الترفع عليهن ، مما لا يتفق وما تواضع عليه الناس فى المدنية الراهنة .

نقول إن كلام النبى ﷺ كان موجها للجماعة التى من حقها درء المفاسد حفظا لها من التفكك والتلاشى ، وموضوعه المرأة الخارجة عن حدود الناموس الأدبى العام ، لا المرأة المحافظة على كرامتها وكرامة أسرتها . وقد كان جزاء ما تصاب به المرأة الخليعة فى ذلك العهد عند غير المسلمين أن تلقى فى النار ، أو تعذب حتى تموت صبرا !

ووصفه ﷺ للنساء بأنهن أسيرات عند الرجال ، تقرير للواقع فى ذلك العهد ، لا لحالتهن الملازمة لهن ، تحت رعاية الشريعة الإسلامية ، التى خولتهن من الحقوق ما لا تزال نساء القرن العشرين محرومات منه . والواقع فى ذلك العهد أن

---

(١) نبس ينبس تكلم . أكثر استعمال هذا الفعل فى النفى ، تقول ما نبس بكلمة .

المرأة العربية التى عاشت آمادا طويلة فى ذل واستعباد ، حتى كان تورث بعد موت زوجها وتباع كما تباع الأنعام ، وليس لها أدنى حق حيال زوجها تطالبه به ، كانت لم تتأهل بعد لأن تطالب بحقوقها بنفسها فى الإسلام ، فكانت لا تزال أسيرة للتقاليد الجاهلية إلى أبعد حد ، ناهيك أن المرأة الشرقية حتى فى هذا العصر الذى من مميزاته التمرد على النظم بحق وبغير حق ، لا تفكر فى المطالبة بحقوقها ، وتصبر عمرها الطويل تحت سلطان معاملة قاسية لا تحاول أن تفتكّ منها ، فما ظنك بالمرأة العربية منذ نحو أربعة عشر قرنا ؟

لا جرم أن المرأة بهذا الاعتبار كانت تعتبر إذ ذاك أسيرة فى بيت زوجها ، وأن لخاتم المرسلين محمد ﷺ الحق فى استعطاف زوجها عليها ، وتذكيره بحقوقها ، ما دامت لم تبلغ هى من الرشد إلى درجة المطالبة بحقوقها والدفاع عنها (*) .

★ ★ ★

(★) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء العاشر ، شوال سنة ١٣٦٢ هـ .

تحقّق الوحدة العربية
باستسلام القبائل للدولة الإسلامية

بعد أن أتم النبى ﷺ فتح مكة وتدريخه قريشا الوثنية ، وبعد أن أطفأ أكبر ثورة قبيلية فى شخص بنى هوازن وما استنصرت به من القبائل المشايعة لها ، عقب ذلك الفتح ، أدركت القبائل العربية المبعثرة هنا وهناك من جزيرة العرب أنه لا عصم لها من المفاجآت إلا بالاعتصام بالدولة الجديدة التى تأسست فى بلادها . وقد كان الدرس الذى تلقته قريش وهوازن من تلك الدولة ، كافيا فى تلقينها هذه الطريقة المثلى لحفظ وجودها بعيدا عن العطب ، فكثرت وفود القبائل على النبى ﷺ ودخولها فى طاعته ، وخضوعها لما يفرضه عليها من الإتاوات لتدارك حاجات الدولة الأدبية والمادية ، وقد بلغ عددها أربعين وفدا . ونحن نورد أشهرها هنا استيفاء لأركان هذه السيرة :

١ - وفد نصارى نَجْران :

نَجْران بلدة كبيرة على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن تشتمل على ثلاث وسبعين قرية ، وصل وفدها إلى مسجد المدينة بعد العصر وكان عددهم ستين رجلا ، فقاموا يصلون صلاتهم ، فمنعهم الناس ، فقال ﷺ : دعوهم يصلوا ، فاستقبلوا المشرق وصلوا ، وكان عليهم أردية من الحرير ، وفى أصابعهم خواتم من الذهب .

ثم عرضوا هدية أتوا بها للنبى ﷺ وإذا فيها أبسطة ذات تماثيل ، ومسوح (هى أكسية من شعر) . فقال رسول الله : أما هذه البسط فلا حاجة لى فيها ، وأما هذه المسوح فإن تعطونيها آخذها . فقالوا نعطيكها .

ثم عرض عليهم النبى ﷺ الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فامتنعوا ، وطلبوا دفع الجزية ، فقبل منهم النبى ذلك ، وكان مقدارها ألف حلة فى صفر وألفا فى رجب ، ومع كل حلة أوقية من الفضة ، وكتب لهم كتابا . فاقترحوا أن يرسل معهم وكيلا عنه ، فأمر أبا عبيدة بن الجراح أن يصحبهم قائلا لهم : هذا أمين هذه

الأمة . فصار يطلق عليه هذا الوصف بين الصحابة .

٢ – وفد ضِمَام بن ثَعْلَبَة :

ووفد عليه ضمام بن ثعلبة فأناخ بعيره فى المسجد ورسول الله جالس بين أصحابه . فنظر إلى الناس وقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فدلوه على النبى ﷺ ، فدنا منه وقال له : إنى سائلك فمشدّد عليك فلا تجد على (أى فلا تغضب منى) . فقال له رسول الله : سل ما بدا لك .

فقال ضمام : يا محمد جاءنا رسولك فذكر أنك تزعم أن الله أرسلك . قال النبى : صدق – فقال ضمام : أنشدك برب من قبلك ورب من بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدونها ؟ قال النبى : اللهم نعم – قال ضمام : أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا ؟ قال النبى : اللهم نعم – قال ضمام : وأنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثنى عشر شهرا ؟ قال النبى : اللهم نعم – قال ضمام : وأنشدك بالله آلله أمرك أن نحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلا ؟ قال النبى : اللهم نعم – قال ضمام : آمنت وصدقت ، ورجع إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فأطاعوه وأسلموا .

٣ – وفد بنى عبد القيس :

كان منازل هذه القبيلة بالبحرين ، وفد منها نفر منهم الجارود وكان على دين عيسى عليه السلام ، فلما أقبلوا سألهم النبى ﷺ قائلا : من القوم ؟ فقالوا من ربيعة . فقال : مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى . فقالوا : مرنا يا رسول الله بأمر نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة .

فقال النبى : آمركم بالإيمان بالله ، أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم .

فسألوه عن النبيذ ، فقالوا يا رسول الله ، إن أرضنا وخمة لا يصلحنا إلا النبيذ .

قال النبى : فلا تشربوا فى النقير (وهو أصل النخلة ينقر ليتخمر فيه الشراب) .

فقال أحدهم واسمه الأشجّ : يا رسول الله إن أرضنا وخمة وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا فرخص لنا فى مثل هذه ، وأشار إلى يده . فأومأ عليه الصلاة والسلام بكفيه وقال : يا أشج إن رخصت لك فى مثل هذه (أى يدك) شربته فى مثل هذه (أى ملء اليدين مجتمعتين) حتى إذا ثمل أحدكم من شرابه قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف .

٤ - وفد بنى حنيفة :

هم بنو حنيفة بن لُجَيْم ، وفدوا على النبى ﷺ وكانوا سبعة عشر رجلا فأسلموا ، وكان معهم رجل يدعى مسيلمة تركوه فى رحالهم ليحفظها وكانوا يعظمونه ، وكان قد بلغ رسول الله أنه قال لو جعل لى محمد الأمر من بعده لا تَّبعْته ، فانطلق النبى إليه فى نفر من أصحابه وفى يده جريدة ، حتى وقف أمامه وقال له : إن سألتنى هذه الجريدة ما أعطيتكها .

٥ - وفد بنى طىء :

بنو طىء من أشهر قبائل العرب ، وفد رجال منهم على رسول الله ﷺ ومعهم سيدهم زيد الخيل ، وكان أعظم قومه جودا ، وأحسنهم خلقا ، فلما أقبل على النبى مسلما قال له وهو لا يعرفه : الحمد لله الذى أتى بك من حزنك وسهلك ، وسهل قلبك للإيمان . ثم قبض على يده وسأله : من أنت ؟ فقال : أنا زيد الخيل بن مهلهل ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبد الله ورسوله . فقال له النبى ﷺ : بل أنت زيد الخير . وعرض الإسلام على من معه فأسلموا . وفى زيد الخيل هذا قال النبى : ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ما قيل فيه ، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ ما قيل فيه كل ما فيه .

وأجاز النبى ﷺ كل رجل من هذا الوفد خمس أواق من الفضة ، وأجاز زيد الخيل اثنتى عشرة .

ولما توفى رسول الله وارتدت قبائل برمتها ومنها بنو حنيفة ، ثبت زيد الخيل على إيمانه .

٦ - وفد عدى بن حاتم الطائى :

كان عدى بن حاتم الطائى قد تنصر فى الجاهلية ، فلما سمع بتدويخ النبى ﷺ لقبائل العرب وخشى على نفسه ، خرج بأهله وماله إلى الشام مهاجرا خوفا من بطشه . وكان له أخت سبيت فيمن سبى من نساء العرب ، فلما عرف رسول الله أنها ابنة حاتم الطائى المشهور بالكرم والمآثر ، أكرمها وكساها وحملها على بعير ، وأعطاها نفقة للسفر إلى أخيها بالشام . فلما لحقت به نصحته أن يلحق بالنبى ﷺ قائله له : إن كان محمد ملكا فأنت أنت لا يصيبك منه أذى ، وإن كان نبيا فللسابق إليه فضيلة . فخرج عدى قاصدا رسول الله ، فلما التقى به حدثت بينهما مباحثة دينية ، ثم قال له النبى : يا عدى لعل المانع لك من الدخول فى هذا الدين ما ترى من حاجة أهله وفقرهم ، فو الله ليوشكنّ المال أن يفيض حتى لا يوجد من يأخذه ؛ ولعلك إنما يمنعك ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، فو الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية (وهى قرية قرب الكوفة) على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف شرا ؛ ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل وقد فتحت عليهم . فأسلم عدى وحسن إسلامه .

٧ - وفد عروة المرادى :

وفد عروة على رسول الله ﷺ ، وكان قد أصيب قومه بنو مراد من بنى همدان فى وقعة بشر عظيم . فلما قابل النبى قال له : هل أساءك ما أصاب قومك ؟ قال يا رسول الله من ذا يصيب قومه ما أصاب قومى ولا يسوءه ؟ فقال له النبى : أما إن دلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيرا . ثم ولاه على قومه وأرسل معه خالد ابن سعيد بن العاصى عاملا على جمع الزكاة .

٨ - وفد بنى زبيد :

وفدوا على النبى ﷺ ومعهم عمرو بن معد يكرب ، وهو فارس العرب

المشهور بالشجاعة ، فأسلم .

٩ - وفد بنى كندة :

هى من قبائل اليمن ، وفد منها ثمانون رجلا على رسول الله ﷺ وقيل ستون ، فيهم الأشعث بن قيس . فلما دخلوا على النبى قالوا له : إننا خبأنا لك خبأ فما هو ؟ وكانوا قد خبأوا له عين جرادة فى إناء سمن . فقال لهم : إنما يفعل ذلك بالكاهن والكاهن والكهانة فى النار . ثم قال بعد كلام : إن الله قد أنزل علىَّ كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فقالوا أسمعنا منه ، فتلا عليهم : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً ، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ، إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ، رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ (١) ، ثم سكت ودموعه تجرى على لحيته ، فقالوا : إنا نراك تبكى أمن مخافة من أرسلك ؟ قال النبى ﷺ : خشيتى منه أبكتنى ، بعثنى على صراط مستقيم فى مثل حد السيف إن زغت عنه هلكت ، ثم تلا : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ (٢) الآية . ثم قال لهم : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى . قال . فما بال هذا الحرير (وكان عليهم جباب مسجوفة بالحرير) ؟ فعند ذلك شقه القوم وألقوه .

١٠ - وفد بنى أزد شَنُوءة :

هم من قبائل اليمن أقبلوا تحت قيادة رئيسهم صُرَد بن عبد الله الأزدى فأسلموا جميعا ، وأمر رئيسهم أن يغزو بهم من كان يليه من أهل الشرك .

١١ - وفد رسول ملوك حمير :

ذلك أن الحارث بن كُلَال والنعمان ومَعَافِر وهَمْدان كتبوا إلى النبى ﷺ بإسلامهم ، فرد عليهم بكتاب أوصاهم فيه برسله الذين أرسلهم إليهم ، وهم معاذ ابن جبل ورجاله معه لتحصيل الزكاة والجزية ، ثم ذكر لهم أن الزكاة لا تحل لمحمد

---

(١) سورة الصافات ، الآيات (١ - ٥) .

(٢) سورة الإسراء ، من الآية (٨٦) .

ولا لآل محمد ، وإنما هى للفقراء وابن السبيل .

١٢ – وفد رسول فروة بن عمرو الجذامى :

أوفد فروة بن عمرو من معان ، وكان عاملا للرومان على ما حولها من أرض الشام ، رسولا إلى النبى ﷺ بهدية هى بغلة وحمار وثياب وقباء مرصع بالذهب ، فقبلها وأعطى الرسول اثنى عشر أوقية من الفضة . فلما بلغ الرومان أمره قبضوا عليه وحبسوه ثم قتلوه .

١٣ – وفد بنى الحارث بن كعب :

وفدوا على النبى ﷺ وأسلموا .

١٤ – وفد رفاعة بن زيد الخزاعى :

وفد رفاعةهذا على النبى ﷺ ، فأرسل معه كتابا إلى قومه يدعوهم فيه إلى الإسلام . فأجاب القوم بالطاعة وأسلموا .

١٥ – وفد بنى همدان باليمن :

تقدم منهم مالك بن نمط ومدح النبى ﷺ ، فأمّره على من أسلم من قومه . وحدث أنه لما بلغه إسلامهم قبل ذلك خرَّ ساجدا ثم رفع رأسه وقال : « السلام على همدان » . وجاء فى الأخبار أنه قال : نعم الحى همدان ، ما أسرعها إلى النصر ، وأصبرها على الجهد ، وفيهم أبدال ، وفيهم أوتاد الإسلام .

١٦ – وفد بنى تجيب من اليمن :

وفد على النبى ﷺ منها ثلاثة عشر رجلا منهم معهم زكاة أموالهم . فقال لهم رسول الله : ردوها على فقرائكم . فقالوا ما قدمنا إلا بما فضل عن فقرائنا ، فدعا لهم وأجازهم .

١٧ – وفد بنى ثعلبة من اليمن :

وفدوا على النبى ﷺ وأسلموا وأبلغوه إسلام من خلفوه من قومهم ، فدعا لهم وأعطى كل رجل منهم خمس أوقيات من الفضة .

١٨ – وفد بنى سعد من اليمن :

قال النعمان : قدمت على رسول الله ﷺ فى نفر من قومى وقد أوطأ البلاد ، والناس صنفان : داخل فى الإسلام رغبة ، أو خائف من السيف ، فدخلنا المسجد وكان المسلمون يصلون على جنازة فانتظرنا حتى انتهوا . فأقبل علينا النبى وسألنا : أمسلمون أنتم ؟ قلنا نعم . قال هم صليتم على أخيكم ؟ قلنا يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبايعك . فقال أينما أسلمتم فأنتم مسلمون . ثم أجازهم وانصرفوا .

١٩ – وفد بنى فزارة :

وفدوا على النبى ﷺ مع رئيسهم خارجة بن حصن ، فسألهم رسول الله عن حالهم ، فقال خارجة : يا رسول الله أسنت بلادنا ، وهلكت مواشينا ، فادع لنا ربك يغيثنا . فصعد المنبر ودعا لهم ، وانصرفوا مقرين بالإسلام .

٢٠ – وفد بنى أسد :

وفدوا على رسول الله وفيهم ضرار بن الأزور فأسلموا ، وسألوه عما كانوا يفعلونه فى الجاهلية من العيافة (وهى زجر الطير والتفاؤل بطيرانها يمينا أو يسارا) ، والكهانة وضرب الحصباء ، فنهاهم عن ذلك .

٢١ – وفد بنى أسد :

وفدوا على النبى وأسلموا ، وقالوا : يا رسول الله لم ترسل إلينا داعيا ولم نقاتلك كما فعل العرب ، فأنزل الله عليه قوله : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ، بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [1] .

٢٢ – وفد بنى عذرة :

هم من اليمن ، وفد منهم اثنا عشر رجلا على النبى ﷺ وحيوه بتحية الجاهلية

---

(١) سورة الحجرات ، الآية (١٧) .

وهى : عم صباحا . فقال رسول الله : مرحبا بكم وأهلا . ثم قال : فما يمنعكم من تحية الإسلام ؟ قالوا يا محمد كنا على ما كان عليه آباؤنا فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولقومنا ، فالإمَ تدعو ؟ فقال لهم رسول الله : أدعو إلى عبادة الله وحده ، وإلى أنى رسوله إلى الناس كافة . فقال متكلمهم : فما وراء ذلك ؟ فقال النبى : الصلوات ، وسرد عليهم بقية الفرائض . فأسلموا . فقالوا : يا رسول الله فينا امرأة كاهنة أفنسألها عن أمورنا ؟ فقال لهم : لا تسألوها عن شيء .

٢٣ – وفد بنى بَلِىّ :

هم حى من قضاعة باليمن ، وفد جمع منهم على رسول الله ﷺ فأسلموا . وقال له شيخهم أبو الضبيب : يا رسول الله إن لى رغبة فى إضافة الناس فهل لى فى ذلك أجر ؟ فقال ﷺ : نعم ، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة . قال يا رسول الله وما وقت الضيافة ؟ قال ثلاثة أيام . قال فما بعد ذلك ؟ قال فصدقة ، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك . قال يا رسول الله والضالة من الغنم أجدها فى الفلاة ؟ قال : هى لك أو لأخيك أو للذئب . قال : فالبعير ؟ قال : مالك وله ، دعه حتى يجده صاحبه .

٢٤ – وفد بنى مرة :

وفد عليه منهم ثلاثة عشر رجلا مقدمين الطاعة ، فلبثوا أياما ثم ودعوه للانصراف ، فأمر لكل منهم بعشر أواق من الفضة ، ولرئيسهم باثنتى عشرة أوقية .

٢٥ – وفد بنى خولان :

هى قبيلة يمنية ، وفد منها عشرة رجال مصدقين برسالة النبى ﷺ ، وموفدين من قومهم . فعلمهم رسول الله الفرائض وأمرهم بالوفاء بالعهد وحسن الجوار وأن لا يظلموا أحدا . ثم أجازهم وانصرفوا .

٢٦ – وفد بنى محارب :

كان هؤلاء القوم أشد الناس على النبى ﷺ ، فلما مثلوا بين يديه نظر إلى رجل منهم وقال له : قد رأيتك . فقال الرجل : نعم ، وأنت فى سوق عكاظ تعرض

الإسلام على الناس ، فكلمتك بأقبح الكلام ، ورددتك بأقبح الرد ، فأحمد الله الآن على أن جاء بى حتى صدقتك . ثم قال يا رسول الله استغفر لى مراجعتى إياك . فقال النبى ﷺ : إن الإسلام يجب ما قبله من الكفر (أى يزيله) ، ومسح وجهه ، واسمه خزيمة بن سواد . ثم أجاز الوفد وانصرفوا .

٢٧ - وفد صداء :

هم حى من عرب اليمن ، وفد على النبى ﷺ منهم رجل ليكلمه فى رد بعث عسكرى كان أعده لغزوهم ، وتعهد بأن قومه على رأيه فى الدخول فى الإسلام ، فرد النبى ﷺ جنوده . ووصل من صداء عشرة رجال فآمنوا ورجعوا إلى قومهم ففشا الإسلام فيهم .

٢٨ - وفد غسان :

وفد على النبى ﷺ من بنى غسان ثلاثة رجال ، فآمنوا شاكين فى إسلام قومهم ، فصدق ظنهم فكتموا إسلامهم .

٢٩ - وفد بنى سلامان :

وفد منهم على النبى ﷺ سبعة رجال فأسلموا وضمنوا إسلام من وراءهم ، فقبل منهم وأجازهم .

٣٠ - وفد بنى عبس :

وفد عليه منهم ثلاثة يسألونه أصحيح ما قاله لهم معلموهم : لا إسلام لمن لا هجرة له ، وإن لنا أموالا ومواشى ، فإن صح هذا بعناها وهاجرنا ؟ فنفى رسول الله هذا القول .

٣١ - وفد بنى مزينة :

وفد منهم على النبى أربعمائة رجل فآمنوا به ، ولما أرادوا الانصراف طلبوا زاداً يكفيهم الحاجة فى الطريق ، فأمر عمر فزودهم تمرا .

٣٢ - وفد بنى أشعر بن ود :

قدم أبو موسى الأشعرى فى رجال من قومه فلقوا النبى ﷺ فأسلموا ، فقال

رسول الله : الأشعريون كصرة فيها مسك . وروى عنه أنه قال : جاء أهل اليمن وهم أرق أفئدة ، وألين قلوبا ، الإيمان يمان ، والحكمة يمانية .

٣٣ – وفد بنى دوس :

بنو دوس ينتهى نسبهم إلى بنى الأزد وهم من اليمن ، أول من قدم منهم الطفيل ابن عمرو الدوسى قبل الهجرة فعرض النبى ﷺ الإسلام عليه فأسلم . قال الطفيل فقلت يا رسول الله إنى امرؤ مطاع فى قومى وإنى راجع إليهم فعارض عليهم الإسلام . فلما ذهبت إليهم اتبعنى بعضهم وأبى أكثرهم ، فعدت إلى النبى فشكوت إليه أمرهم . فقال : اللهم أهد دوسا وائت بهم ، وأمرنى أن أرجع إليهم وأن أرفق بهم ، فرجعت إليهم أدعوهم حتى هاجر النبى فعدت إليه بأربعمائة منهم ، ولم أزل مع النبى حتى فتح مكة ، فطلبت إليه أن يرسلنى إلى صنم دوس لأحرقه فبعثنى . ثم لازمت النبى ﷺ حتى مات .

٣٢ – وفد بهراء :

هى قبيلة من قضاعة باليمن ، وفد منها ثلاثة عشر رجلا أسلموا وعادوا إلى بلادهم .

٣٣ – وفد بنى غامد :

هى قبيلة باليمن أيضا وفد منهم عشرة فأسلموا ، ثم أجازهم وانصرفوا .

٣٤ – وفد بنى الأزد :

هم سبعة رجال من اليمن أسلموا وعادوا إلى بلادهم يدعون قومهم .

٣٥ – وفد بنى المنتفق :

قدم على رسول الله جماعة منهم فأسلموا وعادوا لهداية قومهم .

٣٦ – وفد النخَع :

وفد منهم مائتا رجل مقرّين بالإسلام ، وهم آخر من وفد على النبى ﷺ .

نقول : المتأمل فى توارد القبائل من كل صوب على جماعة المسلمين وإعلان انضمامهم إليهم ، يشهد منظرا رائعا من مناظر التوحد الاجتماعى بسرعة لم يعهد لها شبيه فى تاريخ الجماعات البشرية . لأن أدوار التوحد والاندماج الطبيعية لا تحدث إلا وبين الدور والدور الذى يليه فترة طولة تتخللها حوادث موجبة للتوحد ؛ ولكن الأمر الذى نحن بصدده يجرى على غير السنة الطبيعية ، وبسرعة تكاد لا تصدق . فإن قال قائل : إن الذى دعا إلى هذه السرعة خشية القبائل من بطش المسلمين بهم ، قلنا إن صح هذا على القبائل المجاورة لمكة والمدينة ، فلا يصح على القبائل التى على مسافات شاسعة منهما ، كالتى تسكن اليمن والبحرين وغيرهما .

والذى يزيد هذا الأمر غرابة أن المسلمين لم يصدر منهم عسف بالذين لم يأتوهم طائعين من تلقاء أنفسهم يحملهم على المبادرة بالانضمام إليهم ، فلابد من أن يكون لهذه الظاهرة الاجتماعية باعث نفسانى فى تلك القبائل أشعرها بانقضاء عهد التفرق ، وبأن حياة جديدة قد آذنت بالحدوث لتقود مجموعها إلى وجهة واحدة على غرار سائر الأمم ، مما سنتتبع عوامله فى حالة هذه القبائل حتى بعد انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الخامس عشر ، الجزء الأول ، المحرم سنة ١٣٦٣ هـ .

مرض رسول الله ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى

فى أوائل صفر من السنة الحادية عشرة اعترت رسول الله ﷺ وَعْكة وكان فى بيت زوجته ميمونة ، وبقى مريضاً ثلاثة عشر يوما لم يبطل عادته فى التنقل إلى بيوت زوجاته ، ولكن لما اشتدت عليه الحمى استأذن منهن أن يمرَّض فى بيت عائشة ، فأذنَّ له . ولما تفاقمت درجة حرارته الحثمانية أمر أن يصب على جسده الماء تلطيفاً لشدتها ، فوضع فى مخضب وصب عليه الماء صبا . وكان أبو بكر يصلى بالناس نيابة عنه بأمرٍ منه . ولما استشرى المرض عليه اجتمع الأنصار بالمسجد ، ودخل عليه عمه العباس وأخبره بقلقهم عليه . فخرج عليه الصلاة والسلام متوكئاً على علىٍّ بن أبى طالب معصوب الرأس ، وسار العباس أمامهما وتقدم النبى يخط برجليه ضعفاً حتى جلس فى أسفل مرقاة المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبى قبلى فيمن بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحقٌ بربى ، وأنتم لاحقون بى ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [١] ؛ وإن الأمور تجرى بإذن الله ، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [٢] ؛ وأوصيكم بالأنصار خيراً ، فإنهم الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم فى الثمار ، ألم يوسعوا لكم فى الديار ، ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى ليحكم بين رجلين ، فليقبل من محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا وإنى فرط لكم ،

---

(١) سورة العصر .

(٢) سورة محمد ، الآية (٢٢) .

وأنتم لاحقون بى ، ألا فإن موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرِدَه على غداً فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى » .

وبينما المسلمون فى صلاة الفجر من يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول وراء أبى بكر رضى الله عنه ، إذا برسول الله ﷺ قد كشف سجف حجرة عائشة ، فنظر إليهم وهم صفوف يصلون فتبسم . فلما رآه أبو بكر ظن أنه يريد أن يؤم المسلمين فرجع القهقرى إلى الصف الأول ، وكاد المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحا برسول الله ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر .

ولم تأت ضحوة هذا اليوم حتى لحقت روحه الطيبة الزكية بعالمها مع الرفيق الأعلى . وكان ذلك يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة (٨ من يونيو سنة ٦٣٢) ، وعمره ثلاث وستون سنة قمرية وثلاثة أيام ، وإحدى وستون سنة شمسية وأربعة وثمانون يوما .

وكان أبو بكر فى تلك الساعة غائباً ، فلما رجع وأُخبر بما حدث كشف عن وجه رسول الله وجثا على ركبتيه يقبله وهو يقول : « يا رسول الله ما أطيبك حياً وميتاً ، بأبى أنت وأمى لا يجمع الله عليك موتتين » .

ثم خرج إلى الناس وهم فى حال مقيم مقعد ، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ألا من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » ثم تلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الزمر ، الآية (٣٠) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٤٤) .

ومكث رسول الله ﷺ فى بيته يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويومه وليلة الأربعاء ، حتى أتم المسلمون تعيين خليفة له ، ثم غسله على بن أبى طالب وساعده فى ذلك عمه العباس وابناه الفضل وقثم ، وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله . وكفّن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة .

ولما فرغوا من تجهيزه وضع على سريره فى بيته ، ودخل الناس عليه أرسالا متتابعين ، يصلون عليه ولم يؤمهم أحد ، ثم حفر له لحد فى حجرة عائشة حيث توفى ، وأنزله القبر على والعباس وولداه الفضل وقثم ، ورش قبره بلال بالماء . ورفع قبره عن الأرض شبراً .

شمائله صلى الله عليه وسلم :

كان النبى ﷺ أجمل الناس وجهاً ، نيِّر اللون ، شديد سواد الحدقة مع سعة فيها ، واسع العينين فى حسن ، فى بياضها قليل حمرة ، كثير شعر الأجفان ، مشرق الوجه ، دقيق الحاجبين فى طول ، مرتفع قصبة الأنف مع احديداب يسير فيها ، مفرج بين الثنايا والرباعيات من الأسنان ، مدور الوجه ، واسع الجبين ، كث اللحية تملأ صدره ، سواء البطن ، عظيم الصدر والمنكبين ، ضخم العظام ، ضخم العضدين والذراعين والأسافل ، رحب الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، أنور المتجرد ، دقيق شعر الصدر والبطن ، ربعة القد ، ليس بالطويل المفرط الطول ، ولا بالقصير المتناهى فى القصر ، رَجْل الشعر ، إذا افتر ضاحكا افتر عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام ، وإذا تكلم رؤى كالنور يخرج من بين ثناياه ، أحسن الناس عنقاً ، ليس بكثير اللحم ، ولا صغير الذقن ، متماسك البدن .

أما ما كان عليه ﷺ من نظافة الجسم ، وطيب العرف ، والتنزه عن الأقذار ، فممّا لم يجاره فى ذلك كله أحد .

أما كبر عقله ، وذكاء قلبه ، وقوة مشاعره ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركاته ، وحسن شمائله ، فقد كان فى ذلك كله بالمكان الأرفع .

أما كلامه وبيانه ، فكان بحيث لا يضارعه إنسان غيره ، أوتى جوامع الكلم ،

وقد ملأت أحاديثه الأسفار ، وأكثر العلماء من جمعها وشرحها وبيان أسرار البلاغة فيها .

وأما أخلاقه وآدابه فناهيك أن الله قال فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] ، وقد دل تاريخه كله على ذلك ، فكان أوسع الناس صدراً ، وأرحبهم نفساً ، وأعفهم لسانا ، وأرعاهم للصحبة ، وقد دونت عنه فى ذلك أسفار كثيرة .

أما جوده وشجاعته وحياؤه وحسن معاشرته ، وقوة احتماله وشفقته ورحمته وتواضعه وعدله ووقاره وزهده وتقواه ، فقد كان من كل ذلك مضرب الأمثال ، وهذا كله من أخص مميزات النبوة فى رأينا . فإن الناس العاديين قل من يبلغ المثل الأعلى منهم فى خصلتين أو ثلاث من هذه الخصال ، فبلوغ هذه الدرجة السامية فى جميعها ، مما لم يشاهد فى واحد من جميع أفراد النوع البشرى فى جميع أدوار التاريخ . وتوافرها فى محمد ﷺ قد دل عليه التواتر فلا يمكن التشكك فيه ، وهذا وحده دليل قاطع على صلته الوثيقة بالعالم العلوى بحيث لم تتمكن القوى البشرية فيه أن تطغى عليه فى ناحية من نواحيه الأدبية ؛ وهو مثال رائع لمن يعنى بأمر التربية النفسية ، ويعرف مبلغ قصور البشرية عن قبول الانقياد للناموس الأدبى انقياداً مطلقاً ، حتى مع إلمامها بمضار الجنوح إلى ما يخالفه . وقد أجهد المربون والمصلحون أنفسهم فى الوصول إلى أسلوب يحصل لهم أقصى ما يمكن من تقويم الشخصية الإنسانية ، فعجزوا عن ذلك ، ونسبوا خيبتهم فى كثير مما يحاولونه إلى الحالات الجسدية ، والأمزجة الفطرية ، والعيوب الجِبليَّة الموروثة ، وأجمعوا على أن بلوغ الإنسانية درجة الكمال – إن كان كتب لها أن تحصله – فلن يكون ذلك ثمرة العلم ، لأن العلم قد قام بالواجب عليه ، ولكن ثمرة التطورات المتعاقبة ، وهى تتطلب الآماد الطويلة ، والأحقاب المتوالية . وقد تحدث قهقرى مفاجئة بسبب من الأسباب ، فتقف سنة التطور آماداً أخرى .

ومن المربين من قالوا إن نيل الإنسان للكمال الأدبى غير متيسر فى هذا العالم ، لشدة غلبة الحاجات الجسدية ، ومقتضيات الجبلة البهيمية التى لا تزال متغلبة على

---

(١) سورة القلم ، الآية (٤) .

أهواء الإنسان ، وبحسْب المصلحين أن يستطيعوا التغلب على ما يمكن التغلب عليه بالاستعانة بالمبدأ النفعى . أما طلب الكمال لذاته ، فعندهم أنه سيبقى من حظ الأفذاذ الذين يختارهم موجد الكون ليكونوا مثلا عليا لسواهم من بقية الناس .

إن من يتأمل فى أقوال محمد ﷺ وهو يجود بنفسه – وهذه حالة يُفضَى فيها بين الإنسان وأهول ساعة قُدرت له فى حياته – يتحقق أنها صادرة عن قلب نبى ، لا عن قلب رجل عادىّ . فإن فى تلك الساعة التى يرى الإنسان نفسه على وشْك ترك أهله وذويه ، وكل ما كان يملأ صدره ، ويستوعب فكره من لذاته وعاداته ، يشغله من أمر نفسه شاغل هائل ؛ فإن فكر فى شىء يخرج عن دائرة خصوصياته ، فلا يمكن أن يكون ذلك الشىء مما كان يخادع فيه الناس ليتسلط على عقولهم ، ويسخرهم لسلطانه ، بل شوهد أن بعض الذين كانوا من هذا القبيل ، اعترفوا فى تلك الساعة الرهيبة بجريمتهم ، وتبرأوا من ضلالتهم . والذى رآه الناس من محمد خلاف ما عهده الناس فى أولئك . فإنه لما تحقق أنه لا محالة ميت ، قال للذين احتفّوا به من صحبه : « أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبى فيمن بعث الله فأخلد فيكم ؟ » .

ثم أوصاهم بالحق والصبر وعدم الفساد فى الأرض ، وبالتحابّ والتواصل ، تالياً عليهم قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [٢] . إن رجلا يذكر الحق والصبر وهو يرى الموت بعينيه ، ويذكر الجماعة ، وينهى عن الفساد فى الأرض ، لهو رجل خُلق روحا وجسداً لأداء مهمة عالية قد استوعبت شعوره كله ، ولم تزايله حتى فى تلك الآونة التى يذهل الإنسان فيها عن نفسه وبنيه وكل ما يملك [*] .

★ ★ ★

---

(١) سورة محمد ، الآية (٢٢) .

(٢) سورة العصر .

(★) مجلة الأزهر ، المجلد الخامس عشر ، الجزء الثانى ، صفر سنة ١٣٦٣ هـ .

الفهرس

الموضــوع	رقم الصفحة











